نحو تأصيل الفكر الإسلامي

[2]

فتنة الآبائية

د/ محمد السعيد مشتهري

الكتـــاب: فتنـة الآبائية

المؤلـف : محمد السعيد مشتهري

الطبعـة : الأولى . القاهرة 2010

الناشــر: دار الفكر الإسلامي

رقم الإيداع: 2010/2257

الترقيم الدولي: 977-5378-77-x

Π

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [102]
وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ
أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ
مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [103]
وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ
وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [104] وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [105] يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ
وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ [106] وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ
اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [107] تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ
يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ [108]

ω

[آل عمران102–108]

مقدمة

إن تقليد الآباء بغير علم ولا هدى من الله تعالى، يُصادم منطق التطور الحضاري. وإن حركة الفكر وإبداعاته لا تنشط بتقليد السلف، وإنما بإبداعات الخلف، ذلك أن التقليد يُعطّل فاعلية قدرة الإنسان على التجديد والتطوير، هذه الفاعلية يجب توفرها كي تتحقق فاعلية القرآن الحكيم بوصفه "آية إلهية" قائمة بين الناس إلى يوم الدين.

فهل بعد أن شرف الله تعالى المسلمين بحمل هذه "الآية القرآنية"، وأنعم عليهم بآلات إدراك حية، وبآليات للتدبر والتفكر والتعقل والنظر..، هل يحل لهم أن يتخلوا عن هذا الشرف السامي، وعن هذه النعمة الكبرى، ويعيشوا في هذه الدنيا تابعين مقلدين، لا يتدبرون، ولا يفكرون، ولا يتعقلون..، مأساة تفرق أمتهم، وتخلفها؟!

إن الانطلاق في فهم وتفعيل آيات هذا القرآن الحكيم من تراث السلف، باعتبارهم خيرا من الخلف وأكثر فقها وعلما وحكمة..، انطلاق تكذبه حجية هذه "الآية القرآنية" القائمة على العالمين، ممتدة العطاء إلى يوم الدين، حسب إمكانات كل عصر.

فهل يعقل أن يولد الإنسان حرا، مزودا بإمكانات الإبداع والتطور الفكري، فإذا هو مع انتهاء فترة طفولته، يجد نفسه أسير آبائه، فاقد الحرية الدينية، يعيش في دائرة التقليد الأعمى سجين الظن والوهم..، فإن أراد الخروج منها اتهم بالردة ويستتاب "فإن تاب وإلا قتل"؟!

لقد كان هذا المقلد، المتهم بالردة، أصلا مسلوب الإرادة..، فهل عندما يملك إرادته ويعتني بإقامة البراهين العقلية والمنطقية التي تنير طريقه إلى معرفة الحق، فيقف على التوازن القائم بين ثوابت الدين الإلهي التي لا تقبل التغيير ولا التطوير، وبين متطلبات التنمية المستدامة، والتطور الحضاري، المتغير على مر العصور..، هل بعد ذلك يكون جزاؤه أن يقتل؟!

إن اتباع الظن والهوى فيما يجب أن يكون يقينا، من أكبر آفات الفكر الإسلامي الذي هو أثر من آثار التقليد بغير علم!! وهل هناك آفة أكبر من أن يُسلب الإنسان حرية الفكر والإبداع؟! وهل من مأساة أعظم من أن نرى الأبناء سعداء فرحين بمذاهبهم المتصارعة، وبمنابر دعوتهم المتخاصمة؟!

لذلك لا غرابة أن نجد إنسانا حاصلا على أعلى المؤهلات العلمية، محلية كانت أو دولية، مستمسكا بمذهب آبائه الديني، الذي ولد فيه وتربى على مائدته، وبمرجعيتهم الدينية، التي قد يقاتل في سبيل الدفاع عنها!!

لقد وصلت أزمة التفرق والتخاصم بين علماء ودعاة المسلمين، إلى حد إنشاء قنوات فضائية دينية خاصة، تدعم الأزمة، ليصبح "الفضاء" مسرحا يعرض على العالمين مأساة المسلمين، بعد أن طال عليهم في عصور الفتن الكبرى الأمد، وهم مصرّون على تفرقهم وتخاصمهم!!

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ [16]

الحديد

نعم، ازداد التقليد الأعمى للآباء، وازدادت حدة التعصب المذهبي، كلما بعدنا عن عصر الرسالة. ولقد حملت هذه الآية تحذيرا مبكرا للمسلمين المؤمنين، حتى لا يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم..، فهل استوعب علماؤهم، ودعاتهم، الدرس؟!

لقد أغلقت المذهبية، مع بداية ظهورها، باب الاجتهاد على علماء المذهب، فلما انفتحت، وحدث الحراك الفكري، ظهرت سلبيات كل مذهب، وأصبح المقلد ممنوعا من الاجتهاد في الدين لأنه سجين تراثه الديني، الذي يحذره من أي اجتهاد بعد اجتهاد علماء السلف، باعتبار علم الدين قد تم واكتمل.

لقد حجب تمسك وتعصب الأبناء بتراث آبائهم الديني، كل حسب مدرسة علماء مذهبه في الجرح والتعديل، والتصحيح والتضعيف..، حجبهم عن رؤية الحق، وعن تعلم الدرس، وأصروا على تفرقهم وتخاصمهم..، ما كان له أثره الكبير على هجرهم الذكر الحكيم، "الآية القرآنية"، المعاصرة لهم.

فماذا لو قال الله تعالى للمسلمين يوم القيامة: لقد أمرتكم باتباع سبيل الرسول: الذكر الحكيم، فاتبعتم سبل مذاهبكم المتخاصمة..، فهل عندهم الإجابة؟!

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً [27] يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً [28]

إن سبب ضلال هذا الظالم هو عدم اتباعه سبيل الرسول، وسبيل الرسول في اتباع القرآن الحكيم، الذي هو موضوع الذكر الذي هجره الناس.

لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً [29] الفرقان

فماذا لو قال الله تعالى للمسلمين: لقد أمرتكم باتباع "الآية القرآنية"، التي يستحيل أن تخضع نصوصها لتحريف إنس ولا جان، فهجرتم "الآية القرآنية"، واتبعتم "الرواية البشرية"..، هل ستكون عندهم إجابة؟!

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً [30] الفرقان

إن آيات الذكر الحكيم لم تثبت صحة نسبتها إلى الله تعالى، عند جميع الفرق والمذاهب الإسلامية، بالرواية عن رسول الله، وإلا لجاءت بنفس الصورة المذهبية التي جاء بها تراث ومرويات الفرق والمذاهب المختلفة.

إن الذكر منهج تعليم ودراسة ومذاكرة لنصوص القرآن الحكيم، هذا القرآن الذي لم يحمل المسلمون كتابا، على مر العصور، يثبت صحة إسلامهم غيره. لذلك كان هدفا يعمل المجرمون، أعداء الدين، ليل نهار، على محاولة اختراقه.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنْ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً [31] الفرقان

إنه لابد من تفعيل منهج الاستدلال العقلي للتثبت من مدى حجية ما يحمله المسلمون من تراث ديني، فكما أن المسلم لا يروي خبراً على أنه حقيقة إلا إذا كان على يقين بصحة نسبته إلى صاحبه..، فكذلك لا يقبل أن يُنسب إلى الله شيء إلا ما ثبتت نسبته إليه، عز وجل، على وجه اليقين، وليس فقط إلى رسوله، فقد يكون ما صحت نسبته إلى الرسول، عليه السلام، خاصا بعصر الرسالة، لذلك لم تتضمنه نصوص "الآية القرآنية".

لقد ولد معظم المسلمين في بيئات متعصبة لأئمة مذاهبها، الذين تلقوا علوم الدين عنهم، فاتسعت دائرة التقليد والتعصب المذهبي، وساد الجمود الفكري، ولم يعد للحوار والتحقيق العلمي جدوى!! لقد توقف الفكر الإسلامي عند فكر السلف، على الرغم من دعاوى التجديد والإصلاح، فالأصول التي يرجع إليها الجميع واحدة، والمرجعيات التي تقوم عليها منابرهم الدعوية، هي أمهات كتب الفرق والمذاهب المختلفة.

وبصرف النظر عن المنهج الانتقائي الذي يقبل بعض التراث ويرفض بعضه فالحق أن الجميع ينطلقون من داخل منظومة تراث الآباء الديني. أما إذا اعتبرنا أن التراث الديني مرحلة من مراحل العطاء القرآني، فيجب أن نعلم أن هذا العطاء المتجدد على مر العصور، يجب أن يظل حاكما على هذا التراث الديني.

وعلى هذا، فإن تفسير السلف لآيات الذكر الحكيم، واجتهادهم..، يجب ألا يكون حاكما على فهم واجتهادات المعاصرين لـ "الآية القرآنية"، هؤلاء الذين يتحملون وحدهم مسئوليتهم الدينية أمام الله تعالى.

وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً [13] اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [14] الإسراء

لذلك جاءت حجية "الآية القرآنية" ساطعة، قائمة بين الناس، تُحمّل كل فرد منهم مسئولية الإيمان بفاعليتها، وأنها البرهان الحق على أنه "لا إله إلا الله"، وأن "محمدا رسول الله".

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً [93] لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً [94] وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً [95] مريم

إن كل إنسان مسئول عن فكره الديني، أي عن تدينه، ولن ينفع الخلف تمسكهم بتراث ومرويات السلف، كدين إلهي، بغير علم، أو إذن من الله تعالى..، فقاعدة الجزاء في الآخرة، تقوم على تحمل كل إنسان مسئوليته الفردية كاملة، هذه المسئولية المتعلقة بعالم الشهادة، عالم "الآية القرآنية" المعاصرة لكل جيل، لا بعالم الأموات.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [134] البقرة

ومادام الحساب سيكون في الآخرة حسابا شخصيا، إذن فمسئولية إقامة الدليل على حجية نصوص الدين الإلهي أيضا مسئولية شخصية.

وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [8] العنكبوت

فلن يُعذر الإنسان بعدم علمه بحقيقة التوحيد وأصوله، وسيسأل: على أي أساس اعتنق دين والديه، وما موقفه من "الآية القرآنية" المعاصرة له، والتي لا يكتمل إسلام المرء إلا بالإيمان بفاعليتها، وبعطائها المتجدد على مر العصور.

وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [15] لقمان

إن الإنسان مسئول مسئولية شخصية عن حسن استعمال حواسه، من سمع وبصر وفؤاد..، في التعرف على خالقه، عز وجل، وعلى رسوله، عليه السلام، وعلى نصوص شريعته التي أمره ربه باتباعها.

وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً [36] الإسراء

فهل يعقل، بعد أن زوّد الله تعالى كل إنسان بما يجعله مسئولا مسئولية شخصية عن إخلاص عبوديته لله تعالى، وعن اتباعه الحق الذي أنزله..، أن يحيل هذه المسئولية إلى أئمة مذهبه، ليتحملوها عنه، فيتدبرون نيابة عنه، ويفكرون نيابة عنه ويعقلون نيابة عنه..، وما هو إلا تابع يفعل ما يُؤمر به؟!

إن تراث الآباء نتاج عصرهم هم، لا يمكن أن يغني عن اجتهادات العصور التالية فلكل عصر حاجاته، ومتطلباته، ومشكلاته المستجدة..، فكان لابد أن يكون عطاء الرسالة الإلهية الخاتمة عطاءً متجددا على مر العصور، تتفاعل فيه الخبرات والتخصصات المختلفة ليكون برهانا على خلود وعالمية هذه الرسالة الإلهية الخاتمة.

وإن من الأخطاء التي وقعت فيها "المذهبية" إيمانها بأن تفعيل آليات عمل القلب مسألة ثانوية، وأن النقل والتقليد الأعمى هو الأصل في اتباع المذهب!!

لقد عطلت "المذهبية" آليات التدبر والتفكر، والتعقل، والنظر..، آليات عمل القلب التي كرم الله تعالى بها هذا الوجود البشري، وأوهمت أتباعها أن تقليد أئمة المذهب من مستلزمات الإيمان الصحيح، وأن في هذا التقليد ضمان لثباتهم على المذهب، من غير قلق أو زعزعة!!

فماذا أسفر عنه هذا الوهم، الذي عاش في أسره معظم المسلمين، أتباع هذه المذاهب المختلفة؟! لقد أسفر عن تخلف حضاري، وتخل عن مسئولية الشهادة على الناس، هذه المسئولية التي أنعم الله بها على المسلمين، وكرمهم بها..، فإذا هم يذهبون شرقا وغربا يطلبون لقمة العيش، والسلاح الذي يدافعون به عن أنفسهم!!

لقد أثمرت شجرة المذهبية هجر "الآية القرآنية" وتقديس الرواية البشرية، وقبول المتناقضات والخرافة، والتواكل والعشوائية والفوضى والكسل الذهني، والتلوث الفكري والبيئي..!! والحقيقة أن الله تعالى ما أنزل "آيته القرآنية" المعاصرة للناس على مر العصور، ليهجرها الذين أسلموا منهم، ويتبعوا أئمة سلفهم، واجتهاداتهم المقيدة بزمانها ومكانها!!

وإذا كانت مشيئة الله اقتضت أن تكون الآية الدالة على صدق رسول الله الخاتم محمد، عليه السلام، آية عقلية، تقوم على تفعيل آليات التدبر والتفكر والتعقل والنظر فإن البشرية لن تجني عطاء هذه الآية، المتجدد على مر العصور، والمسلمون تابعون مقلدون، عاجزون عن مواجهة تحدياتهم بفكر وعطاء "الآية القرآنية".

إن القلب السليم، قلب يحمل آليات عمل حية، غير مغيبة، قلب أضاء بنور علم "الآية القرآنية"، وبهداية الحقيقة العلمية. قلب علم من ربه كيف يقيم الدليل العلمي على وحدانيته، من خلال دلائل الوحدانية في الآفاق والأنفس، وليس تقليدا لآبائه أو لمذاهبهم المختلفة، بغير علم!! وهل يدخل الجنة إلا صاحب قلب سليم؟!

يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ [88] إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [89] الشعراء

هل يولد الإنسان حرا؟!

يولد المولود بفطرة إيمانية، وبقلب يحمل آليات التدبر والتفكر والتعقل..، آليات عمل القلب، مما يجعله مؤهلا للتعرف على دلائل الوحدانية، وعلى فاعلية أسماء الله الحسنى فيؤمن ألا إله إلا الله، ويخلص عبوديته لله تعالى، ويقبل دعوة الرسل، ويقيم الدين الذي أمره به ربه، ما لم يحجبه عن ذلك حاجب، من بيئة ينشأ ويتربى فيها.

وعلى الرغم من أن الطفل يولد على فطرة التوحيد حاملا معه من دلائل الوحدانية ما لا يحصى ليقيم الله حجته على الناس على أساس شيء مشاهد قائم بينهم دوما......

وعلى الرغم من أن هذا الطفل عندما يبلغ رشده يظل مرتبطا بهذه الفطرة، فتراه عند الشدة يشعر بحاجته إلى الإله الذي خلقه، لينجيه منها...........

إلا أننا نلاحظ أن تبعية الطفل لوالديه، وارتباطه القلبي بهما، منذ طفولته، يجعله أسير أفكارهم الدينية، ويظل حتى بعد بلوغه النكاح واكتمال رشده وتحمله مسئولية بناء أسرة وتلبية كافة متطلباتها..، يظل يدافع عن ملة آبائه وعن تدينهم الوراثي، بل ويقاتل في سبيل ذلك.

ومما يساعد على ذلك غفلة الآباء، وتقليدهم الأعمى لأئمة مذاهبهم، الأمر الذي ينتقل تلقائيا إلى قلوب أبنائهم، فلا يبصرون دلائل الوحدانية بعين البصيرة، ولا يستطيعون الوقوف على حجية تدينهم الوراثي، فيسهل قيادتهم وتوجيههم حسب ما يراه المذهب.

إن الإنسان يولد بنفس مؤهلة لقبول الإسلام أو الكفر، ثم يحمل ملة آبائه، بغير إرادة منه، ولا حول ولا قوة.

إنها مسألة تربوية، يقوم الآباء، وتقوم البيئة، بالدور الرئيس فيها، تماما كدورهم في تعليم أبنائهم لسان قومهم، فالإنسان يرث الكفر، كما يرث الإسلام، حسب البيئة التي ينشأ ويتربى فيها.

إن الإشكالية في ارتباط الأبناء العاطفي والمعرفي بآبائهم منذ طفولتهم، وقناعتهم باستحالة أن يكون الآباء قد ضلوا طريق الحق..، هذا هو الذي يوقع كثيراً منهم أسرى مذاهب آبائهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

وإن من رحمة الله تعالى بالناس أن خلقهم بجينات تحمل ميثاق الفطرة الإيمانية فطرة التوحيد التي تظل كامنة في قلوبهم، لا تُطْمَس أبدا، في انتظار اللحظة التي يُزال عنها التراكم المعرفي الباطل، فتستطيع أن تتفاعل مع دلائل الوحدانية، ومع دعوة الرسل، وأن تقف على حقيقة تدين صاحبها، ومدى قربه أو بعده منها.

إن تأثير البيئة على فطرة الإنسان، كتأثير خصوبة الأرض على ما تنتجه من ثمار فإما أن تحجب البيئة الإنسان عن فطرته الإيمانية، فطرة التوحيد التي فطر الله الناس عليها، وإما أن تظهرها وتدعّمها وتنمّيها، وهذا كله يتوقف على ما يبذله الإنسان من جهد علمي، للوقوف على الدور الخطير الذي تقوم به البيئة في تدينه الوراثي.

انظر كيف فهم نوح، عليه السلام، عظم تأثير البيئة وخطورتها في حجب الإنسان عن فطرته الإيمانية، فطلب من ربه أن يهلك الكافرين جميعا حتى لا يخرج من أصلابهم ذرية فاجرة كافرة، ثمرة البيئة الكافرة التي تربوا فيها.

وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً [26] إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً [27] نوح

فانظر كيف عبّر نوح، عليه السلام، عن أثر البيئة على ملة الأبناء، بقوله: "وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً". إنه لم يقل "ولا يضعوا"، وإنما قال "ولا يلدوا"، لبيان أثر البيئة الخطير على تدين الأبناء، وكأن هذه البيئة قد اخترقت أرحام الأمهات، وقامت بإعدادهم وتربيتهم، بداخلها، ليخرجوا إلى الدنيا وقد تشربوا مذاهب آبائهم!!

إن القضية مجرد تصور للنتائج عندما يستنفد المرء كل الأسباب المتاحة له. وهذا ما فعله نوح عليه السلام، مع قومه، حتى أصبح على يقين بعدم جدوى دعوته، وأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، كما أخبره الله تعالى:

وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [36] هود

إن أكثر أهل الأرض يعيشون أسرى تدينهم الوراثي، هذا التدين الذي تتواصل حلقاته منذ أن يولد الإنسان إلى أن يتوفاه الله تعالى، ونادراً ما يقف الإنسان وقفة تأمل يتعرف فيها على حقيقة تدينه، ومدى موافقته للحق الذي أمر الله تعالى باتباعه.

لذلك لم تكن الأكثرية، في يوم من الأيام، ولا إجماع عصر من العصور، ولا إجماع أمة من الأمم..، دليلا على الحق، وإنما يُعرف الحق بالحجة والبرهان، ولو قلَّ أتباعه. فقد ينشأ الإنسان في بيئة كافرة، ويخالط أهلها، وعندما يبلغ رشده يستطيع أن ينتزع نفسه من هذه البيئة، استجابة لنداء الفطرة، وتفعيلا لآليات عمل القلب، وتنفيذا لأمر الله تعالى:

وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [8] العنكبوت

فانظر وتدبر هذه الوصية الإلهية، فمع أنها تأمر بمطلق الإحسان بالوالدين، إلا أنها تحذر الأبناء من طاعتهما إذا خالفا ملة التوحيد.

إن هذا يعني أن هناك مرحلة يجب عندها أن يعيد الإنسان تقييم تدينه الوراثي بميزان الفطرة، وبآليات التدبر والتفكر والتعقل والنظر..، وينظر في دعوة الرسل.

وإن هذه المرحلة هي مرحلة ما بعد بلوغ النكاح، واكتمال الرشد، حيث يستطيع المرء عندها أن يقيم البرهان على أن ميراث الآباء حق أم باطل، فإن وجد أنه حق حمد ربه أن نشأ في بيئة موحدة، ودعا ربه أن يرحم والديه كما ربياه صغيرا.

تدبر قوله تعالى في سورة الإسراء:

وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً [24]

وإن وجد أن ما ورثه عن آبائه باطل، فعليه أن يتبرأ من ملتهم، ولا يطعهما، وأن يصاحبهما في الدنيا معروفا:

وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [15] لقمان

فهل يعقل أن يوصي الله تعالى الإنسان بعدم طاعة والديه في ملة الكفر، دون أن يزوده بالأدوات والآليات التي تمكنه من معرفة الفرق بين الكفر والإسلام، بين الحق والباطل؟!

إن مجيء قوله تعالى: "وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ"، بعد قوله تعالى: "وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا"، يبين مدى ما يجب على الإنسان أن يبذله من جهد علمي لإقامة الدليل على أن "إيمانه الوراثي" حق أم باطل.

وإن أول خطوة لتحقيق ذلك، أن يبدأ الطريق من أوله، فيقوم بتفعيل آليات عمل قلبه، وإيقاظها من غفلتها، للوقوف على دلائل الوحدانية، وعلى صدق النبوة، وبطلان "الإيمان الوراثي"، القائم على التقليد الأعمى.

والسؤال: إذا كان الناس يولدون على دين آبائهم، فإذا بلغوا رشدهم، وجدوا قلوبهم قد تشربت ملل آبائهم، وجدوا أنفسهم أسرى تدينهم الوراثي، دون إرادة منهم ولا اختيار.... فهل سيعذر الله هؤلاء الأبناء، الذين اتبعوا ملة الكفر، تقليدا لآبائهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؟! وكيف يعرف الأبناء أن آباءهم على الدين الحق واجب الاتباع؟!

كيف نجيب على هذه الأسئلة، وكيف تُدار هذه الأزمة، وكيف ننزه الله تعالى عن الظلم، ونبرئ رسوله مما نسب إليه كذبا وافتراء؟!

إن إدارة هذه الأزمة تكتب فيها المجلدات، ولكن المحور الأساس الذي يستطيع إدارتها بحكمة وسلام، هو الفهم الواعي لما حملته الآيات التالية من مقاصد عليا:

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ [172] أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ [173] وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [174] الأعراف

إن الخطاب القرآني في هذه الآيات، للناس كافة، لا فرق بين من ورث الكفر ومن ورث الإسلام، فكلهم مطالبون أن يقفوا على حقيقة تدينهم الوراثي، وموقعه من الدين الحق الذي أمر الله تعالى باتباعه.

وعلى الرغم من أن توحيد الله أمر فطري، موجود في أعماق النفس الإنسانية منذ تكوينها: "أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا"..، فإن هذه الفطرة لا تعصم الناس من الانحراف عن الهدى ودين الحق. إنها تظل كامنة تنتظر صاحبها ليقوم بتفعيلها.

فإذا غفل الإنسان عن تفعيل هذه الفطرة، فإنه لن يعذر يوم القيامة بهذه الغفلة: "أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ". كما أنه لن يعذر بتدينه الوراثي، الذي فرضه أبواه عليه يوم ولد: "أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ".

ولقد بين الله تعالى أن مصير تقليد الأبناء لآبائهم بغير علم، هو الهلاك: "أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ". إن الله تعالى سيهلك الأبناء والآباء جميعا، هؤلاء الذين لم يتدبروا ولم يُفكروا، ولم ينظروا.. في تدينهم الوراثي، ليقفوا على حقيقة الدين الإلهي واجب الاتباع؟!

لقد كان على الأبناء، عندما بلغوا النكاح، واكتمل رشدهم، أن يعيدوا النظر في حقيقة ما هم عليه من تدين وراثي، ومدى مطابقته لميثاق الفطرة، ولدلائل الوحدانية ولما جاءت به الرسل.

وإن من رحمة الله تعالى بالناس، أن حذرهم، وهم مازالوا أحياء، من الوقوع في أسر [الآبائية] وفتنتها، وأخبرهم أن باب التوبة مازال مفتوحا، لعلهم يرجعون: "وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ".

لقد امتدت إشكالية قدرة الإنسان على إعادة النظر في تدينه الوراثي إلى ما بعد بلوغه الرشد، لذلك فلنا أن نسأل أيضا:

كم عدد الذين تركوا ملة آبائهم إلى ملل أخرى، بعد بلوغهم الرشد، وبعد مراجعة علمية، وإقامة الأدلة اليقينية، التي تثبت أن ملة الآباء باطلة؟!

يشهد هذا الوجود البشري أن معظم الناس يظلّون على ملل آبائهم، حتى بعد بلوغهم الرشد، بل ويقاتلون دفاعا عنها، إلى أن يتوفاهم الله تعالى.

إن الأبناء لا يقيمون البراهين العقلية التي تنير طريقهم إلى معرفة الحق.

إنهم أبعد الناس عن هداية البرهان الإلهي، وإدراك حقائق الأشياء، وذلك للدور الذي يقوم به الشيطان في تغييب آليات عمل قلبه، من تدبر وتفكر وتعقل ونظر..!!

لقد اعتاد الناس أن ينظروا إلى مرحلة بلوغ أبنائهم النكاح على أساس أنها مرحلة اكتمال الرجولة، أو الأنوثة..، لا على أساس أنها الآية الدالة على استقلالهم الفكري وبداية تحمل مسئوليتهم الدينية كاملة أمام الله تعالى.

لذلك نجدهم فرحين منشغلين بمتطلبات وتحديات هذه المرحلة، وقد أعطوا ظهورهم لنداء فطرتهم الإيمانية، ولآليات عمل قلوبهم، بوجوب إعادة النظر في تقليدهم الأعمى للآباء، عند بلوغهم النكاح.

إن بلوغ النكاح هو أول فرصة تأتي الإنسان لتغيير نفسه للأفضل، هذا التغيير الذي تتوقف إيجابيته، وثماره المرجوة على رغبة الإنسان وإرادته التغيير.

لقد أمد الله تعالى الإنسان بآليات تغيير النفس، وتركه لاختياره، وجعل قرار التغيير للأفضل، أو للأسوء، هو الأساس الذي سيُحاسب عليه يوم القيامة.

وإن من رحمة الله بالناس أن أرسل إليهم الرسل يحملون إليهم ما يُعينهم على تغيير ما بأنفسهم ، وتشخيص أمراض قلوبهم، وإعادتهم إلى فطرتهم السليمة وإلى تفعيل آليات عمل قلوبهم، ليقوموا بدورهم الإيجابي في الحياة وتحمل مسئولية خلافتهم في الأرض.

ولقد جرت سنة الله ألا تُسلب نعمة أنعمها على قوم حتى يكونوا هم سببا في سلبها. ذلك أن الناس جميعا ولدوا على فطرة التوحيد، التي هي من أعظم نعم الله على الإنسان، ومع ذلك لم تحظ هذه النعمة بشكر أكثرهم، ساعد على ذلك سعادتهم بأنهم أسرى منظومة آبائهم الدينية!!

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [53] الأنفال

إن الله تعالى يُمهل الطفل، الذي ولد أسير آبائه، زمنا حتى يبلغ النكاح ويكتمل رشده، بعدها يكون مسئولا مسئولية كاملة عن نفسه، وتوجيهها وإدارتها بما يتفق مع فطرته الإيمانية، وتفاعلها مع دلائل الوحدانية المنتشرة في كل مكان حوله.

فإذا غفل الإنسان عن هذه المسئولية، ولم يقف هذه الوقفة مع نفسه، واستمر على دين ومذهب آبائه، فإن الله تعالى يتركه لقراره واختياره.

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ [11] الرعد

إنه قانون عام، فما يصيب الإنسان من خير أو شر، من سعادة أو شقاء، فمن نفسه، وعلى مسئوليته، وثمرة اختياره.

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [165] آل عمران

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [41] الروم

إن الخروج من أسر الآباء، وتفعيل مبدأ الحرية الدينية، قضية أفراد، وليست قضية حكومات، فليس هناك قوة تستطيع أن تفرض على الإنسان تغييرا هو لا يريده مهما كان ما تحمله من سلاح، لأنها إن استطاعت أن تحمل جسده على التغيير فلن تستطيع أن تحمل قلبه. لذلك فإن التغيير يأتي من داخل النفس، وليس من خارجها.

إن الله تعالى يعلم أن الناس سيولدون أسرى مذاهب آبائهم، مكرهين على اتباعها. كما يعلم سبحانه أن هناك مرحلة يستطيع الإنسان عندها أن يتبين الرشد من الغي فيخرج من هذا الأسر، ويأخذ قرار تدينه بنفسه، وبكامل إرادته..، وهذه المرحلة هي مرحلة بلوغه النكاح.

وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً [6] النساء

إن الإنسان يولد حرا، إذا نظرنا إلى الأمر من ناحية التكليف وتحمل المسئولية الدينية عند بلوغه النكاح، فحريته في قلبه لا يستطيع أحد اختراقها مطلقا. إذن فهل يحل له وقد أنعم الله عليه بآليات التدبر والتفكر والتعقل..، أن تمر عليه هذه المرحلة مرور الكرام، من دون أن يعيد النظر في تدينه الوراثي الذي ظل أسيرا له قبلها؟!

إن شريعة الله تعالى ترفض أن تتواصل حلقات التقليد الأعمى، بعد بلوغ الأبناء النكاح والرشد، إلا إذا قام ذلك على علم، وعلى حجة وبرهان من الله تعالى.

لذلك فإن السؤال الذي سيفرض نفسه، على الوجود البشري كله:

ـ عند أي مرحلة من مراحل عمره استطاع الإنسان أن يعيد النظر في مذهب آبائه الديني، فيقبله عن قناعة ذاتية أو يرفضه؟!

ـ وإذا رفضه فماذا سيكون موقف آبائه، وعلماء مذهبه، من هذا الرفض؟!

ـ وهل سيقيم الله تعالى الحساب في الآخرة على أساس هذا التدين الوراثي الذي فُرض على الناس فرضا يوم ولادتهم؟!

ـ وإذا كان التدين الوراثي سيشفع للإنسان في الآخرة، فما أهمية هذا الحساب إذن والناس جميعا سيدخلون الجنة، بغير حساب، لأنهم عاشوا حياتهم أسرى تدينهم الوراثي لا حول لهم ولا قوة!!

ـ وعلى هذا، فما أهمية إرسال الرسل، إذا كان الناس جميعا سيحاسبون على ما وجدوا عليه آباءهم؟!

والحقيقة.. أن الله تعالى منزه عن الظلم، لذلك يستحيل أن يخلق الإنسان أصلا كافراً أو مشركا، ثم يدخله النار!! لقد خلق الله تعالى الإنسان بآليات تجعله مختارا يأخذ قرار تدينه بإرادته، فإن أراد الفجور كان فاجرا، وإن أراد التقوى كان تقيا:

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا [7] فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا [8] قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [9] وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [10] الشمس

أما الله تعالى فهو سبحانه لا يرضى لعباده الكفر، فتدبر:

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [7] الزمر

إن طوق النجاة، أن يقيم الإنسان تدينه على أساس علمي، قوامه الحجة والبرهان بعيدا عن [الآبائية]، وما تهوى الأنفس، والتقول على الله ورسله بغير علم.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [33] الأعراف

تدبر قوله تعالى: "وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً"

ثم قوله تعالى بعدها: "وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ"

إنه خطر كبير يهدد ملة التوحيد، أن يقلد الأبناء الآباء تقليدا أعمى، بدعوى أنهم ليسوا أهلا للبحث، ودراسة وتقييم إيمانهم الوراثي، فقد قال علماء مذاهبهم قولهم الفصل وما عليهم إلا التقليد والاتباع!!

كيف..، وقد أنعم الله تعالى على الإنسان بنعم لا تحصى..، منها أن خلقه بحواس وآليات للتدبر، والتفكر، والتعقل، والنظر...، آليات عمل القلب، ليقف بنفسه على الدين الحق واجب الاتباع. فهل يعقل أن يعطي الإنسان ظهره لهذه النعم، ويجعل آباءه يتحملون مسئوليته الدينية..، فيتدبرون، ويفكرون، ويعقلون..، نيابة عنه، وما عليه إلا اتباعهم؟! أهكذا يكون شكر الله على عظيم نعمه وواسع فضله؟!

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [78] النحل

ولكي تقف على حجم التقصير، الذي وقع فيه معظم الناس، حين سلموا أنفسهم وآليات عمل قلوبهم، إلى آبائهم، بدعوى أنهم الأكثر علما وفقها وفهما لمسائل الدين فلتراجع الكتاب الأول: "المدخل الفطري إلى التوحيد" موضوع: أدوات فهم القرآن بحث: آليات عمل القلب.

فهل سيعفي الله تعالى الأبناء من مسئولية اتباع الدين الحق ويُحمّلها الآباء؟! وإذا كان أبناء اليوم هم آباء الغد، إذن فعلى أي أساس سيقيم الله تعالى ميزان الحساب في الآخرة؟!

تعالوا نتعرف على فتنة اتباع الآباء بغير علم، وهي فتنة التقليد الأعمى، القائمة بين الناس من لدن نوح عليه السلام، وكيف أنها كانت العقبة الكؤود أمام دعوة جميع الرسل ثم جاء أتباع الرسول الخاتم محمد، عليه السلام، ليتواصلوا مع هذه الفتنة، بل وتوسعوا فيها..، فتفرقوا في الدين، وتخاصموا، وتقاتلوا..، وكل فريق يتبع في ذلك ما وجد عليه مذهب آبائه!!

منظومة الآبائية

إن تطور الحضارات وتقدمها سنة إلهية اقتضتها مشيئة الله أن يجعل في الأرض خليفة. فمنذ أن اصطفى الله آدم، عليه السلام، ليكون أبا لهذا الوجود البشري، نشأت حضارات، وتواصلت معارف، ساهمت في تطور الفكر الإنساني وتحضره.

وإذا كان التقدم الحضاري يرجع الفضل فيه إلى الاستفادة من خبرات السابقين وتطويرها حسب إمكانات كل عصر، فإن الأمر يختلف بالنسبة لأصول الدين الإلهي التي لا تخضع للتطور، ولا تحتاج إلى فقه السلف لتفعيلها، فنصوصها تتنزل على الناس مباشرة، آية معاصرة لهم، يتفاعل عطاؤها مع "منظومة التواصل المعرفي" ومع إمكانات وتحديات ومقتضيات كل عصر.

إن ملة التوحيد أصولها ثابتة، لا تتطور ولا تتغير، من لدن آدم عليه السلام، وإلى قيام الساعة. إنها منظومة متكاملة تحكم الوجود كله، وهي الكائنة في كل ذرة من ذراته أما الشرائع فتغيرت، حسب مقتضيات العصور التي نزلت فيها.

إن خلافة الإنسان في الأرض وتعميرها..، مهمة متحركة، وليست ثابتة، ذلك أن المعارف تتحرك مع تحرك الزمن، والأفكار تتطور مع تقدم الحضارات، ونظرة الأبناء إلى الآباء ومدى تمسكهم بأفكارهم، وبتراثهم الديني، يجب أن توضع في مكانها الصحيح من الشريعة الإلهية، وهو أخذ العبر والعظات إن كانوا طالحين والتأسي بهم إن كانوا صالحين.

إن الذي يأخذ قرار اتباع تراث الآباء هو الإنسان نفسه، وعلى أساس قناعته الذاتية فليس كل التراث الديني مرفوضا، وليس كله مقبولا، والذي يحكم ذلك، ويهدي إلى وجه الحق فيه..، هو تفاعل الإنسان مع فطرته، وآليات عمل قلبه، وآيات الآفاق والأنفس من حوله، والرسالة الإلهية التي أنزلها الله تعالى نورا يهدي بها الناس إلى صراطه المستقيم.

لذلك فإن خطر تقديس الأبناء لتراث آبائهم الديني، يكمن في أن هذه القدسية لا تستمد فاعليتها من الوحي الإلهي، وإنما من مكانة الآباء، وحبهم، وقداستهم في قلوب الأبناء. لذلك وقف الآباء عقبة أمام سنن تغيير ما بالأنفس، وتغيير الواقع الاجتماعي.

لقد ظلت تصرفات الأبناء وشؤون حياتهم، محكومة بفكر الماضي ومعارفه. ولقد وقف الآباء سدا منيعا أمام دعوة الرسل، بما حمله تراثهم الديني من عقائد وتشريعات وأفكار..، لا يحل للأبناء الخروج عنها، في الوقت الذي جاءت الرسالات الإلهية تجيب على إشكالات حاضرهم، وتأخذ بأيديهم نحو مستقبل أفضل.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ [170] البقرة

إن القرآن الحكيم، عندما رد على هؤلاء الآباء الضالين، بقوله تعالى: "أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ"، أراد بذلك بيان أهمية تفعيل الإنسان لآليات عمل قلبه، للوقوف على حقيقة تدينه الوراثي، وأنه لا مقدس إلا كلام الله الهادي إلى صراطه المستقيم.

إن الحديث عن عدم عقلانية الآباء، وعدم هدايتهم..، يبين أن وصول الأبناء إلى اتباع الدين الحق يجعلهم أكثر هداية وتعقلا من آبائهم، فلم يجعلوا مشاعر الحب والتقدير لهم تحكم ما يجب أن يقوم على براهين وأسس علمية وموضوعية.

ولقد وقفت عملية التغييب العقلي، التي يفرزها الإيمان الوراثي، ويفرضها منطق الآباء المعوج..، وقفت عقبة أمام حرية الأبناء في اختيار الدين الحق واجب الاتباع.

لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [256]

نعم.. "لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"، إنها سنة الله التي أقام عليها ميزان الحساب في الآخرة. فكيف يقول الله تعالى بعدها: "قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ"، ثم يجعل مهمة هذا "التبيّن" ومسئوليته، في أيدي الآباء، دون أن يكون للأبناء دور في تحمل هذه المسئولية؟!

ثم كيف سيفرق الأبناء بين دين الطاغوت: "فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ"، ودين الله تعالى: "وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ"..، كي يتمسكوا بالعروة الوثقى، إذا لم يكن قرار تدينهم في أيديهم، لا في أيدي آبائهم؟!

الحقيقة أن مسألة تبين الرشد من الغي أبسط وأسهل مما يتصوره الناس.

إن على الإنسان، في الخطوة الأولى، أن يسأل آباءه عن المصدر أو المرجع الذي استقوا منه نصوص الدين الذي يتبعونه، وهل هو مصدر إلهي أم بشري؟!

ثم تأتي الخطوة التالية: وهي أن يعلم الإنسان طبيعة وخصائص المصدر التشريعي الإلهي، والفرق بينه وبين المصادر التشريعية البشرية..، ليقف على حقيقة ما يلقى على مسامع الناس من أفكار ومعارف وفتاوى دينية، ومدى وجوب اتباعها، كشريعة إلهية.... وعندها سيمكنه أن يتبيّن الرشد من الغي.

لذلك جاءت الآية التالية تُحمّل كل إنسان مسئولية تدينه، وتبشر الذين أخذوا قرار تدينهم بإرادتهم بولاية الله تعالى لهم.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [257] البقرة

ويتحمل الإنسان مسئوليته عند بلوغه النكاح واكتمال رشده، ويصبح فرضا عليه تفعيل إمكاناته الذهنية، التي أنعم الله تعالى عليه بها، وكرمه من أجلها.

فكيف يحجر الآباء على أبنائهم، ويفقدوهم أهليتهم في اتخاذ قرار تدينهم، عندما يكتمل رشدهم؟!

إن الإنسان الذي اكتمل رشده، عليه أن يعرف ربه، مخلصا له الدين، ويقيم شريعته بناء على قراره هو لا قرار آبائه، فتراث وفكر الآباء، وفهمهم لنصوص الشريعة الإلهية قد وجد وفق مقتضيات ومتطلبات عصره، وقد تأتي عصور يعتبر تمسك الأبناء بهذا التراث تخلفا عن ركب الحضارة وتقدمها.

إن المعارف تتسع، والأفكار تتطور، والإمكانات تتغير، وعطاء الله لا ينفد.

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً [109] الكهف

وفي سياق منظومة الرسل الإيمانية الموحدة، على مر العصور، ضرب الآباء المثل الأعلى، في إخلاص عبوديتهم لله تعالى، وتمسكهم بشريعته، وجهادهم لتكون كلمته هي العليا..، فكان حصاد ذلك أن اتبعتهم ذريتهم بإيمان.

فها هو إبراهيم، عليه السلام، الأواه الحليم، يواجه آباءه الضالين المشركين، ولم يسمح لشركهم أن يخترق فطرته الإيمانية بل وأعلنها صراحة:

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ [81] الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [82] وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [83] الأنعام

ولقد كان صلاح إبراهيم، عليه السلام، وإخلاص عبوديته لله تعالى، معينا لأبنائه وذريتهم على تقوى الله، وسببا في تفضيلهم على العالمين. فتدبر هذه المنظومة الإيمانية الموحدة:

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [84]

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ الصَّالِحِينَ [85]

وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ [86]

وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [87]

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [88] الأنعام

لقد ساعدت البيئة الصالحة الأبناء على تفعيل فطرتهم الإيمانية، وهدايتهم إلى صراط ربهم المستقيم. ولأهمية تفعيل الأبناء لهذه الفطرة، ولبيان أن الله تعالى لا يقبل غير التوحيد الخالص، عقب على هذه المنظومة الموحدة بقوله:

"وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ".

نعم.. إنها القضية الأولى التي يجب أن تكون محل خوف قلوب الموحدين: الحذر من الشرك بالله تعالى.

لذلك كان أول شيء اهتم به يعقوب، عليه السلام، وهو على فراش الموت، أن يطمئن على موقف أبنائه من التوحيد الخالص لله عز وجل، فتدبر:

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [133] البقرة

نلاحظ أن السياق جاء يخاطب اليهود، في المقام الأول، وهم الذين يدّعون أنهم على ملة إبراهيم وذريته، فنزل القرآن ينكر عليهم ذلك، ويسألهم:

هل كنتم حضورا ساعة أن وصى يعقوب، وهو على فراش الموت، أبناءه بالتوحيد الخالص، وألا يموتوا إلا وهم مسلمون؟! هل سمعتم جواب أبنائه، الذي أكدوا فيه تمسكهم بملة آبائهم الأولين؟!

الحقيقة أنهم لم يشهدوا هذا الموقف، وإنما حصل لهم العلم به، عن طريق الرسل ونزل القرآن يؤكد ذلك.

لذلك نلاحظ من سؤال يعقوب لبنيه: "مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي"، أنه سأل عن جوهر العبادة: "مَا تَعْبُدُونَ"، وعن الجهة التي توجه إليها، فجاء بلفظ [ما] ولم يأت بـ [من].

لقد أراد يعقوب، باستخدامه هذا الأسلوب، أن يتأكد من فهمهم الواعي لحقيقة التوحيد، وعدم تعلقه بأية صورة من صور العبادات التي كانت منتشرة في عصرهم.

كما أراد أن يبيّن لمن سيأتي بعدهم، من اليهود والنصارى، الذين أثاروا الشبهات حول ملته..، أنه وذريته، كانوا على ملة التوحيد الخالص لله عز وجل، الذي هو ملة آبائهم الأولين، من لدن إبراهيم، عليه السلام.

وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ [135] قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [136] فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [137] صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ [138] البقرة

وتدبر قوله تعالى:

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ [67] آل عمران

لقد جاء جواب أبناء يعقوب في غاية الحكمة، وكشف عن حقيقة توحيدهم، وأنهم أقاموه على أساس علمي، فلم يكونوا مقلدين لآبائهم، وإنما وقفوا بأنفسهم على دلائل الوحدانية، الموصلة إلى الإيمان بوجود خالق واحد لهذا الكون، "لا إله إلا هو":

"نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"

لقد أقاموا توحيدهم، ومعرفتهم بفاعلية أسماء الله الحسنى، من خلال دلائل الوحدانية وتفاعلها مع فطرتهم الإيمانية، لذلك قالوا: "نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ"، أي نعبد الإله الذي تعبده، والذي عبده آباؤك..، ونحن جميعا له مسلمون. فانظر لعمق فهمهم لحقيقة التوحيد..، لقد عَرّفوا الإله المعبود بالإضافة إلى يعقوب دون الاسم العلم، فقالوا "نعبد إلهك" ولم يقولوا "نعبد الله"، لبيان أنهم يعبدون نفس الإله الذي يتصف بجميع الصفات التي شهد له بها يعقوب وآباؤه، فجاءت إجابتهم بشكل محدد، تبين انفصالهم التام عن أشكال العبودية الشركية المختلفة التي كانت منتشرة في عصرهم، والتي أرادوا أن يطمئنوا أباهم من خلو قلوبهم من أية صورة من صور الشرك من قريب أو بعيد.

لقد أراد يعقوب أن يطمئن على ارتباط بنيه بالمنظومة الإيمانية الموحدة، فكان ردهم: "نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ" وذكروا في هذا السياق إسماعيل، عليه السلام، مع أنه ليس أبا ليعقوب ولا جدّه بل هو عمّه، يفهم من ذلك أنهم فهموا أن الأب يريد أن يطمئن على فهم أبنائه لمنظومة التوحيد، والتي يجب أن تشمل الناس جميعا، وفي مقدمتهم المقربون.

تدبر قوله تعالى: فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ [213] وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ [214] الشعراء

إن أول شيء يتمناه المرء عند احتضاره، ودخوله عالم الآخرة، عالم اليقين المطلق..، ألا يموت أهله وأولاده، بل والناس أجمعين..، إلا وهم مسلمون موحدون. وهذا ما دفع يعقوب، عليه السلام، أن يبيّن لأبنائه أنه لن ينفعهم تقليد أو اتباع آبائهم على أساس مكانتهم الدينية، وفضلهم وتقواهم..، وإنما يجب عليهم أن يؤمنوا كما آمنوا ويخلصوا عبوديتهم لله تعالى كما أخلصوا، ويعملوا الصالحات كما عملوا.

إن إسلام المقلد، بغير علم، لا يضيء قلبه بنور التوحيد الخالص لله تعالى، فدائما ما يقف الاتباع والتقليد الأعمى حاجزا بين المرء وإخلاص عبوديته لله تعالى. لذلك عقب الله تعالى على موضوع الآية السابقة بقوله تعالى:

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [134] البقرة

إن قصص الأنبياء والرسل والصالحين، تأتي في القرآن من باب التأسي وأخذ العبر والعظات، فهذه الأمم قد مضت، وخلا منها الوجود البشري، ولن ينتفع بأعمالهم الصالحة غير أفرادها.

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [111] يوسف

ومع أن مسألة أخذ العبر من قصص الأولين أمر بدهي، لا يحتاج إلى الإخبار به إلا أن هذا التعقيب [134/البقرة] جاء في موضعه، خاصة وقد تكرر في موضع آخر من نفس السورة [الآية141] وذلك لزيادة التأكيد على مسئولية الإنسان الدينية المستقلة عن آبائه، وأن على الأبناء ألا يغتروا بصلاح وتقوى آبائهم، فيقلدوهم بغير علم.

لقد حدد الله مسئولية الآباء بشكل قاطع، بقوله: "لَهَا مَا كَسَبَتْ"، وعن مسئولية الأبناء بقوله تعالى: "وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ".. لبيان أن ما كسبه الآباء لا يتجاوزهم إلى غيرهم وكذلك كسب الأبناء لا يتجاوزهم، فلن يسأل المرء يوم القيامة إلا عن عمله هو: "وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ".

وها هو يوسف، عليه السلام، وهو أحد حلقات هذه السلسلة الإيمانية، من ذرية إبراهيم عليه السلام، يتحرك بين الناس موحدا، خلقا وسلوكا.. لم ينحرف عن ملة آبائه الموحدين الصالحين:

قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ [37]

لقد رفض يوسف، عليه السلام، دين الشرك، واختار دين التوحيد.

لقد اعترف يوسف، عليه السلام، وأقر بفضل الله تعالى عليه، وبيّن أن الإيمان بالله تعالى يستلزم الإيمان بالآخرة..، وعلى هذا الأساس أقام يوسف اتباعه لآبائه.

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ [38] يوسف

إنه عندما تكون شجرة العائلة، أصولا وفروعا، على ملة التوحيد الخالص، يصبح التوحيد سمة أفرادها التي يعرفون بها، فتدبر: "مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ".

ما كان للإنسان المكلف، إذا قام بتفعيل فطرته، وآليات عمل قلبه..، ونظر في دلائل الوحدانية من حوله، ووقف على تناغمها مع رسالة الله التي أنزلها على رسله..، ما كان له أن يشرك بالله تعالى.

"ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ".

فهل شكر الناس ربهم على نعمة الفطرة الإيمانية، والهداية إلى صراطه المستقيم والدافعة لهم إلى النظر والتفكر في دلائل الوحدانية، وأدلة صدق الرسل؟!

إن معظم الذين ضلوا صراط ربهم المستقيم، ولم يستجيبوا لدعوة الرسل، واتبعوا ملل ونحل آبائهم..، قد ورد ذكرهم في القرآن الكريم، في سياق الذم، فقد كانوا العقبة الكؤود أمام استجابة الأبناء لدعوة الرسل.

فتدبر هذه المجموعة من الآيات:

فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ [109] هود

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ [35] النحل

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ [68] إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ [69] فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ [70] وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ [71] الصافات

ومن منطلق إيماني بتحمل كل إنسان مسئوليته الدينية أمام الله تعالى، يصبح اتباع وتقليد الآباء، مجرد مرحلة معرفية، على الإنسان أن يعيد النظر فيما حملته إليه من معارف، وذلك بما أنعم الله عليه من فطرة إيمانية، ومن آليات عمل القلب، التي تعينه على تفعيل هذه الفطرة، وتناغمها مع دلائل الوحدانية التي ينطق بها الكون من حوله للوقوف على صدق ما جاءت به الرسل من كتب إلهية، تهدي الناس إلى صراط ربهم المستقيم.

ولكون "اتباع الآباء" جاء في معظم آيات الذكر الحكيم في سياق الذم، فقد استخدمت لفظ [الآبائية] في هذه الدراسة، بهذا المفهوم، لبيان دورها في انحراف الأبناء عن صراط ربهم المستقيم، وكيف أن تراث الآباء الديني، كان دائما هو العقبة التي حالت بين الناس واستجابتهم لدعوة الرسل.

إن [الآبائية] المذمومة تقدس الماضي، وتعيش في دائرة الجمود الفكري..، فقد توقف بها الزمن عند أئمة السلف، لذلك نجدهم يتعصبون لمذاهبهم المختلفة المتصارعة ويرفضون الإبداع والتجديد..، ويعتبرون كل ما يخالف ما عليه أئمة السلف بدعة تأخذ بصاحبها إلى نار جهنم!!

فتعالوا نتعرف كيف عالج القرآن موقف [الآبائية] من دعوة الرسل، من لدن نوح عليه السلام، وكيف تشربت قلوب كثير من الناس هذه [الآبائية] وهم لا يشعرون!!

أولا: قوم نوح

لقد بدأت المواجهة بين نوح، عليه السلام، و[الآبائية] السلفية، التي ورث أعضاؤها الضلال بكافة صوره، فأرسل الله إليهم نوحا لهدايتهم إلى صراط ربهم المستقيم.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [59] قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [60] قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [61] أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [62] الأعراف

وقد بدأت القصة بدعوة قوم نوح إلى فهم حقيقة التوحيد، ملةً وشريعةً، وسلوكا عمليا في واقع الحياة، فما كان منهم إلا أن صدوه، وأعلنوا الحرب عليه، لتتواصل حلقات [الآبائية]، ويظل تراث السلف هو الحاكم على فكر الأبناء، فتدبر:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ [23] فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ [24] إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ [25] المؤمنون

لقد كان قوم نوح، عليه السلام، يؤمنون بالله تعالى: "يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ"، أي اعبدوا الله الذي تؤمنون به، وأكدوا ذلك بقولهم: "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً"، ولكنهم كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى: "مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ"، وأرادوا أن يتدخلوا في شأن الله تعالى، ويشاركوه في حكمه، فطلبوا أن تكون الرسل ملائكة: "لأَنزَلَ مَلائِكَةً" وكانت حجتهم في ذلك ما وجدوا عليه آباءهم: "مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ"!!

أي أنهم بحثوا في تراث الآباء [السلف] فلم يجدوا ما جاء نوح يدعوهم إليه، وعلى هذا الأساس أصبح نوح مبتدعا!! وإلى يومنا هذا، نجد أن علماء الفرق والمذاهب المختلفة إذا واجهتهم برأي، أو اجتهاد...، لا وجود له عند أئمة مذاهبهم، أو مخالف لهم...، قالوا لك: "مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ"!!

وطبعا هذا معناه أن يدخل هذا المجتهد دائرة الاتهام بالكفر، والحكم عليه بالردة واستحلال دمه!! فانظر كيف تتواصل المعارف الباطلة، وتنتشر على أنها معارف حقة داخل منظومة الآبائية السلفية، وكيف يرث الخلف تدينهم الباطل عن السلف!!

إن قوم نوح لم يأخذوا تدينهم المذهبي مباشرة من آبائهم الأولين، الذين توفاهم الله تعالى من قرون، وإنما تلقوه، وسمعوه، من آبائهم المعاصرين، فانظر كيف عبّروا عن تقديسهم لتراث سلفهم بقولهم: "مَا سَمِعْنَا بِهَذَا"، وذلك لبيان مدى ثقتهم العمياء في عدالة وضبط الرواة الناقلين للأخبار والمرويات عن الآباء الأولين، وكأنهم عاشوا معهم وسمعوا منهم مباشرة، نصوص هذا التراث الذي يقدسونه اليوم، ويعتبرونه من الدين واجب الاتباع!!

ثم انظر إلى أسلوب الحرب النفسية، والإشاعات المغرضة، الذي يستخدمه دائما أعضاء منظومة [الآبائية] لصرف الناس عن دعوة الحق، قالوا:

"مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ"، وقالوا: "إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ".

إن الأكثرية المكذبة دائما تنظر إلى القلة المؤمنة نظرة احتقار وتسفيه واتهام بالضلال. وها هم قوم نوح لم يكتفوا بالإصرار على التكذيب، وإنما ذهبوا إلى تحقير نوح، عليه السلام، ومن آمن معه..، وهكذا تفعل [الآبائية] على مر العصور.

فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ [27] هود

إنهم يريدون صد الناس عن سبيل الله، بأية صورة من الصور. إنهم لا يَروْن النبوة ببصيرتهم، كحقيقة واجبة الاتباع، وإنما يرونها ادعاء وافتراء، لذلك قالوا:

"مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا"

إن ما دفعهم إلى هذه الحرب النفسية، وإلى إملاء شروطهم، أنهم هم الأكثرية والأكثرية عندما تتفاوض، تتفاوض من مركز قوة، واثقة من استجابة الآخرين لها.

قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ [111] قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [112] إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ [113] الشعراء

ولكن القلوب التي آمنت، وأخلصت عبوديتها لله تعالى، لا تتنازل عن إيمانها، ولا عن تقواها، مهما كانت قوة الأكثرية [الآبائية]:

وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ [114] إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ [115] الشعراء

انظر إلى موقف الحق في مواجهة إغراءات الباطل: "وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ"..، وهكذا هي الأكثرية، مع كل الرسالات، تذهب إلى اتهام الرسل والمصلحين، وتشويه صورتهم أمام الناس، بعد أن تعجز عن إقامة الحجة والبرهان على صحة ما هم عليه من تدين موروث!!

لقد أضاف الملأ، من قوم نوح، وهم الأكثرية التي بيدها زمام الأمور، أضافوا إلى سجل الاتهامات اتهام نوح بالضلال.

قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [60] قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [61] أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [62] الأعراف

لقد تأصلت ملة [الآباء] في قلوب قوم نوح، فاستمرت دعوة نوح ألف سنة إلا خمسين عاما.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمْ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ [14] العنكبوت

ومع ذلك لم تأت دعوته بثمارها المرجوة، فقد كان أعضاء منظومة [الآبائية] هم الأكثرية الغالبة، فلم يؤمن معه إلا قليل.

وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [36] وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ [37] هود

وكان لابد أن يفصل الله بين الحق والباطل، بين الأكثرية المشركة، والقلة المؤمنة. لقد استجاب الله لدعوة نوح، وأمره أن يصنع الفلك إيذانا بقرب هلاك الكافرين.

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ [40] هود

لقد حملت سفينة نوح القلة المؤمنة وتركت الأكثرية [الآبائية] لعذاب الله.

وقد ظن نوح، عليه السلام، أن ابنه من أهله:

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ [42] هود

وقد وعده الله تعالى أن ينجي أهله.

فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ [27] المؤمنون

ولكن الابن رفض أن يركب السفينة، ونوح لا يعلم سبب هذا الرفض.

قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ [43] هود

لم يكن نوح يعلم أن ابنه من الذين "سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ"، ولا من الذين ظلموا "وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا"، لذلك دعا ربه أن ينجي ابنه من الغرق.

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ [45] هود

حتى أوحى الله تعالى إليه:

قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ [46] هود

لقد أردت بهذه الإشارة، الخاصة بقصة نوح مع ابنه وقومه، أن أبين أن التوحيد الخالص يرفض الشرك، مهما كانت الروابط المتصلة به، والمدعمة له.

فبعد أن علم نوح، عليه السلام، أن ابنه "عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ"، وأنه ليس من القلة المؤمنة التي وعدها الله تعالى بالنجاة، استغفر ربه وأناب.

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ [47] هود

لقد سعدت الأرض بهذه القلة المؤمنة، وجعل الله قصتهم آية للعالمين، وجعل السفينة التي حملتهم رمزا لانتصار الحق على الباطل، ولو قل أتباع الحق، وكثر أتباع الباطل.

لم ينج أحد من الغرق، من أنصار الباطل، أعضاء منظومة [الآبائية].

أما القلة المؤمنة فقد حملت معها من كل زوجين اثنين "فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ" لتقوم بإعادة الخلافة في الأرض، مخلصين لله تعالى الدين.

لقد نجح الشيطان في تحقيق أهدافه بإغواء قوم نوح، وتمسكهم بعضويتهم في منظومة [الآبائية].

فهل واصل مهمته في الإغواء والتزيين لذرية هذه القلة المؤمنة التي نجاها الله تعالى مع نوح، عليه السلام، وأعاد إلى الأرض الكفر والشرك بالله، وارتكاب الفواحش مرة أخرى؟!

نعم...

ثانيا: قوم هود

نعم، لقد خرجت من ذرية هذه القلة المؤمنة كثرة ضلت صراط ربها المستقيم وأعادت فتح باب عضوية منظومة [الآبائية] مرة أخرى. فها هم قوم هود، يسيرون في نفس الطريق الذي سار فيه قوم نوح. يقول الله تعالى في سورة الأعراف:

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ [65] قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنْ الْكَاذِبِينَ [66]

لقد تحدث التاريخ عن عظم حضارة عاد، وكيف كانت تشيد القصور والمصانع المرتفعة عن الأرض، بصورة أدهشت العلماء على مر العصور. فهل شكروا ربهم على هذه النعم؟! لقد وقفت [الآبائية] عقبة في طريق شكر الإله المنعم.

لقد واجه هود، عليه السلام، التكذيب، ونفس الاتهامات التي واجهها نوح، عليه السلام. لقد اتهمه قومه بالسفاهة!! فذهب يُذكّرهم بما حدث لقوم نوح، وأن الله أنعم عليهم بنعم لم تكن في أسلافهم، مما يستوجب الشكر لا الكفر.

قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [67] أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ [68] أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [69] الأعراف

ولكن الغريب، واللافت للنظر، أن أول شيء شغل قوم هود هو أن يحموا أنفسهم من عذاب الطوفان الذي حدث لقوم نوح، خشية أن يصيبهم، فأقاموا أبنيتهم على أماكن مرتفعة عن الأرض، ارتفاعا شاهقا، ظنا منهم أنها ستحميهم من العذاب!!

لقد تصوروا أن عذاب الله هو فقط الطوفان، وأنهم يستطيعون رده، فبيّن لهم هود خطأ هذا التصور، وأنه كان الأولى بهم أن يتوبوا إلى الله تعالى، ويذكروا نعمه عليهم التي لا تحصى، لا أن ينشغلوا بكيفية رد عذابه!!

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ [128] وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ [129]

وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ [130] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [131] وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ [132] أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ [133] وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [134] إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [135] الشعراء

لقد حذرهم هود من طغيانهم وبطشهم بالمستضعفين، وأمرهم بتقوى الله، وذكرهم بما هم فيه من نعم، وبيّن لهم أنه مهما بلغت حصونهم وقلاعهم من الارتفاع والقوة فلن تقف أمام ما ينتظرهم من عذاب الله تعالى.

لقد اغتروا بقوتهم، وبكثرتهم، واستكبروا في الأرض، وجحدوا نعم الله تعالى وكفروا بآياته.

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ [15] فصلت

انظر وتدبر كيف تخترق منظومة [الآبائية] حلقات السلسلة الإيمانية على مر العصور. فها هم عاد، من ذرية القلة المؤمنة التي آمنت مع نوح، يستكبرون في الأرض، ويقولون: "مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً"!! لقد جحدوا آيات الله، وعصوا الرسل، واتبعوا الجبابرة.

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ [59] وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ [60] هود

تدبر قوله تعالى: "وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ" لتقف على تواصل حلقات الطغيان والاستكبار والإفساد في الأرض، من لدن آدم، عليه السلام، هذا التواصل الذي لا يجد له فاعلية إلا على أرض [الآبائية] الضالة، هذه الأرض التي يسكنها أصحاب القلوب المريضة الذين عطلوا آليات التفكر، والتعقل، والنظر..، بأيديهم.

لقد بذل الشيطان أقصى جهده كي تتواصل حلقات [الآبائية] دون انقطاع، وإلا فلماذا لم ينتزع قوم هود أنفسهم من منظومة [الآبائية] الضالة وأصروا على موقفهم ولم يتواصلوا مع القلة المؤمنة، من ذرية من آمن مع نوح؟!

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ [70] قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُنتَظِرِينَ [71] الأعراف

لقد تمثل طغيان الأكثرية في اعتزازهم بآبائهم: "وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا"، وفي استكبارهم: "فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ"، وفي رفضهم دعوة الحق، تمسكاً بخلق الأولين.

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنْ الْوَاعِظِينَ [136] إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ [137] وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ [138] الشعراء

تدبر قولهم: "إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ"، "وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ"!!

لقد تواصلت الملل والمفاهيم الباطلة عبر منظومة [الآبائية]، فها هم لا يريدون أن يتركوا سبيل، ولا خلق، ولا ملة الأولين، الذين وعدوهم، في تراثهم، ومروياتهم، أنهم غير معذبين، وأنهم سيكونون شفعاء لهم في الآخرة!!

وعلى هذا الأساس استعجل عاد، قوم هود، العذاب، فجاءهم العذاب، ريح تدمر كل شيء بأمر ربها.

إنها سنة الاستئصال، والخسف، والغرق، والأمراض الوبائية المهلكة..، التي حقت على الأمم المكذبة.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ [6] إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ [7] الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ [8] الفجر

لقد حملت الريح العذاب الأليم.

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ [24] تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ [25] الأحقاف

إنها ريح عقيم، لا تحمل المنافع التي ترجّى لها الرياح، وإنما حملت الضرر العظيم فلم يبق على الأرض إلا مساكن لا حياة فيها.

لقد أصبح كل شيء كالرميم.

وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الرِّيحَ الْعَقِيمَ [41] مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ [42] الذاريات

لقد جاءت هذه الريح [العقيم] بهذه الصفة، لبيان أن كل ما فعلته عاد من تقدم حضاري، ومن حصون وكهوف ومساكن مرتفعة لتحميهم من عذاب الله، لم تنفعهم شيئا، فقد ابتلعتها هذه الريح، التي لا تبقي ولا تذر!!

وفي سياق آخر، وصف الله هذه الريح بأنها ريح شديدة الصوت والبرودة:

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ [18] إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ [19] تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ [20] فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ [21] القمر

ولقد استمر هذا العذاب أياما معدودات وصفها الله بأنها نحسات:

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ [16] فصلت

ثم بيّن الله تعالى عدد هذه الأيام:

وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ [6] سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ [7] فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ [8] الحاقة

أما القلة المؤمنة، هود والذين آمنوا معه، فقد تواصلت حلقاتهم الإيمانية، مع حلقات نوح والذين آمنوا معه، ليبقى نور الهداية قائما، يهدي الناس إلى صراط ربهم المستقيم. وبهلاك قوم هود، قطع الله تعالى دابر الكافرين.

فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ [72] الأعراف

إن تعطيل، وتغييب، آليات التفكر والتعقل والنظر..، آليات عمل القلب، يحجب الإنسان عن نور الهدى، وعن دين الحق، فيسهل على الشيطان القيام بمهمته في الصد عن سبيل الله، وجحد آياته، وهذا ما فعله قوم هود.

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون [26] الأحقاف

تدبر قوله تعالى: "فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ"

ثم يبين الله سبب ذلك بقوله تعالى: "إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ".

وكان ثمرة عملهم: "وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون".

فهل سارت المسيرة الإيمانية، وتواصلت حلقاتها في أمان بعيدا، عن فتنة [الآبائية] الضالة؟!

لا... لقد خرجت من ذرية القلة المؤمنة كثرة ضالة مضلة، أعادت فتح باب العضوية مرة أخرى لمنظومة [الآبائية].

ثالثا: قوم صالح

فها هم قوم صالح، يسيرون في نفس الطريق الذي سار فيه قوم نوح وهود، مع زيادة احتكارهم للماء، الذي هو عنصر الحياة.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ [141] إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ [142] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [143] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [144] الشعراء

إن تقوى الله تعالى هي الشيء الوحيد الذي يخترق منظومة [الآبائية] ويقتلعها من جذورها.

إن الذي يتقي الله، ينتزع نفسه على الفور من تبعيته لمنظومة [الآبائية] الضالة ويقيم تدينه على فاعلية كتاب الله، الذي جاء لهداية الناس إلى صراط ربهم المستقيم.

لقد تحرك قوم صالح في مواجهة دعوته من منطلق التخاصم والعداء، والاستكبار وإلقاء الاتهامات، واستخدام وسائل الحرب النفسية، وأساليب الدهاء!!

فها هم يظهرون له تقديرهم لصفاته الحميدة، وأنه رجل عظيم، ذكي، عاقل...، لا يتوقعون أن يصدر منه إلا كل خير، الأمر الذي لا يتفق مع تسفيهه دين آبائهم ومنهج سلفهم، وطريقة تفكيرهم..، فماذا كان ردهم:

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ [62] هود

ويتضح من السياق أن صالحا قد خيب ظنهم، فلم ينقد لهم، ولم يتبع ملتهم، ولم يوافقهم على أهوائهم الفاسدة، وفي الوقت نفسه لم تستطع العلاقة الأخوية الحميمة التي تربطه بهم، أن تؤثر على تفاعله مع حلقات المنظومة الإيمانية المتصلة بقوم هود وقوم نوح. لقد كان موقف صالح بالنسبة لهم غريبا: "أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا".

بل وأفصحوا عن شكهم في أن يكون في حالة اتزان وهو يدعوهم إلى إغلاق ملف [الآبائية]: "وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ"

فانظر كيف وصل تقديسهم لآبائهم، وثقتهم في تدينهم الوراثي، إلى التعبير عن ذلك باستخدام الفعل المضارع "مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا"، وكأنهم يَروْن آباءهم أمام أعينهم يقيمون شعائر هذه الملة في عصرهم!! ومن آثار فساد وطغيان قوم صالح، احتكار الملأ للماء، وبذلك أصبحوا يملكون رقاب المستضعفين!!

لقد جاءت الشريعة الإلهية تأمرهم بتقوى الله، والالتزام بالأوامر التي حملها صالح إليهم، عقابا لهم على طغيانهم. فالماء سيتم توزيعه عليهم بأمر الله تعالى، وستشاركهم فيه [ناقة]، وعليهم ألا يمسوها بسوء:

قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [155] وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ [156] الشعراء

إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ [27] وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ [28] القمر

لم تصبح للحجج والبراهين جدوى مع ثمود، قوم صالح، ولم يكن لقوى التكذيب والاستكبار أن تترك صالحا في حاله، فكانت هذه هي النتيجة:

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ [77] الأعراف

لقد أقامت ثمود الحصون، وجعلوا مساكنهم في قلب الجبال المرتفعة، وبطريقة ظنوا أنها تجعلهم في مأمن من الطوفان أو من أي ريح عاصف ظنا منهم أن ذلك سيحميهم من عذاب الله!!

ولقد سُمّي ثمود بـ "أصحاب الحجر"، لأنهم سكنوا واديا عُرف بالحجر، أو وادي القرى، وهو المعروف اليوم بمدائن صالح، على الطريق بين خيبر وتبوك.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ [80] وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ [81] وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ [82] الحجر

ولقد كانت العلامة المميزة لحضارة ثمود هي الإبداع في نحت الجبال والصخور. لقد نحتوا الجبال لتكون حصنا لهم، وحفروا الكهوف لتكون بيوتا لهم، فإذا هم يموتون فيها بسلاح لم يوضع في حساباتهم، وهو [الصيحة]!!

فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ [78] الأعراف

فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ [29] فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ [30] إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ [31] القمر

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ [43] فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ [44] الذاريات

إن الصيحة، والصاعقة، والرجفة، عذاب ثلاثي واحد سماه الله تعالى في موضع آخر بالدمدمة:

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا [11] إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا [12] فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا [13] فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا [14] وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا [15] الشمس

فأين كان الملأ، وأين كان سلطانهم واستكبارهم وطغيانهم، وأسلحة التدمير الشامل تحولهم قطعا من الجماد لا قيمة لها؟! لقد أذهلهم الحدث وهم داخل حصونهم، التي شيدوها في الجبال..، لا يقدرون على شيء.

فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ [45] الذاريات

فهل نفعهم اتباعهم وتقليدهم لآبائهم وأئمة سلفهم؟! لقد انتهت بهذا التقليد الأعمى أكبر وأعظم الحضارات القديمة، حضارة ثمود:

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [52] وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [53] النمل

وتتواصل حلقات التكذيب والاستكبار والإفساد في الأرض، واضطهاد الآبائيين لأهل الحق.

رابعا: قوم شعيب

فها هم مدين، قوم شعيب، عندما دعاهم شعيب إلى إخلاص العبودية لله تعالى وعدم الإفساد في الأرض، وقال لهم:

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ [85] وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [86] الأعراف

فماذا كانت النتيجة؟!

قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ [88] الأعراف

ولاحظ أنهم أكدوا قرار إخراجه باللام، وبنون التوكيد فقالوا: "لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ"، وهذا معناه عزمهم على ذلك، لعلمهم أن شعيباً ومن معه لن يتبعوهم، وهذا ما ظهر جليا في رد شعيب الفوري والذي جاء عقب كلامهم مباشرة حيث قال: "قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ"، ثم قال:

قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ [89] الأعراف

لقد اعتمدت مدين في مواجهة دعوة شعيب على الحرب النفسية، كما فعل أسلافها ولكن هذه المرة تطاولوا على رسول الله شعيب، واستهزؤوا بصلاته:

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ [87] هود

إن الحليم الرشيد في نظرهم، هو من وافقهم على مذهبهم دون نقد لتراثهم الديني!! إنهم يريدون خداع شعيب، بالحديث عن صفاته الحميدة، لعله ينصرف عن تسفيه آلهتهم، فقالوا له: "إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ".

إنهم يريدون أن يتهموه بعدم تعقل الأمور: فكيف تأمره صلاته أن يتركوا ما يعبدون من دون الله، وأن يحجر على أموالهم؟!

وياليتهم اقتصروا على الحوار الهادئ، ولكنهم تعدوا ذلك إلى الإفساد والاستكبار استنادا إلى قوتهم وكثرتهم:

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ [91] هود

انظر، إنها سنة المكذبين على مر الرسالات، اتهام الرسل والمصلحين ودعاة الحق بالسفه والجنون: "مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ"، أي كلامك غير مفهوم، ولا قيمة له عندنا ولا فائدة منه، ثم إنك أصلا لست ممن يُستمع إليه حتى نهتم بكلامك ونحاول فهمه ولولا عشيرتك لقتلناك رجما: "وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ".

ولكن شعيبا أراد أن يبلغ قومه أن العزة لله جميعا، وأن عزته من عزة الله، وليست من عزة عشيرته، مهما بلغت من القوة والكثرة:

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ [92] وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ [93] هود

وبعد أن استنفذ شعيب كل محاولات الهداية مع قومه، وأصبح لا يملك هو والذين آمنوا معه، إلا قوة التوكل على الله..، كان لابد أن يضع الله تعالى نهاية لهذا الصراع القائم بين الحق والباطل، بين الغواية الشيطانية، والهداية الإلهية، بين العمل الصالح والعمل الفاسد..، فنجاهم الله، وأهلك قوى الاستكبار والإفساد في الأرض:

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ [94] هود

فها هم رقود في ديارهم، لا يستطيعون العودة إلى الحياة مرة أخرى:

كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ [95] هود

وتدبر قول الله تعالى في سورة العنكبوت:

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ [36] فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ [37]

تدبر قوله تعالى: "وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ" وقوله تعالى: "فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ"، لتقف على طبيعة هذا العذاب الأليم، عذاب التدمير الشامل، هذا العذاب الذي حذرهم شعيب منه من قبل:

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ [84] هود

وتتواصل منظومة الاستكبار والإفساد في الأرض، ولكنها عندما وصلت إلى عصر فرعون كانت قد وصلت إلى قمة الطغيان.

خامسا: قوم فرعون

لقد جاء فرعون يمثل الأكثرية من الطغاة المستكبرين الجاحدين نعم الله تعالى الرافضين بشرية الرسل، على مر العصور. لقد نجح الشيطان في أن يجد له معينا من هؤلاء الطغاة للصد عن سبيل الله بمختلف أنواع الإغواء وعلى رأسها ادعاء الألوهية.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنْ الْكَاذِبِينَ [38] وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ [39] القصص

لقد اعتمد فرعون في ادعاء الألوهية على تواصل حلقات الاستكبار، واستخفاف المستضعفين، أعضاء منظومة [الآبائية]، وعلى الدور الذي يلعبه الشيطان لتزيين هذه الألوهية في قلوب الناس، في الوقت الذي اتصف فيه الفرعون بجميع أوجه الفساد التي اتصفت بها الأمم الغابرة، بل وطورها بما يناسب مقتضيات عصره.

لقد تلاعب فرعون بأقوات الناس وبخسهم حقوقهم واستعبدهم، واغتصب أرضهم وما الفرعون الذي أرسل الله إليه موسى إلا مثال للفراعنة على مرّ العصور.

وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ [51] أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ [52] فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ [53] فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ [54] الزخرف

تدبر قول فرعون هذا: "أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ".

انظر كيف استطاع الشيطان أن يغرس في قلوب أتباعه مرض "الخيرية الشيطانية" هذا المرض الذي نجح في غرس بذوره أيضا في قلوب أتباع الفرق والمذاهب الدينية المختلفة، فأصبحنا لا نرى مذهبا إلا ويرفع أتباعه راية نحن خير من المذاهب الأخرى..، نحن الفرقة الناجية..، في الوقت الذي تتساوى فيه كل هذه الفرق المختلفة في تبعيتها لمنظومة [الآبائية]!!

لقد استخف فرعون قومه وادعى الألوهية، فأطاعوه، ولم يكن أمامه لمواجهة دعوة موسى إلا إثارة وتحريك الرأي العام ضده وضد أخيه هارون. وكأسلافهم، اتهموا موسى وهارون بالعبث بمقدسات الآباء وبتراث سلفهم الصالح وذلك لتشويه صورتهما وإبعاد الناس عن الاستماع إليهما. إنها سنة أهل الباطل في مواجهة أهل الحق إلى يومنا هذا!!

وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ [127] الأعراف

انظر كيف يحذر الملأ فرعون من دعوة موسى، بدعوى أن موسى وقومه جاءوا ليفسدوا في الأرض، والحقيقة أن الذي جاء به موسى، عليه السلام، هو الآيات البيّنات المثبتة لنبوته.

أما الذي كان عليه فرعون وملؤه فهو عين الإفساد في الأرض، وتزييف الحقائق وافتراء الكذب على الله ورسوله. لذلك جاء ردهم:

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ [36] القصص

تدبر قولهم: "وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ".

إنه نفس السلاح المذهبي الذي يُرفع، من لدن نوح عليه السلام، في وجه كل من يأتي برأي أو اجتهاد لم يأت به السلف!!

ألم يقل قوم نوح له أيضا: "مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ".

فهل يُعقل أن فرعون وملأه لم يسمعوا شيئا عن ملة التوحيد، والصراع بين الحق والعدل، على مرّ العصور؟!

أليست هذه من المعارف التاريخية متواصلة الحلقات والتي كانت منتشرة قبل مجيء موسى، عليه السلام؟!

ولكن الأخطر من ذلك أن يساووا بين الآيات البيّنات، التي شاهدوها بأعينهم، وبين تراث الآباء الموروث، وقولهم "وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا"!!

ومن المعلوم أن الآيات البيّنات التي جاءهم بها موسى، والتي هي الحجة البالغة لا تُسمع، وإنما تُرى، فدل ذلك على أنهم يتحدثون عن تراثهم الديني، ومرويات سلفهم وأساطيرهم..، وكلها أخبار تُسمع وتُروى..، فيساوون بينها وبين الآيات البيّنات المشاهدة، الدالة على حجية الدين الإلهي، الذي جاء به موسى، عليه السلام.

وهل فعل أتباع منظومة [الآبائية] الضالة، على مر العصور، غير ذلك؟! لقد ساووا بين [الآية] الدالة على صدق الله فيما أنزل، وصدق رسوله فيما بلغ...، وبين [الرواية] الدالة على مأساة تدينهم المذهبي الوراثي، والتي تناقلتها الألسن شفاهة ما يقرب من قرن من الزمان قبل تدوينها!!

إن مواقف البشر من دعوة جميع الرسل مواقف ثابتة لا تتغير، فبعد وفاة الرسل تتغير الموازين، ويتحول الناس عن الدين الإلهي النقي الصافي، إلى ما أحدثوه من دين جديد، اختلط فيه الحق بالباطل، والتشريعات البشرية بالشريعة الإلهية.

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ [16] الحديد

فكلما طال الزمان انحرف الناس عن صراط ربهم المستقيم، وأدخلوا في دين الله ما ليس منه، وتحول الناس عن اتباع [الآية الإلهية] إلى اتباع غيرها [الرواية البشرية] مشفوعة باجتهادات أئمة السلف، فيبعث الله رسولا يعيدهم إلى صراطه المستقيم:

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [213] البقرة

لقد تشابهت الأمم في مواقفها من الرسل، على الرغم من تباعدهم زمانا ومكانا:

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ [44] المؤمنون

ولم يكن استحقاق الأمم المكذبة للعذاب بسبب اختيارهم طريق الكفر، فدين الله قائم على حرية الاختيار، ولكنهم استحقوا العذاب بسبب محاربتهم الله ورسوله، وإفسادهم في الأرض، وطغيانهم:

لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [256] البقرة

لقد أكرهت منظومة [الآبائية] أعضاءها على قبول دين الآباء القائم على النقل تقليدا أعمى، بلا وعي ولا فكر..، وليس على تفعيل آليات التفكر والتعقل والنظر.. في هذا الموروث الديني المنقول، فظلوا جامدين متخلفين على مرّ العصور.

لقد تركوا قلوبهم وأفئدتهم مع أسلافهم، فلم يستطيعوا رؤية الباطل الذي حمله الموروث الديني إليهم، ولم تعد لديهم القدرة، ولا الإمكانات العلمية لتقييم أو تحليل أو نقد هذا الموروث الديني المذهبي**!!**

لقد نجح الشيطان بإغوائه أن يمتلك آليات عمل قلوب أتباعه**!!** لقد وقف الشيطان حاجزا بين أتباعه، وبين ميثاق فطرة التوحيد، الذي أقروا به وشهدوا أنه الحق، يوم خلقهم الله تعالى، كما بينت ذلك آيات سورة الأعراف.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ [172]

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ [173] وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [174] الأعراف

ودائما يقف المترفون أمام دعوة الرسل، ظنا منهم أنها جاءت تسلبهم مراكزهم الاجتماعية والمالية..، فكان سلاحهم في صد الناس عنها، هو التركيز على ما يحمله الناس من مشاعر، وعواطف، تجاه آبائهم، وتجاه تراثهم الديني، والذي غالبا ما يقف حاجزا بينهم، وبين تفعيل آليات عمل قلوبهم، فلا يرون ما حمله من باطل.

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ [23]

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [24] فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [25] الزخرف

إن "فتنة الآبائية" تجعل المرء يؤمن أنه على الحق!! فكان من الطبيعي أن يكفر بالحق الذي جاء به الرسل: "إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ".

هذه هي الإشكالية:

قناعة الإنسان بتدينه الوراثي، دون محاولة منه للوقوف على حقيقته، وأثره في تدعيم أزمة التخاصم والتكفير بين البشر على مر العصور.

فهل يُعذر من نشأ في بيئة ضالة، وظل يعيش في ضلاله، بدعوى أنه هكذا وجد آباءه يفعلون، فسار على دربهم، واقتفى آثارهم، وإن بلغ تعدادهم أكثر أهل الأرض؟!

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ [69] فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ [70] وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ [71] الصافات

تدبر قوله تعالى: "إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ".

ثم قوله تعالى بعدها: "وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ".

لقد زرعت [الآبائية] في قلوب أعضائها أن [إجماع] الأمة دليل على خيريتها، وأن علماء السلف سيتحمّلون عنهم مسئوليتهم الدينية!! كيف، وقد تفرقت الأمم بعد وفاة الرسل إلى فرق ومذاهب متخاصمة متقاتلة؟!

فهل نجح الشيطان في تحقيق أهدافه، وتزيين التفرق والتخاصم في قلوب أتباعه فتمسك كل فريق بمرجعيته السلفية، المدعّمة لهذا التفرق، وقاتل دفاعا عنها، بدعوى أنها مرجعية الآباء المقدسة؟!

لا شك أن للشيطان دورا رئيسا في فتنة [الآبائية]

الشيطان وفتنة الآبائية

لقد رفض الشيطان أن يطيع ربه ويسجد لآدم، عليه السلام، بدعوى أنه خير منه فطرده الله تعالى من رحمته، فأخذ على نفسه العهد أن يغوي بني آدم أجمعين، إلا عباد الله المخلصين.

لقد زرع الشيطان في قلوب أتباعه فكرة تقليد الآباء بغير علم والإلقاء بالمسئولية الدينية على أكتافهم، لتظل منظومة [الآبائية] متصلة الحلقات تستمد حجيتها من شيء له مكانته في قلوب أعضائها وهو مشاعر الإجلال والاحترام والتقديس التي تحملها قلوب الأبناء لآبائهم!!

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [12] الأعراف

لقد انطلقت فتنة الشيطان لبني آدم من قاعدة "أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ"، قاعدة هوى النفس فالشيطان يرى أنه خير من آدم وذريته، وعلى هذا الأساس تواصلت حلقات الفتنة الشيطانية لأتباع الرسل على مرّ العصور. لقد علم الشيطان أن السبيل الوحيد للانتقام من آدم هو صد ذريته عن صراط ربهم المستقيم، فعرض على ربه خطته والدور الذي سيقوم به لإغواء بني آدم:

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ [16] ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ [17] قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ [18] الأعراف

لقد أخذ الشيطان على نفسه العهد أن يقعد الصراطَ المستقيم، يترصد القادمين ليفتنهم عنه ويُزيّن لهم سبلا أخرى ليتبعوها، فيُزيّن لأتباعه أن السلف خير من الخلف وأن الماضي خير من الحاضر، وأن الرواية السلفية خير من الآية الإلهية المعاصرة.

قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [39] إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ [40] قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ [41] الحجر

إن عباد الله [الْمُخْلَصِينَ] هم الذين دخلوا في دين الله بإرادتهم، فأقاموا الحق والعدل بين الناس بقناعتهم، ورفضوا عضوية منظومة [الآبائية] حتى لا يكونوا من الغاوين [إِلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ] هؤلاء الذين سيلقي عليهم الشيطان المسئولية يوم القيامة ويتبرأ من شركهم.

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [22] إبراهيم

انظر وتدبر هذا الأسر الاختياري الذي يذهب إليه الإنسان بإرادته:

"وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي"

إن هذا الأسر، هو الذي مَكّن الشيطان من توظيف هوى الإنسان فيما لا يرضي الله تعالى، لذلك لم يُذكر الهوى في القرآن إلا جاء مذموما، لأنه المدخل الشيطاني إلى الشرك بالله تعالى.

أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً [43] الفرقان

لقد عبد الناس آلهة من دون الله، ثمرة اتباعهم الهوى، وعدم تمسكهم بشريعة الله فانسلخوا من دين الله، ملة وشريعة. ولقد ضرب الله تعالى المثل لبيان خطورة اتباع الهوى على ملة التوحيد، وكيف يوظف الشيطان هوى الإنسان لينسلخ من فطرته الإيمانية ويشرك بالله تعالى.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ [175] وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [176] الأعراف

إن قوله تعالى "فَانسَلَخَ مِنْهَا"، دليل على أن ملة التوحيد تحيط بالإنسان إحاطة الجلد بالبدن، يوم ولادته، فإذا ببيئته تُخرجه منها تدريجيا لتحل محلها ملة الكفر!!

وتدبر قوله تعالى: "فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ".

إن الشيطان لم يعرف مدخلا إلى قلب المولود، فلما كبر، وبلغ رشده، وبدأ ينسلخ من فطرته الإيمانية بإرادته، تركه الله لاختياره، ولإغواء الوحي الشيطاني. ولو أن الإنسان أعمل آليات عمل قلبه، واستجاب لنداء فطرته، لعرف صراط ربه المستقيم ولتمسك بشريعته، ولرفعه الله في علّيين:

"وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ".

لقد أخلد الإنسان إلى الأرض، ثمرة تعطيله لآليات التفكر والتعقل والنظر..، آليات عمل القلب. هذا هو المحور الأساس الذي تدور حوله أفكار هذا الموضوع:

دور الشيطان في تدعيم فتنة [الآبائية] عن طريق تغييب آليات عمل القلب.

إن الهوى شهوة من شهوات النفس، التي إذا تمكنت من الإنسان أصبحت تطلب دائما مزيدا، طالما أنها تخضع لسلطان وحكم الشيطان ووساوسِه.

لذلك استحق هذا الإنسان الذي انسلخ من فطرته الإيمانية، ومن شريعة الله، واتبع هواه، أن يمثله الله بالكلب اللاهث:

"فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ"

فكما أن الكلب في جميع أحواله يلهث، فالمقلد لآبائه تقليدا أعمى، يستوي عنده اتباع الحق واتباع الباطل، يستوي الدليل القطعي الثبوت عن الله تعالى، والدليل الظني الثبوت عن رسوله، تستوي عنده الآية الإلهية والرواية البشرية..، لقد توقفت آليات عمل القلب!!

لقد كان على الإنسان أن يرتفع بنفسه إلى الدرجة التي رفعه الله إليها، أما أن يتدنى بها عن هذه الدرجة، فإن ذلك ثمرة اتباعه هواه، وتمكن الشيطان منه، فتوظيف الشيطان لهوى النفس من أكبر المفاسد، ذلك لأنه يُزيّن للإنسان الباطل فيراه حقا!!

ولماذا لا يرى الإنسان الباطل حقا، وقد سلبه الشيطان أهم ما يميزه عن سائر المخلوقات، وهو نعمة القلب الذي يبصر بآليات التفكر والتعقل والنظر؟!

إن هذا الإنسان الذي آتاه الله تعالى الحجج والآيات فانسلخ منها، هو كل من قبل عضوية منظومة [الآبائية] التي فُرضت عليه فرضا يوم ولد، وسار في طريق آبائه بغير علم ولا هدى من الله تعالى.

وفي نفس الوقت تنادي الإنسان فطرته الإيمانية، ودلائل الوحدانية المنتشرة في كل مكان، وتذكره بميثاق التوحيد..، ولكن دون جدوى:

"سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ".

واللافت للنظر، أن هذه الآيات قد سبقتها مباشرة الآيات التي تحدثت عن ميثاق فطرة التوحيد:

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ [172] أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ [173] وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [174] الأعراف

فلقد بدأ السياق القرآني بالحديث عن ميثاق الفطرة، ثم أعقبه بضرب المثل عن انسلاخ الإنسان من آيات الله. ثم تدبر ماذا قال الله تعالى بعد آيتين من هذا السياق:

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ [179] الأعراف

فهل بعد هذا البيان من برهان على أنه يجب على الإنسان أن يقف وقفة يسأل فيها نفسه: هل هو من الذين كرمهم الله تعالى بآليات التفكر والتعقل والنظر..، وقام بتفعيلها فرفعه الله تعالى بها؟! أم أنه ممن أعطوا ظهورهم لها، واتبعوا هواهم فخرجوا من دائرة النوع الإنساني المكرم، إلى دائرة أحط من دائرة الأنعام؟!

تدبر قوله تعالى: "الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا"، فمن كان وراء ذلك غير الشيطان وتغييب آليات عمل القلب؟!

وتدبر قوله تعالى: "أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ"، فمن كان وراء ذلك غير الشيطان وتغييب آليات عمل القلب؟!

وتدبر قوله تعالى: "لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا"، فمن كان وراء ذلك غير الشيطان وتغييب آليات عمل القلب؟!

إن صدق التوجه إلى الله تعالى يستحيل أن يتحقق باتباع الشيطان، وهوى النفس وإنما باتباع العلم، والفهم الواعي لحقيقة الوحي الإلهي وخصائصه، وهنا يستطيع الإنسان أن يواجه تحدياته بقوة وثبات، فهو لا يتبع إلا ما أمره الله باتباعه.

أما إذا تمكن منه الهوى، فإنه يتحول إلى شهوة متبعة، فيسهل على الشيطان إيقاعه في الشرك.

وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً [125] النساء

نعم.. فعندما يتبع المسلم "مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً"، يكون قد أسلم حق الإسلام، أما عندما يرث المسلم دين آبائه، ويتخلق بأخلاقهم بغير علم، ولا إذن من الله تعالى، فقد يقع في الشرك بالله، وهو يحسب أنه يحسن صنعا، لمجرد أنه يؤدي بعض الشعائر الدينية!!

وهذا ما نجده في كثير من أتباع الطوائف الدينية، على مرّ الرسالات، الذين ينطلقون في تدينهم من منطلق التقليد الأعمى للآباء، فيحلون ويحرمون حسب أهوائهم وما يأمرهم به الشيطان الرجيم!!

إنه مع نمو شجرة [الآبائية] المذهبية، التي يتولى رعايتها هوى النفس، ويقوم بإدارة شئونها الشيطان الرجيم، يبدأ الإنسان في الانسلاخ تدريجيا من شجرة التوحيد الطيبة الكامنة في فطرته، ومن شريعة ربه الهادية إلى صراطه المستقيم.

فهل ترك الله عباده لإغواء الشيطان الرجيم، وفتنة سلطان [الآبائية] دون تحذير؟!

إن من رحمة الله تعالى بالناس أن بيّن لهم السبيل إلى العبودية الحقة، التي تحصنهم من فتنة هذه المنظومة الشيطانية، وبيّن لهم، أن الولاء لا يكون إلا للحق وأهله، وأن من يتخذ الشيطان وليا فإنه يضله ويخرجه من ملة التوحيد.

يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ [27] الأعراف

إن العبودية الحقة لا تقوم على مخالفة شرع الله تعالى، واتباع الظن والهوى.

إن العبودية الحقة لا تقوم على فتنة الشيطان، الذي يزين الباطل لأتباعه ليروه حسنا، فتدبر:

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [28] الأعراف

إن العبودية الخالصة لله تعالى تقوم على الحجة والعلم والبرهان، وهذا هو السبيل الهادي إلى صراط الله المستقيم.

وإن من اتبع سبيلا غير سبيل الله، هداه الشيطان إلى عذاب السعير.

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ [3] كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ [4] الحج

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَرِيداً [117] لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً [118] النساء

وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً [119] النساء

يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً [120] أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً [121] النساء

تدبر قوله تعالى:

"وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ"، وقوله تعالى: "وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَرِيداً".

لتعلم أن ثمرة اتباع الفتنة الشيطانية هي:

"وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً".

إن كل من اتخذ من دون الله أولياء، سواء كانوا أشخاصا، أو مصادر تشريعية ما أنزل الله بها من سلطان، فإنه في الحقيقة لا يتخذ غير الشيطان وليا، لذلك يخسر خسرانا مبينا.

ولا يقولن قائل: فما علاقة المسلمين بكل هذا، فهم خير أمة أخرجت للناس، وهذه الآيات قد جاءت تتحدث عن المشركين المكذبين، وليس عن المسلمين المؤمنين؟!

أقول: إن الأبناء يرثون ملة الآباء دون إرادة منهم، ويستمر التمسك بهذا الموروث الديني حتى بعد بلوغهم النكاح واكتمال رشدهم.

فلماذا، عند بلوغ هذه المرحلة من العمر لا يستقيظ الإنسان من سبات التقليد الأعمى، ويدرك أن له ربًا يجب عليه أن يعبده حق عبادته، الأمر الذي يفرض عليه مهما كانت هويته الدينية وتمسكه بـ [الآبائية] أن يعيد النظر في تدينه الوراثي؟!

إن ملة التوحيد لا تعرف الإيمان الوراثي إلا إذا قام على أساسها، لذلك كان ما يجب على الإنسان فعله هو أن يتأكد من أن إيمانه الوراثي يقوم على ملة التوحيد وذلك بقناعته الشخصية القائمة على العلم، وتفعيل آليات عمل القلب، وليس بسؤال أتباع مذهبه الذي ولد فيه، وتربى على مائدته!!

ولكن الشيطان الرجيم، لم، ولن، يسمح مطلقا أن يستيقظ الأبناء من سباتهم ليهدموا خطته وأهدافه، لذلك يعمل، هو وجنوده، على تغييب وتعطيل آليات عمل قلوبهم إلى ما بعد بلوغ النكاح..، وقد نجح فعلا في ذلك. فنجد أن معظم الناس يمرون على فترة بلوغ النكاح واكتمال رشدهم، مرور الكرام، متمسكين بعضويتهم في منظومة [الآبائية] إلى أن يتوفاهم الله تعالى!!

أليس هذا هو الواقع المشاهد الذي لا يخفي على كل ذي بصيرة؟!

فإذا علمنا أن العهد الذي أخذه الشيطان على نفسه هو إغواء بني آدم أجمعين، وأن الباب الرئيس لهذا الإغواء هو باب الشرك بالله تعالى، الذي مفتاحه تغييب آليات عمل قلب الإنسان..، يصبح على كل إنسان أن يقف وقفة مع نفسه، ليعرف أين هو من الإغواء الشيطاني:

قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [39] إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ [40] قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ [41] إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ [42] الحجر

فهل أنت من عباد الله المُخلَصين الذي استثناهم الشيطان بنفسه؟!

هل أقمت الدليل على أنك من عباد الله المخلصين؟!

إنه أول الطريق الذي جاء جميع الرسل لهداية الناس إليه، طريق العلم، وإقامة البرهان المثبت أنهم ليسوا من حزب الشيطان.

لقد كان الدور الرئيس الذي قام به الشيطان مع بني آدم، لصدهم عن صراط ربهم المستقيم، هو حجبهم عن فطرة التوحيد، ليسهل عليه بعد ذلك صدهم عن اتباع أحكام الشريعة الإلهية.

ولقد كانت خطته لتحقيق ذلك أن يجعلهم يتخذون آلهة يعبدونها من دون الله، لتكون لهم حاجزاً عن فطرة التوحيد، التي فطر الله الناس عليها، بدءا بأمة نوح عليه السلام باعتباره أول رسول يرسله الله إلى الناس، وحتى أمة خاتم النبيين محمد، عليهم جميعا أفضل السلام.

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً [163] النساء

وسأبدأ ببيان الدور الذي قام به الشيطان لصد الناس عن ملة التوحيد، وتزيين الشرك في قلوبهم، متخذا عاطفة الأبناء، وتقديسهم لتراث آبائهم..، قاعدة ينطلق منها.

ثم نتبع ذلك ببيان الدور الذي قام به الشيطان في صد الناس عن شريعة ربهم، بعد أن صدهم عن ملة التوحيد، يساعده في ذلك فتنة الأبناء بفقه آبائهم السلفي، وتعطيلهم لآليات عمل قلوبهم..، فعاشوا حاضرهم وتحدياته، بفكر وتحديات عصور مضت!!

الآبائية والصد عن ملة التوحيد

إن من أعظم الفتن الشيطانية أن يضل الناس طريق ربهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. لقد زيّن الشيطان للناس الكفر والشرك والباطل والظلم..، ليفعلوه باسم الحق والعدل، وباسم سنن الأنبياء، وذلك في إطار منظومة "التزيين الشيطانية".

لقد عبد قوم نوح أشياء هي في الأصل من متطلبات حياتهم اليومية، وذلك بفضل التزيين الشيطاني، ليظل الشرك دوما في قلوبهم ومع حركة حياتهم، ساعة بساعة.

وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً [23] وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً [24] نوح

فتعالوا نتعرف على هذه الألهة التي تُعبد من دون الله، بفضل الدور الذي قام به الشيطان في تغييب آليات عمل القلب:

وَد: صنم يرمز لكل المشاعر القلبية الحميمة الودودة التي تُوجه لخدمة المخطط الشيطاني.

سُواع: صنم يرمز لكل العلاقات الجنسية الشاذة والمحرمة، سواء كانت خارج العلاقة الزوجية أو داخلها.

يَغوث: صنم يرمز لكل مشاعر الاستغاثة التي توجه لغير الله طلبا للعون أو لمنفعة أو لكشف ضر أو دفع سوء.

يَعوق: صنم يرمز لكل ما يُنفق، أو يُتقرب به لغير الله، وللصد عن سبيله.

نَسر: صنم يرمز لكل شعار يرفع، أو مصدر تشريعي يُتّبع، دون إذن من الله.

وهناك إله آخر كان يعبد من دون الله في عصر إلياس، عليه السلام، وهو "بعل":

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ [123] إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ [124] أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ [125] اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمْ الأَوَّلِينَ [126] الصافات

والبَعل: صنم يرمز لكل من اعتقد أن بيده الأسباب والمسببات.

فإذا ذهبنا إلى عصر الرسالة الخاتمة، وجدنا أن الشيطان قد أضاف إلى هذه الآلهة ثلاثة آلهة أخرى:

أَفَرَأَيْتُمْ اللاَّتَ وَالْعُزَّى [19] وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى [20] أَلَكُمْ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى [21] تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى [22] إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى [23] النجم

اللات: صنم يرمز لكل قوة تعبد من دون الله تعالى.

العُزى: صنم يرمز لكل حاشية تُعضد وتُساند وتُزكي اللات.

مناة: صنم يرمز لكل من أوهم الناس أن بيده أقدارهم وموتهم وحياتهم وأرزاقهم.

فانظر إلى هذه الآلهة، التي كانت تُصْنع لها رموز من حجر أو خشب..، وكانت من مقدسات منظومة [الآبائية]، يَعكُف على عبادتها الأبناء، اتباعا للآباء، دون وعي أو علم أو برهان من الله تعالى.

إن الله تعالى وحده خالق كل شيء، وبيده مقاليد السماوات والأرض..، فتأمل كيف استطاع الشيطان أن يحقق أهدافه بنجاح، وأن يجعل الأبناء يتمسكون بملة الشرك التي كان عليها الآباء!! وفي هذا السياق، تدبر قول الله تعالى:

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ [106] يوسف

ولقد ضرب الله المثل بملكة سبأ، التي كانت غارقة وقومها في الشرك، وكانت من الأعضاء المؤسسين لحزب الشيطان، وقد كشف "هدهد" سليمان عن ذلك بقوله:

وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ [24] النمل

لقد نشأت ملكة سبأ في بيئة كافرة، وتمسكت بعضويتها في حزب الشيطان، فكان ذلك سببا في صدها عن سبيل الله:

وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ [43] النمل

ولكنها عندما رفعت الغشاوة عن بصيرتها، وقامت بتفعيل آليات عمل قلبها عرفت الحق، فاستغفرت ربها وأسلمت لله تعالى.

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [44] النمل

إن الحرية لا تتحقق إلا بإرادة الإنسان وبمجهوده الشخصي. لقد حصلت ملكة سبأ على حريتها يوم أن انتزعت نفسها من أسر [الآبائية]، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

ومعظم الناس اليوم أسرى هذه [الآبائية]، لا يريدون انتزاع أنفسهم منها وهي التي كانت سببا فيما أصابهم من تخلف وتخاصم وانحراف عن صراط ربهم المستقيم. لقد ألِفوا سلطان وسكرة [الآبائية] وهم يظنون أنهم على الهدى، لذلك لا يقبلون الخروج من سكرتهم.

لقد نجح الشيطان في مهمته، وحقق أهدافه، وأفقد أعضاء منظومة [الآبائية] فاعلية آليات عمل قلوبهم، فجاء تدينهم الوراثي اتباعا أعمى، حسب ما أَلْفَوْا عليه آباءهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ [170] البقرة

نعم، إنهم لا يستطيعون إقامة الحجة والبرهان الإلهي على أن تدينهم الوراثي حق لذلك قالوا: "بَلْ نَتَّبِعُ" أي أنهم منقادون لا يعلمون إلى أين هم ذاهبون، لأنهم "لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ"، وهذا ما بينه الله تعالى بعده بقوله:

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ [171] البقرة

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ [104] المائدة

نعم.. هذه هي فتنة [الآبائية]: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ..، فهم لا يَعْقِلُونَ..، لا يَعْلَمُونَ..، وَلا يَهْتَدُونَ!!

إن المتدبر لهذه الآيات، يعلم علم اليقين، أن الدور الرئيس الذي يقوم به الشيطان في فتنة [الآبائية] هو تغييب وتعطيل آليات عمل القلب، ليقلد الأبناء آباءهم تقليدا أعمى!! إنهم يفعلون كما فعل الآباء، وليسوا على استعداد أن يغيروا ما بأنفسهم، فما هم عليه يكفيهم، لذلك قالوا: "حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا".

لقد أخذ الشيطان العهد على نفسه أن يغوي الناس أجمعين، إلا عباد الله الصالحين وتركه الله يقوم بهذه المهمة، وحذر الناس منه.

يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ [27] الأعراف

ولم يكتف الشيطان بإفساد ملة التوحيد في قلوب أتباعه، بالشرك بالله تعالى، وإنما أفسد عليهم أيضا شريعتهم، فجعلهم يفعلون الفواحش باسم "الشريعة الإلهية"، وباسم سنن الأنبياء!!

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [28] الأعراف

تدبر: "قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا"، لتعلم أن الأبناء يصعب عليهم اتهام الآباء بالضلال، مهما كانت طبيعة ما ورثوه عنهم، وتوجهوا بعبادتهم إليه.

ولقد وصل الإغواء الشيطاني إلى درجة افتراء الكذب على الله تعالى، وتوريث الأبناء ما حمله الآباء من باطل، على أنه الدين الإلهي واجب الاتباع، فأوقعهم في معصيتين:

الأولى: اتباعهم المعارف والتصرفات الباطلة، فيما يتعلق بالشريعة: "وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا".

الثانية: تتعلق بملة التوحيد، فجعلهم الشيطان ينسبون إلى الله تعالى تشريعات ما أنزل بها من سلطان: "وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا".

إذن فكيف يعرف الأبناء أن الله تعالى "لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ"، وأن ميراث الآباء قائم على هوى، وعلى افتراء الكذب على الله تعالى: "أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ"؟!

يستحيل أن يقف الأبناء على ذلك إلا إذا قاموا بتفعيل آليات عمل قلوبهم، فتعقلوا وتفكروا ونظروا في هذا الميراث نظرة دراسة وتحليل، مقارنة برسالة الله، وما أمرهم به من دين إلهي.

إن افتراء الكذب على الله تعالى من أخطر الفتن الشيطانية، التي لم يسلم من الوقوع في شراكها كثير من أتباع الرسل!! لذلك لم يهتم القرآن بالرد على الشق الأول من الآية وهو: "وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا"، واهتم بالشق الثاني الأخطر، وهو قولهم: "وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا"!!

ولا شك أن قولهم: "وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا" لم يكن قائما على حجة ولا على برهان من الله تعالى، فهو كذب ومحض افتراء، فمعظم أعضاء منظومة [الآبائية] بمختلف توجهاتهم المذهبية يقولون مثل قولهم وينسبون إلى الله مصادر تشريعية ما أنزل بها من سلطان!!

لذلك جاء الرد الإلهي الحاسم: "قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ"، لبيان أن الله تعالى لا يقبل الإيمان الوراثي إلا إذا قام على دليل قطعي الثبوت عن الله عز وجل، وإلا كان صاحبه من الذين توعدهم الله تعالى بقوله: "أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ".

فهل يعقل أن هذا الإله المتصف بصفات الكمال المطلق، والذي له وحده الأسماء الحسنى، يأمر بالفحشاء، أو بالخرافات والمتناقضات، أو بالظلم، أو بقتل نفس بغير حق، أو يفوض رسوله في التشريع ثم لا يحفظ موضوع هذا التفويض، حتى لا يختلف الناس..، ويتقاتلون حول ما صح منه وما لم يصح؟!

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ [29] فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمْ الضَّلالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ [30] الأعراف

تدبر قول الله تعالى مبينا ثمرة اتباع الآباء بغير علم:

"إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ"

تدبر مرة ثانية قوله تعالى: "وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ"، والذي يبينه قوله تعالى:

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً [103] الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً [104] أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً [105] ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً [106] الكهف

تدبر قوله تعالى: "وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً".

هكذا يواجه أهل الباطل أهل الحق، يثيرون حولهم الشبهات، مستغلين مشاعر الناس وعواطفهم الدينية تجاه تراثهم، وتجاه آبائهم، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا!! ومن ذلك قولهم:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ [21] لقمان

وقولهم:

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ [78] يونس

تدبر قولهم: "وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ"، بعد قولهم: "أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا"، ولاحظ قولهم "وَجَدْنَا عَلَيْهِ".

إن حرف "على" يبين مدى تمكن هذا الدين من قلوبهم، وملازمتهم له. وإن التعبير بفعل "وَجَدْنَا" يبين مدى تشرب قلوب الأبناء دين الآباء، كما قال تعالى:

قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ [53] الأنبياء

إن مكانة [الآباء] في قلوب [الأبناء] تمنعهم من الشك في صحة اتباعهم، وتجعلهم يفعلون الفواحش بدعوى أن الله تعالى أمر بها، فهل بعد ذلك من دليل على نجاح الشيطان في تنفيذ خطته، ورواج سلعته وتزيينه لها بين الناس؟!

لقد قبلوا أن يكون الوحي الشيطاني مصدرا تشريعيا، يسوّغ لهم شركهم وإفسادهم في الأرض وارتكابهم الفواحش، ويُزيّن لهم ذلك في قلوبهم: "وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ".

لقد أحل الشيطان لهم الحرام، وحرم عليهم الحلال، ثم جعلهم يفعلون كل ما هو مستفحش ومستقبح باسم الشريعة الإلهية!!

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ [168] إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [169] البقرة

لقد جعل الشيطان وحيه ندا لله تعالى، لصرف الناس عن التوحيد الخالص وحرمانهم من نعمة الهداية، بعد أن نجح في تغييب آليات عمل قلوبهم، ليسهل عليه قيادتهم وفتنتهم وإغوائهم، ساعده على ذلك أئمة الضلال الذين استطاع الشيطان أن يوظفهم لحسابه، ليحرّموا على أتباعهم تفعيل آليات عمل قلوبهم، ويسلموها لهم ليقوموا هم بإدارتها نيابة عنهم!!

إن الذين ينسبون إلى الله مصادر تشريعية دون إذن من الله تعالى [وليس فقط رسوله] هؤلاء هم أنصار حزب الشيطان، الذين إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا حسبنا ما أحله وحرمه آباؤنا، فهم سلفنا الذين لا يمكن أن يجمعوا على ضلالة!!

لذلك قال تعالى بعدها:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ [170] البقرة

تدبر هذه الآيات، وحاول أن تقف على العلاقة بينها:

بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا: "أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ"

حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا: "أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ"

بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا: "أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ"

إن اتباع الآباء بغير هدى من الله تعالى، ثمرة من ثمرات اتباع الإغواء الشيطاني القائم على تغييب آليات التفكر والتعقل والنظر..، والهادي إلى عذاب السعير!!

إن من سمات حزب الإغواء الشيطاني أن أعضاءه: لا يعقلون، ولا يهتدون، ولا يعلمون!! إنهم لا يقبلون الحوار العلمي القائم على الحجة والبرهان. لقد غُيّبت آليات عمل قلوبهم، فعلى أي أساس سيقبلون الحجة والبرهان؟!

وإن الذي يدفعهم إلى ذلك هو الشيطان، ليضعهم في دائرة التخاصم والعنف والتهديد والوعيد وهذا ما فعلوه مع الأنبياء والرسل:

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ [68] قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ [69] وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمْ الأَخْسَرِينَ [70] الأنبياء

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ [18] يس

إننا أمام قضية في منتهى الخطورة على ملة التوحيد، قضية يلعب فيه الشيطان دوراً خطيرا في مسألة الاتباع. فالناس ينقسمون إلى تابع، وهم الأبناء المقلدون ومتبوع، وهم أئمتهم..، ومهمة الشيطان أن يجعل التابع أسير المتبوع في كل شيء فيأتمر بأمره، ويقتدي بسيرته، وبأقواله وأفعاله، دون علم ولا هدى من الله تعالى!!

لذلك كان فرض عين على كل إنسان أن يتحقق بنفسه من أن اتباعه لأئمته ولتراثهم الديني هو عين الاتباع الذي أمر الله به، وأقامه رسوله في حياته..، ذلك أن حساب الآخرة لا يعرف للإيمان الوراثي وزنا، إلا إذا كان في إطار الاتباع الحق.

فتدبر هذه الآيات لتقف على هذا الدور الخطير الذي يقوم به الشيطان الرجيم في مسألة الاتباع:

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ الأَسْبَابُ [166] وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمْ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ [167] البقرة

إن "الَّذِينَ اتُّبِعُوا": هم الذين ضللوا الناس ليعبدوهم من دون الله، ثم يوم القيامة يتبرءون منهم. أما "الَّذِينَ اتَّبَعُوا": فهم الذين ستصيبهم يوم القيامة الحسرة والخزي ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا ليعلنوا براءتهم من هذه المنظومة [الآبائية]!!

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ [66]

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ [67] رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنْ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً [68] الأحزاب

لقد علم الشيطان الرجيم أن التابعين [الأبناء] والمتبوعين [الآباء] مصيرهم واحد في الآخرة، فإن كانوا مؤمنين دخلوا الجنة، وإن كانوا كافرين دخلوا جهنم، فوضع خطته على أساس صد التابع والمتبوع عن الحق، ليكون مصيرهم جميعا النار.

ولقد كان فرعون في مقدمة أولياء الشيطان الذين ضربوا الرقم القياسي في صد الناس عن اتباع الحق:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ [96] إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ [97] يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمْ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ [98] وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ [99] هود

وكثير هم الأئمة، أعضاء الحزب الشيطاني، الذين يدعون إلى النار، على مرّ العصور.

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ [41] وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنْ الْمَقْبُوحِينَ [42] القصص

تدبر قوله تعالى: "وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً"، لتقف على خطورة الدور الذي يقوم به الشيطان في هذه المنظومة [الآبائية]، وأنه يرتبط ارتباطاً وثيقا بصد الناس عن دينهم الحق: "وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا"!!

فهل نفع الفرعون إيمانه التقليدي وهو يُودّع هذه الدنيا؟!

تدبر قوله تعالى في سورة يونس:

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ [90]

لقد قهرت سكرات الموت فرعون، وتبين أن الغلبة كانت للحق الذي كان عليه موسى، عليه السلام، فقرر أن يدخل في الإسلام مسرعا، ولكن من باب غير شرعي.

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ [99] لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [100] المؤمنون

إنها المصيبة الكبرى، ألا يرى الإنسان الحق، إلا عند سكرة الموت، فيريد أن يؤمن ويستغفر ربه، وقد كان معرضا عنه فترة حياته..، ولكن هيهات!!

آلآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ [91] فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ [92] يونس

إن الإيمان، والتوبة من المعاصي..، لا ينفع المرء وقت حصول الموت، فهل يعقل أن يقبل الله عذرا، والنفس تفارق الجسد، بعد أن طويت الصحف، وأغلق باب العمل؟!

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً [17]

إن الذين ضلوا صراط ربهم المستقيم، وهم يعملون السوء..، ثم يندمون، ويتوبون ويقلعون عن ذنوبهم، قبل أن يتبين لهم الموت، فهؤلاء يتوب الله عليهم.

إن التوبة عودة إلى الحياة الطاهرة المستقيمة، وإلى عمل الصالحات، وتغيير ما بالنفس إلى الأحسن..، أما الذين يتوبون، بعد أن جاءهم الموت، وأُغلق باب التوبة فهؤلاء لا توبة لهم.

وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً [18] النساء

الآبائية والصد عن الشريعة الإلهية

إن من أخطر فتن [الآبائية] أن يصل الشيطان بهوى الإنسان، بعد أن صده عن ملة التوحيد، وتغييب آليات عمل قلبه..، أن يصل به إلى أن يحل ويحرم، ويرتكب الفواحش ويأتيها جهارا دون حياء أو خشية من الله تعالى، فعندما يفسد القلب تفسد معه آليات عمله. وسنضرب بعض الأمثلة على ذلك:

1. فتنة قوم لوط

لقد استطاع هذا الشيطان الرجيم أن يجعل أمة بأكملها تفعل فاحشة لم يسبقها فيها أحد من العالمين وهي فاحشة إتيان الرجال شهوة من دون النساء!!

لذلك كان من الضروري أن يرسل الله تعالى إلى هذه الأمة رسولا، يأمرهم بتقوى الله والانتهاء عن فعل هذه الفاحشة.

إنه رسول الله لوط، عليه السلام.

لقد أقام الله تعالى هذا الوجود البشري على نظام الزوجية، ولولا التقاء ماء الرجل بماء المرأة ما قام لهذا الوجود البشري قائمة، فسنة التزاوج والتناسل بين البشر هي التي حافظت على بقاء النوع البشري.

فلنفترض أنه في عصر ما من العصور، امتنع الناس عن النكاح، ورغبوا عن النساء وكان المجال لتفريغ شهواتهم هو إتيان الرجال، فكيف سيكون حال المجتمعات بعد ربع قرن مثلا؟!

لاشك أن البشر سيتناقصون حتى ينقرض النوع البشري تماما!!

وهذا ما أراده الشيطان، وخطط له، منذ أن طُرد من الجنة، فمن يومها وهو يريد أن ينسف هذا الوجود البشري من قواعده نسفا.

إن هذا الذي فعله قوم لوط، واستوجب أن يرسل الله لهم رسولا خاصا، أمر مخالف للسنن الكونية، وللفطرة السليمة، وهذا يعني أن الشيطان قد نجح في غرس بذرة الشذوذ والاستمتاع بالشهوات المحرمة، وتفعيلها بما يخالف الطبيعة البشرية، بل والحيوانية، فلم يعهد عالم الحيوان مثل هذا العمل الخبيث.

أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنْ الْعَالَمِينَ [165] وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ [166] الشعراء

تدبر هذا الاستفهام التوبيخي الاستنكاري: "أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنْ الْعَالَمِينَ".

لقد تركوا ما أحل الله لهم من الطيبات: "وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ".

ولقد كانت فتنة الهوى والشهوات المحرمة هي الحاكمة على تصرفات قوم لوط: "بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ".

لقد استطاع الشيطان بتزيين هذه الشهوة الخبيثة في قلوب أهل الهوى، أن يفتن قوما عن آخرهم.

وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ [74] وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ [75] الأنبياء

إن الشهوات المحرمة شذوذ عن الفطرة السليمة، وتغييب لآليات عمل القلب، فلا يرى فاعلها في هذه الدنيا إلا المتعة المحرمة.

لذلك لا يقبل أصحاب هذه المتع المحرمة النصيحة، بل يهددون ويتوعدون من ينصحهم بالإيذاء!!

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنْ الْمُخْرَجِينَ [167] قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنْ الْقَالِينَ [168] الشعراء

لقد كان من الضروري استبعاد أو نفي لوط من هذه القرية لأن النور الذي جاء به يزعج أهلها، والطهارة التي أمرهم بها تؤذي مشاعرهم الملوثة بالخبائث!!

هكذا صور لنا القرآن الحوار بين لوط وقومه.

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ [54] أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ [55] فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ [56] النمل

إنهم يبصرون مواقعة الفاحشة: "وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ"، ويعلمون طبيعتها الخبيثة: "لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ"، ولكن هواهم، وتزيين الشيطان لهم الخبائث جعلهم يرونها أمرا محمودا، ويرون الطهارة أمرا مذموما:

"أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ"!!

وكما وصف الله تعالى قوم لوط بالجهل، وصفهم أيضا بالإسراف، ولا يجتمع الجهل مع الإسراف إلا إذا كان الهوى قد تحول إلى سرطان قد أمسك بالنفس كلها!!

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ [80] إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ [81] وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ [82] الأعراف

تدبر قول لوط، عليه السلام، مبينا أصل هذا الداء، وأنه بدأ بترك الإنسان نفسه لهواها وشهواتها: "إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ".

إنه عندما تتحكم الشهوة في الإنسان، يصبح عبدا لها: "بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ"، فلا يعوقه عن فعلها عائق، في أي مكان، وفي أي زمان، حتى أصبح قوم لوط يرتكبونها علنا جهارا في النوادي.

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ [28] أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ [29] العنكبوت

لذلك لم يكن غريبا أن يهجر قوم لوط النكاح، ويقطعوا السبيل أمام بقاء النوع البشري، واستمرار الذرية. لقد حضر الضيوف [رسل الله] لزيارة لوط، عليه السلام وعلم قومه خبر وصولهم، فهرعوا إلى بيته.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ [77] وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ [78] هود

تدبر قول لوط: "أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ"، لتعلم أن هوى النفس يفسد آليات عمل القلب، ويصد عن صراط الله المستقيم، ما يؤدي إلى التمرد على الطبيعة البشرية ويكشف عن شخصيتها الشيطانية، التي حلت محل الشخصية الإنسانية.

قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ [79] هود

لقد أفسدت الشهوات الخبيثة فطرة الإنسان، فلم تعد النفس تشتهي النكاح الذي شرعه الله: "مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ"، وإنما تشتهي الرجال: "وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ".

لقد نجح الشيطان في تغيير موازين النخوة والشهامة، بل لقد ضيعها أصلا.

لقد أرسل الله لوطا إلى قوم كانت حياتهم كلها خبائث في خبائث، وسوء في سوء وفسقا في فسق، فكانت مهمته شاقة وسط هذه القلوب المنحرفة عن صراط ربها المستقيم.

لقد تمكن الهوى، وتمكنت الشهوات المحرمة الشاذة من القلب إلى درجة أنه لم يعد قادرا على استقبال هداية الرسل. وكيف لا وقد وصفهم الله تعالى في كتابه الحكيم بكل الصفات المذمومة:

فقد وصفهم الله تعالى بالإسراف: "بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ". [الأعراف]

وبالفسق: "إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ". [الأنبياء]

وبالجهل: "بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ". [النمل]

وبالفساد: "قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ". [العنكبوت]

وبالظلم: "إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ". [العنكبوت]

وإن قرية قد تحكم فيها الهوى، والشهوات الخبيثة، إلى هذا الحد، ما كان لها أن تبقى على ظهر الأرض بعد إذ أُنذرت.

فما هو نوع العذاب الذي حاق بقوم لوط؟ وكيف ساء صباح المنذرين؟ وما علاقة هذا العذاب بطبيعة الفاحشة التي كانت مكونا رئيسا من مكونات منظومة [الآبائية]؟! فبعد أن نجح الشيطان في صد الأبناء عن ملة التوحيد، نجح أيضا في صدهم عن شريعة ربهم، فورث الأبناء الفاحشة عن الآباء، فاستحقوا جميعا العذاب الأليم.

لقد أرسل الله تعالى الملائكة لإيقاع العذاب بقوم لوط، وجاء اليوم الفصل، يوم تخليص البشرية من هذه الآفة السرطانية. ولقد علم لوط، عليه السلام، بخطة خروجه ونجاته هو ومن معه من هذه القرية.

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ [81] هود

لقد كانت الخطة أن يخرجوا ليلا، وقبل طلوع الفجر [إِنَّ مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ] ويسيروا حسب أوامر الملائكة.

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ [65] الحجر

فلنا أن نتخيل هذا المشهد المهيب: قرية بأكملها، خالفت شريعة ربها، فكفرت بربها وأفسدت في الأرض، وبدا عليها شبح العذاب الأليم، فهي الآن تترقبه، ثم ينجي الله أهل البيت الوحيد في هذه القرية الذين تمسكوا بدين الله، واعتصموا بشريعته.

فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ [35] فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ [36] وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ [37] الذاريات

إنه انتصار للحق على الباطل، ولنور الفطرة على ظلام الهوى، ولطهارة النفس على دنسها وخبثها، وللشهوة الحلال على الشهوة المحرمة، ولنعمة الذرية على نقمة قطع السبيل إليها، ليعلم الناس جميعا كيف أن ملل الكفر، المتوارثة عن الآباء، يسهل عليها أن ترتكب من الفواحش ما لا يخطر على قلب بشر!!

وعند الشروق كانت الصيحة تدوي في هذه القرية التي كانت تعمل الخبائث.

فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ [73] فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ [74] الحجر

ألم يكن كافيا أن يجعل الله تعالى "عَالِيَهَا سَافِلَهَا"؟!

فلماذا هذا النوع من المطر الذي أعد الله تعالى له حجارته إعدادا خاصا؟!

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ [82] مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ [83] هود

الأحجار المسومة: التي لها سيما، وهي العلامة التي تُوضع وتُعد لأغراض خاصة. فهذه الأحجار مُعدة ومهيأة عند الله تعالى: "مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ" لأداء مهمة خاصة. وتسويمها عند الله أي تقديرها وإنزالها على هؤلاء الظالمين تحديدا.

ولم يرسل الله تعالى هذا النوع من العذاب لأمة من الأمم غير قوم لوط. لقد دمر الله تعالى القرية بمن فيها، وبطريقة تستأصل هذا السرطان من جذوره وتطهر الأرض من آثارهم الخبيثة.

وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ [66] الحجر

إنه بعد نجاة لوط، عليه السلام، ومن معه، لم يبق أثر لقوم لوط: "أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ". فهل انتهى عمل قوم لوط بقطع دابرهم؟! فكيف إذن انتشر هذا العمل الخبيث إلى يومنا هذا؟! إنه الإغواء الشيطاني!!

فلا شك أن تداول أخبار هذه القرية بين الناس، على مر العصور، كما تداولت الأجيال ثقافة الكفر والشرك بالله عبر منظومة [الآبائية]، لا شك أن ذلك جعل النفوس المريضة بيئة صالحة لإغواء الشيطان، وتعظيم الشهوات إلى حد أن تكون هي الحاكمة على النفس، فكان من السهل تصور كيفية ارتكاب هذه الفاحشة ونشرها بين الناس مرة أخرى، بعد أن دفنت في الجحيم الذي أصاب قوم لوط!!

فانظر كيف يتحول الانحراف عن أحكام الشريعة الإلهية، بفضل اتباع الشيطان وتغييب آليات عمل القلب، إلى انحراف عن ملة التوحيد، والعكس صحيح. فبعد أن كان لارتكاب الفاحشة عقوبته، وبها يظل المسلم مسلما، تحول إلى كفر بالله تعالى وخروج عن الملة. وبعد أن كان عذاب الاستئصال يأتي للأمم المنحرفة عن ملة التوحيد جاء أيضا لأمة انحرفت عن شريعة ربها.

إنه لا فرق في معصية الله، بين الانحراف عن [الملة]، والانحراف عن [الشريعة] ما دام الشيطان هو الحاكم في الحالين، فدين الله أصلا، ملة وشريعة، لا ينفصلان.

أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ [23] الجاثية

لقد جعل الله قصة لوط، عليه السلام، مع قومه آية قائمة بين الناس إلى يوم الدين:

وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ [37] الذاريات

ولكن: من هم الذين يعتبرون بهذه الآيات؟!

وَلَقَد تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [35] العنكبوت

ومع أن هذه الآية مبصرة، فإن الله تعالى يبيّن أنه لن يؤمن بها أكثر الناس، هؤلاء الذين غيّب الشيطان آليات عمل قلوبهم.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [174] الشعراء

لقد خلق الله تعالى الإنسان حرا، يختار ملته بإرادته، ولقد استغل الشيطان هذه الحرية، وتفاعلها مع هوى النفس، ليصد كثيرا من الناس عن ملة التوحيد، وعن شريعة ربهم، صراط ربهم المستقيم.

وبعد أن ضرب الله لنا المثل بقوم لوط، لبيان أن من أعظم الشهوات تدميرا للنفس بل وللملة والشريعة الإلهية، شهوة المتعة واللذة المحرمة، يضرب الله تعالى لنا مثلا آخر عن قرية نجح الشيطان أيضا في صدها عن ملة الوحيد، فتعاظمت فيها أكثر من شهوة من شهوات النفس.

إنها مدين، قوم شعيب، عليه السلام، حيث تحكم النظام الحاكم في أقوات الناس بأكل أموالهم بالباطل، وإنقاص المكيال والميزان، والصد عن سبيل الله.

2. فتنة قوم شعيب

ولقد اختلفت دعوة لوط عن دعوة شعيب، عليهما السلام، في أن معصية قوم لوط كانت: "إتيان الرجال شهوة من دون النساء"، فلعظمها وخطورتها على الوجود البشري جاء لوط يأمرهم بتقوى الله تعالى:

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ [160] إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ [161] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [162] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [163] الشعراء

أما قوم شعيب فقد كانت معصيتهم ظلمهم للناس واستعبادهم، وأكل أموالهم بالباطل كانوا يريدونها عوجا.

لذلك جاء يأمرهم بإخلاص العبودية لله، وبإقامة موازين الحق والعدل بين الناس فتدبر هذه المجموعة من الآيات:

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ [85] وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [86] الأعراف

وتدبر قول الله تعالى:

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ [84] وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ [85] هود

وقوله تعالى:

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ [36] العنكبوت

وكما هو واضح من سياق الآيات، فقد كان إفساد أهل مدين في الأرض يشمل أكثر مجالات الحياة. لقد قامت المعاملات المالية بين أهل مدين على أصول وقواعد فاسدة يحكمها الهوى والاحتكار والمكر والمصالح الشخصية، فضاعت حقوق الناس واختلت الموازين، وشاع الظلم والاستبداد، وكادت الحياة أن تتوقف.

لقد جاء النهي عن إنقاص المكيال والميزان مباشرة بعد الأمر بالتوحيد، وهذا يعني أن هذا الموضوع كان على رأس قائمة أعمالهم الفاسدة.

لقد جاء شعيب يدعو قومه إلى توحيد الله بكل مقتضياته، ومنها إقامة موازين الحق والعدل بين الناس، وتوجيههم نحو مستقبل أفضل، وذلك عن طريق:

ضمان حق كل ذي حق: "فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ".

تحديد أثمان الأشياء دون بخس لقيمتها الحقيقة: "وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ".

توجيههم نحو التنمية المستدامة: "وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا".

وكل ذلك في إطار من الرحمة والشفقة عليهم:

"وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ".

إن ترك المكيال والميزان لأهواء الناس، من شأنه أن يشيع الفوضى، وينشر الفساد في البلاد، ويحول الإنسان إلى سلعة، تباع وتشترى، ما يشكك الناس في وجود إله ينصر المظلوم، وينتقم من الظالم، فيكفروا بالله، أو يشركوا معه آلهة أخرى ظنا منهم أنها ستنصرهم من دون الله.

فإذا كان هذا النظام الحاكم والمتحكم في مقدرات الناس يعمل داخل منظومة [الآبائية] فيرثه الأبناء عن الآباء، كانت الفتنة أشد وأعظم.

لذلك جاء التحذير من أن يحكم هذا النظام الشعوب بعد الأمر بالتوحيد:

"يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ".

لقد قامت دعوة شعيب على إصلاح نظام إدارة المجتمع، هذا النظام القائم على الظلم وأكل أموال الناس بالباطل. لذلك كان على قوم شعيب أن يتقوا الله تعالى ويقيموا الصلاة على وجهها الصحيح، تلك الصلاة التي تضمن لهم حياة آمنة مستقرة بمعزل عن الفحشاء والمنكر.

والغريب أن إقامة شعيب لهذه الصلاة كانت محل استهزاء من قومه!!

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ [87] هود

ومن المعلوم بداهة أن الصلاة، كمجرد هيئة، هي في ذاتها لا تأمر، إذن فهم يقصدون الاستهزاء بدين شعيب، وصلته الإيمانية بربه، المتمثلة في إقام الصلاة.

إن هذا الاستهزاء من مقومات الشرك بالله تعالى، وعندما يجتمع الشرك، مع التلاعب بالنظام الاقتصادي للدولة، هنا يكون الطغيان قد وصل إلى منتهاه..، فقد فسدت الملة والشريعة معا!!

ولقد امتد فساد قوم شعيب، وتواصلت حلقاته، مع البلاد المجاورة. فها هم أصحاب الأيكة، وقد سكنوا الجنات المكتظة بالأشجار، وكانوا على مقربة من [مدين] وكانوا منعّمين مترفين، فانشغلوا بالنِعم عن المُنعم، وانتشر بينهم الفساد، فأرسل الله تعالى إليهم شعيبا، فكذبوه كما كذبه أصحاب مدين.

فتدبر ماذا كان موضوع دعوة شعيب، وماذا كان موقف أصحاب الأيكة، لتعلم حجم الإشكالية التي يسببها الإيمان الوراثي، واتباع الآباء بغير علم:

كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ [176] إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ [177] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [178] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [179] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ [180]

لقد دعا شعيب أصحاب الأيكة إلى تقوى الله، ونهاهم عن الشرك، كما بيّنت سورة هود. ومع شركهم كانوا يطففون المكيال والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم ويفسدون في الأرض..، فوضع شعيب قوانين المعاملة بينهم.

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُخْسِرِينَ [181] وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ [182] وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ [183] وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ [184] الشعراء

ثم دعاهم شعيب مرة أخرى إلى تقوى الله، ولكن بتذكيرهم بأن الذي خلقهم هو الذي خلق الأمم قبلهم. فماذا كان جواب قومه؟! تدبر قوله تعالى في سورة الشعراء:

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ الْمُسَحَّرِينَ [185] وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنْ الْكَاذِبِينَ [186] فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنْ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ [187]

لقد أنكروا أن شعيبا مرسل من الله تعالى، لبشريته، ولأنه بشر فهذا دليل على أن ما يصدر منه ليس وحياً من الله تعالى، لذلك تحدوه أن يأتيهم بعذاب الله!!

فكان جواب شعيب أن أسند العلم بهذا العذاب إلى الله تعالى، وقد جاءهم العذاب فعلا من جنس ما سألوه: شيء يسقط عليهم من السماء!!

قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ [188] فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [189] إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [190] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [191] الشعراء

لقد عذب الله تعالى المكذبين، على مرّ الرسالات، بسبب انحرافهم عن فطرة التوحيد وما ترتب على هذا الانحراف من إفساد في الأرض، وأكل أموال الناس بالباطل، ومن فتن الشهوات الجنسية المحرمة، وكلها من أعظم الفتن المدمرة للفرد والأسرة، ولأي مجتمع مهما بلغ من التقدم الحضاري، والمادي، والتكنولوجي.

لقد أرسل الله تعالى رسوله لوطا، عليه السلام، إلى قوم شاع وانتشر بينهم الشذوذ الجنسي، حتى أصبح المكون الرئيس لنظام حياتهم.

كما أرسل الله تعالى رسوله شعيبا، عليه السلام، إلى قوم شاع بينهم الفساد المالي والاقتصادي وأكل أموال الناس بالباطل، حتى أصبح الغش والتطفيف والاحتكار وبخس الناس أشياءهم مكونا رئيسا في حياتهم.

ثم تواصلت الرسالات، وجاءت الرسالة الخاتمة "آية قرآنية"، جمعت ما شاء الله أن يذكره من إشكالات واجهت دعوة الرسل السابقين، كما جاءت تحذر أتباع رسول الله محمد، عليه السلام، من الوقوع فيما وقع فيه السابقون، من فتنة تمسكهم بما وجدوا عليه آباءهم، بغير علم، ولا هدى من الله تعالى.

رسالة الله الخاتمة

إن تقليد الآباء بغير هدى وإذن من الله تعالى يُصادم منطق التطور الحضاري المشاهد على مر العصور، فحركة الفكر والعلم لا تنشط بتقليد السلف، وإنما بتجديد وإبداعات الخلف. وإذا كانت مشيئة الله تعالى قد اقتضت أن تكون الآية الدالة على صدق رسوله الخاتم محمد، عليه السلام، آية معرفية، تقوم على تفعيل آليات التدبر والتفكر والتعقل والنظر..، فإن البشرية لن تجني عطاء هذه الآية، المتجدد على مر العصور، والمسلمون مقلدون لسلفهم، عاجزون عن مواجهة تحدياتهم، بفكر وفاعلية "الآية القرآنية".

لقد أبصر رسول الله محمد، عليه السلام، الحق قبل بعثته، على أساس قناعته الذاتية، واتباع منهج الاستدلال العقلي، الذي أقام عليه أبو الأنبياء إبراهيم، عليه السلام إسلام وجهه لله تعالى، فهداه الله إلى صراطه المستقيم.

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ [161] قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [162] لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ [163] قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [164] الأنعام

فعندما بلغ إبراهيم، عليه السلام، رشده، وأدرك بآليات عمل قلبه، وتفاعلها مع فطرته الإيمانية، أن ما يعبده قومه من أصنام، أمر لا يقبله قلبه السليم..، قام وواجه أباه بحكمة:

إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً [42] يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً [43] يَا أَبَتِ لا تَعْبُدْ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً [44] يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنْ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً [45] مريم

تدبر قول إبراهيم، عليه السلام، لأبيه: "يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ".

لقد بيّن إبراهيم، عليه السلام، أن الاتباع الحق هو الاتباع القائم على العلم، الهادي إلى صراط الله المستقيم: "فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً".

إن اتباع الهدى، وإقامة الدليل والبرهان على حجية المصدر الذي يستقي منه المرء نصوص الشريعة الإلهية..، هو طوق النجاة، الذي يأخذ بأيدي الأبناء إلى صراط ربهم المستقيم.

إن الاتباع الحق لا يقوم مطلقا إلا على العلم، والدليل والحجة والبرهان، ولكن الأبناء، الذين حجب الإيمان الوراثي قلوبهم عن إبصار الحق، لا يروْن، ولا يعرفون غير ما وجدوا عليه آباءهم، يساندهم في ذلك الشيطان الرجيم، الذي يكره الحق ويحول بين الإنسان وكل الطرق الموصلة إليه!!

إن الشيطان إذا يئس من أن يُعبد هو من دون الله تعالى، فلن ييئس من أن يوقع الناس في الشرك بالله: "يَا أَبَتِ لا تَعْبُدْ الشَّيْطَانَ"!! لذلك واجه أهل الحق، على مر العصور، صنوف العذاب المختلفة، ثمرة تمسكهم بهذا الحق، ورفضهم اتباع الشيطان:

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً [46] مريم

ولقد واجه رسول الله محمد، عليه السلام، نفس الاتهامات، ونفس أساليب العداء المغرضة، التي واجهت جميع الرسل.

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ [43] سبأ

ففي الوقت الذي جاء رسول الله قومه بالآيات البيّنات، كان ردهم: "مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرًى" وقالوا: "إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ"!! وكان الدافع الأساس وراء كل هذه الاتهامات ووراء معارضتهم للحق، هو تمسكهم بعضويتهم في منظومة [الآبائية]!!

تدبر قولهم: "مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ"!!

إنها الأساليب الشيطانية، في صد الناس عن ملة التوحيد، على مر العصور.

فدائما ينشر "الآبائيون" الشائعات المضللة لتشويه صورة الرسل، استنادا إلى حب الأبناء لهم، وإلى إقناعهم بأن هؤلاء الرسل ما جاءوا إلا لهدم تراثهم الديني، الذي حارب الآباء من أجل الدفاع عنه وعدم المساس به!!

فانظر كيف استخدم المكذبون في تحريض الأبناء وإثارة عواطفهم..، كلمة "آبَاؤُكُمْ" وليس "آباؤنا"، لتصبح مسئولية الدفاع عن تراث الآباء فرض عين على كل فرد منهم وليس فرض كفاية، تقوم به جماعة منهم!! ثم تدبر ماذا قال الله ردا عليهم:

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ [44] سبأ

فلم يسبق أن أعطى الله تعالى المكذبين كتبا يدرسونها، ولم يرسل إليهم رسولا من قبل، ينذرهم ويبين لهم..، فكيف عرفوا أن تراث آبائهم هو الحق، الذي لا يجب التنازل عنه، وعلى أي أساس ميزوا بينه وبين الباطل، ليكون كلامهم قائما على دليل وبرهان علمي؟!

إن الميزان الذي يجب أن يرجع إليه الأبناء لمعرفة الحق، والتمييز بينه وبين الباطل هو كتاب الله تعالى، فلا مقدس واجب الاتباع إلا هو، فأين هو هذا الكتاب الذي يستندون إليه في ادعائهم هذا؟!

لذلك فإن أي إنسان ينسب إلى الله تعالى، أو إلى رسوله، كتابا أو نصا تشريعيا، لم يحمل في ذاته دليل حجيته، أو برهان صدق نسبته إلى الله تعالى..، يكون قد افترى الكذب على الله تعالى وعلى رسوله، فكتب الله تعالى التي أنزلها على رسله، وحي لا تثبت حجيته إلا بالبرهان قطعي الثبوت عن الله عز وجل، وليس عن الرسل، أو عن الرواة منسوبا إليهم!!

وإذا كانت فتنة [الآبائية] قد وقفت عقبة أمام دعوة جميع الرسل، فما الذي يمنعها أن تقف أيضا أمام دعوة رسول الله الخاتم محمد، عليه السلام، وتصرف أتباعه [بعد موته] عن صراط ربهم المستقيم؟!

فهل وعد الله تعالى بعصمة أتباع رسول من الرسل؟!

إن الله تعالى لم يَعِد بعصمة أتباع رسول من الرسل، وإنما وعد بتأييد ونصر عباده المخلصين، الذين تحملوا بإرادتهم وعلى مسئوليتهم، انتزاع أنفسهم من فتنة [الآبائية] وفتنة تزيين الشيطان لها:

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ [42] الحجر

وتمتد فتنة [الآبائية] لتشمل تقليد كل تابع لكل متبوع. فها هم الأتباع يعترفون، وهم يساقون إلى جهنم، بأنه لولا فتنة المتبوعين، وتزيين الشيطان لهم أعمالهم لآمنوا برسول الله محمد، عليه السلام.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ [31] سبأ

تدبر قول المستضعفين للمستكبرين: "لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ"!!

فمن هم هؤلاء الذين صدوهم عن الإيمان وعن صراط الله المستقيم؟!

إن المتهم الرئيس في هذه القضية، قضية اتباع الأبناء للآباء، واتباع المستضعفين للمستكبرين، واتباع المحكوم للحاكم..، هو "التقليد الأعمى"!!

لذلك يأتي المتبوعون يوم القيامة يدفعون عن أنفسهم هذا الاتهام، بدعوى أن الأبناء بطبيعتهم مجرمون، فهم الذين اختاروا الضلال بإرادتهم!!

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ [32] سبأ

تدبر قولهم: "أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ"، ثم قولهم بعدها: "بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ"!!

فماذا قال المستضعون للمستكبرين؟!

وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [33] سبأ

نعم.. "هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ".

لذلك كانت النار مصير التابع والمتبوع:

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنْ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ [38] وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ [39] الأعراف

تدبر قوله تعالى: "قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنْ النَّارِ"!!

ألا تستحق كل هذه الآيات أن يقف الإنسان مع نفسه وقفة، لعله يكون من هؤلاء الذين ضلوا [التابعين] أو أضلوا [المتبوعين] فيسارع بالتوبة، وإعادة نفسه إلى اتباع صراط ربه المستقيم؟!

إن الله تعالى سيحشر أعضاء منظومة [الآبائية]، والشياطين، وأتباعهم..، في جهنم جميعا، هؤلاء الذين اتخذوا مصادر تشريعية مفتراة على الله ورسله، جعلوها في منزلة الحق المنزل من عند الله تعالى، يستقون منها أحكام الحلال والحرام حسب أهوائهم!!

فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ [94] وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ [95] قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ [96] تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ [97] إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [98] وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ [99] الشعراء

إن دخول إبليس وجنوده وأتباعه جهنم لم يكن بسبب عبادة أصنام من خشب أو حجر...، فهذه مجرد رموز لأشخاص عاقلين، زين الشيطان تأليههم، فأصبحوا هم السلطة التي يسجد لها أعضاء منظومة [الآبائية] على مرّ العصور!!

فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ [66] ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ [67] ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ [68]

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ [69] فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ [70] وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ [71] الصافات

تدبر قوله تعالى: "فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ". وهذا ما فعله فرعون مع قومه:

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ [54] الزخرف

إن الدور الذي تقوم به فتنة [الآبائية] في إغواء الأبناء، دور عالمي، شاء الله تعالى أن يظل قائما بينهم، على مر العصور.

وأخطر ما في هذا الدور، هو تحريف الأبناء لرسالات الله، بعد وفاة الرسل وتحويلها إلى مرويات وتراث ديني، يتصارعون عليه بين مصحح ومضعف لنصوصه!!

ولقد بين الله تعالى لرسوله الخاتم، عليه السلام، طبيعة هذا الدور، وكيف أن الشيطان يحاول وجنوده، استغلال الأبناء لاختراق رسالات الله، ولولا أن الله تعالى تعهد بحفظ رسالته الخاتمة، لتحول كلام الله تعالى إلى مرويات بشرية، وتراث ديني تتصارع عليه مذاهبهم المختلفة!!

وفي إطار بيان سنة الله في الصراع القائم بين الحق والباطل، ودور الشيطان في هذا الصراع، يخبر الله تعالى رسوله محمدا، تثبيتا له وتطمينا، أن الشيطان يضع دائما العقبات التي تحول بين استجابة الأبناء لدعوة الرسل، وهدايتهم إلى صراط ربهم المستقيم.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [52] الحج

ومهما كان هذا الإلقاء، ومهما كانت الأسلحة الشيطانية المستخدمة، من شبهات وأساليب، وخطط، تقف جميعها عقبة أمام تحقيق أمنية رسول الله الخاتم محمد، عليه السلام، فإن الله تعالى غالب على أمره، ومحكم آياته، وحافظ رسالته الخاتمة، لتكون حجة على العالمين إلى يوم الدين، وجاعل ما يلقيه الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم.

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ [53] الحج

إن إسناد الإلقاء إلى الشيطان دليل على أنه إلقاء الضلال والفساد في طريق دعوة الرسل، بأن يأمر الناس بالتكذيب والعصيان، وإدخال في دين الله ما ليس منه، ويزين لهم الباطل ليروه حقا... إلى آخر الأساليب والأسلحة الشيطانية.

أما أصحاب القلوب المؤمنة، الذين أوتوا العلم، فلا يتأثرون بهذا كله، لأنهم أقاموا قناعتهم الإيمانية على منهج الاستدلال العلمي، على الدليل والحجة والبرهان، عن طريق تفعيل آليات عمل قلوبهم.

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [54] الحج

لقد شاء الله تعالى أن يترك مسألة تدين البشر لاختياراتهم، فالذين عرفوا أنه لا سبيل إلى دين الله غير سبيل واحد، سبيل العلم، والدليل، والحجة والبرهان..، فاتبعوه سيهديهم ربهم إلى صراطه المستقيم.

أما الذين يظنون أن ما هم عليه من تدين وراثي، وتقليد أعمى لآبائهم..، هو قدر قدره الله على الناس، وما عليهم إلا الاستسلام لمشيئة الله وإرادته..، فهؤلاء أقول لهم:

إن من أخطر فتن الشيطان الرجيم أن يصل بهوى الإنسان إلى أن ينسب إلى مشيئة الله عز وجل وقضائه، كل قبيح [يفعله الإنسان بإرادته] بدعوى أنها مشيئة الله المتصلة الحلقات بآبائهم الأولين، وبأئمة مذاهبهم المختلفة!!

ولبيان هذه المسألة علينا أن نتدبر بعض آيات الذكر الحكيم.

تبدأ القضية بأمر من الله لرسول محمد، عليه السلام، بالالتزام بالوحي الإلهي:

اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ [106] وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ [107] الأنعام

ويقولون: إذن فما دامت مشيئة الله هي الغالبة "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا"، فلماذا نرهق أنفسنا في إثبات حجية الدين الإلهي واجب الاتباع؟!

لقد ورثنا الشرك عن آبائنا، بإجماع أمتنا، وحسب مشيئة الله، فماذا نحن فاعلون أمام هذه المشيئة؟!

أقول: علينا أن نتدبر السياق القرآني، المتعلق بهذه المسألة، بتجرد، ودون فهم مذهبي سلفي لها.

إن قول الله تعالى: "اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ"، يقتضي أن على الإنسان أن يثبت أولا قطعية ثبوت هذا الوحي، عن الله تعالى، قبل اتباعه، فالله يقول: "اتبع"... "مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ"...، "مِنْ رَبِّكَ"...، فإذا أثبت ذلك، يكون قد أثبت في نفس الوقت صدق نبوة محمد ابن عبد الله، الذي جاء ينسب هذا الوحي إلى ربه.

إن على الإنسان، من لدن آدم عليه السلام، وبصرف النظر عن كثرة أتباع المذهب الديني الذي ورثه يوم ولد..، عليه أن يثبت أن ما هو عليه من تدين وراثي قائم على الاتباع العلمي الحق، وإلا فقد يسير في طريق الشرك وهو يعتقد أنه من وحي الله حسب ما أقنعه به آباؤه، ثم يأتي يوم القيامة ويقول: لقد كانت إرادة الله، ولو شاء الله ما أشركت!!

لقد أقام الله تعالى حجته على الناس مرتين:

الأولى: في عالم الغيب، حيث شهد بنو آدم جميعا بعبوديتهم لله تعالى وحده لا شريك له، وهي ميثاق الفطرة الإيمانية التي تعين الإنسان، في أية مرحلة من عمره على الوقوف على الدين الإلهي الحق.

والثانية: في عالم الشهادة، وذلك على لسان جميع الرسل.

فتدبر ماذا قال الله تعالى في هذه المسألة:

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ [172] أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ [173] وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [174] الأعراف

لقد جاء القرآن الحكيم يحذر الأبناء المسلمين، أتباع رسالة الله الخاتمة، من الوقوع في أسر هذه [الآبائية] الضالة الذي وقع فيه أتباع الكتب السابقة.

وقد ضرب الله لهم مثلا بموقف أتباع عيسى، عليه السلام، من رسالته بعد وفاته:

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ [116]

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [117] المائدة

تدبر قول عيسى عليه السلام: "وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ"، ثم قوله بعدها: "فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ".

لقد حرف الأبناء كتاب ربهم، وأدخلوا فيه مرويات مزيفة، وأساطير وخرافات عن أنبيائهم وملوكهم، رواها الرواة بعد عشرات السنين من وفاة المسيح عليه السلام!!

ولكن اللافت للنظر، اعتقاد الأبناء أن إيمانهم الوراثي قدر مقدر من الله تعالى ويظنون أنهم بذلك قد أصبحوا غير مسئولين عن هذا التدين، فلقد ورثوا عن آبائهم مسائل وشبهات في القضاء والقدر، وهل الإنسان مسير أم مخير، ومسائل تتعلق بالأسماء والصفات الإلهية، وعن الغيب الذي لا يظهره الله تعالى لأحد..، فماذا هم فاعلون أمام كل هذه المسائل العلمية التي لا طاقة لهم بها؟!

فمثلا، لقد كان المشركون يفترون أحكام الحلال والحرام، ثم يبررون اتباع الناس لها بأنها مشيئة الله:

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [136]

وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ [137] الأنعام

فتدبر قول الله تعالى: "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ".

إن الضمير يعود إلى ما سبق بيانه في الآية، من المحرمات، والذي يفهم منه أنه لولا أن الله شاء أن يفعلوا هذه المحرمات ما فعلوها.

وكانوا يبررون عبادتهم للملائكة بقولهم:

وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ [19]

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ [20] أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ [21]

بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ [22] الزخرف

انظر كيف يُعَلّم الله تعالى الناس منطق الحوار، وإقامة الحجة على العلم والبرهان الإلهي، لا على الهوى والظن، فتدبر: "أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ"؟!

ثم تدبر رد "الآبائيين" على هذا السؤال المنطقي بقولهم: "إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ"!! ثم تدبر ماذا قال الله تعالى بعدها ردا عليهم:

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ [23] قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [24] فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [25] الزخرف

إن [الآبائية] الضالة، المضلة، أزمة عالمية، لم يستثن الله تعالى منها أتباع أمة من الأمم، فمعظم أتباع الرسل انحرفوا بعد وفاة رسلهم، وعلى أساس هذا الانحراف قامت فاعلية [الآبائية]، حيث يرث الأبناء هذا الانحراف عن الآباء جيلا بعد جيل.

إن المتدبر للآيات السابقة، يستطيع أن يعلم كيف استطاع الشيطان أن يوظف منظومة [الآبائية] في إيقاع الناس في الشرك، وافتراء الكذب على الله تعالى، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

إذن نحن أمام هذه الآيات، السابق ذكرها:

"وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا..." [107] الأنعام

"... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ [137] الأنعام

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ..." [20] الزخرف

فكيف عالج القرآن هذه القضية، التي دوّن فيها علماء السلف والخلف، آلاف الكتب تبحث كيف يقيم الإنسان عقيدته على التوحيد الخالص، فإذا بهم يتخاصمون ويكفر بعضهم بعضا..، بسبب اختلافهم حول هذه المسألة؟!!

والحقيقة أن المتدبر لما حملته هذه الكتب من مسائل خلافية، يحمد الله أن جعل الهداية إلى توحيده، والرد على شبهات وافتراءات المكذبين..، ماثلة في كتابه الحكيم.

يقول الله في نفس سورة الأنعام، التي ورد فيها ادعاء المشركين أن شركهم جاء وفق مشيئة الله تعالى:

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ [148]

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ [149] الأنعام

إنهم يريدون أن يقولوا: لو شاء الله ألا نشرك ما أشركنا، وما أشرك آباؤنا، ولا حرمنا ما أحل الله، إذن فهي مشيئة الله أولا وأخيرا..، فما الخطأ في ذلك؟!

وهكذا يفعل معظم أعضاء منظومة [الآبائية] السلفية، رافعين راية أن الله تعالى "لا يُسأل عما يفعل"!! أي أنهم ينسبون إلى الله تعالى أولا الفعل، الذي يريده هواهم افتراءً وكذبا..، فإذا سألهم أحد: هل يصح أن تقولوا على الله كذا وكذا..؟! قالوا: "إن الله لا يُسأل عما يفعل"!!

والسؤال المنطقي: إذا كان الله تعالى هو الذي شاء لهم فعل هذه المحرمات، فكيف يأتي بعد ذلك ويقول لهم: "هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا"؟!

ثم كيف يأتي بعدها ببيان السبب الذي دفعهم إلى هذا الاعتقاد الباطل بقوله:

"إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ"؟!

ثم يأتي بالرد الحاسم بعدها ويقول:

"قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ"؟!

فـ "الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ" ليست مرويات ينسبها الرواة إلى الرسل، ويقيمون عليها مصادر تشريعية ما أنزل الله بها من سلطان.

إن "الْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ" هي قانون المشيئة الإلهية، الذي أسند الله تعالى آليات عمله إلى إرادة الإنسان واختياره، فتدبر ماذا قال الله بعدها:

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ [150] الأنعام

فهل يحل لمسلم، يشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله..، أن ينسب إلى الله تعالى، أو إلى رسوله، تشريعات ما أنزل الله بها من سلطان، بدعوى أن علماء وأئمة مذهبه قد أجمعوا عليها؟!

ألم يتدبر هؤلاء قول الله لرسوله: "فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ"، ثم قوله بعدها: "وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا..."؟!

ثم هل يعقل أن يكتب الله تعالى على الناس الشرك، ثم يأتي فيحرمه عليهم، ويدخل من أشركوا نار جهنم خالدين فيها؟! فتدبر ماذا قال الله تعالى بعدها:

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [151] الأنعام

إذن فكيف نفهم العلاقة بين سياق الآيات التي تحدثت عن أن الشرك كان وفق مشيئة الله تعالى:

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ [107] الأنعام

وبين تلك التي جاءت تنفي ذلك تماما عن الله تعالى، وتتهم قائله بافتراء الكذب:

"... قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ [148] الأنعام

ثم علاقة ذلك بقوله تعالى بعدها:

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ [149] الأنعام

أقول: لقد خلق الله تعالى النفس الإنسانية بآليات تعينها على اختيار الكفر أو الإسلام، الحق أو الباطل، الهداية أو الضلال..، وذلك كله بكامل إرادتها:

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا [7] فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا [8] قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [9] وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [10] الشمس

فعندما يختار المرء طريق [الفجور] فهو لم يخرج عن قانون المشيئة الإلهية، بأن أعطاه الله حرية اختيار [الفجور] بإرادته.

وعندما يختار المرء طريق [التقوى] فهو لم يخرج عن قانون المشيئة الإلهية الذي أعطاه حرية اختيار [التقوى] بإرادته.

وكذلك، فهو عندما يختار طريق الشرك بالله، فهو لم يخرج عن قانون المشيئة الإلهية الذي أعطاه حرية أن [يشرك بالله] بإرادته.

ولو أن مشيئة الله اقتضت ألا يكون للإنسان آليات للاختيار، لسلك الوجود البشري كله طريق الهداية، وهذا معنى قوله تعالى:

"فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ"، وقوله تعالى: "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا".

أي ولو شاء الله ألا يكون هناك قانون للاختيار..، ما أشرك أحد.

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ [149] الأنعام

لقد أقام الله تعالى حجته على الناس، على أساس ما زودهم به من آليات التدبر والتفكر، والتعقل، والنظر..، آليات عمل القلب، فالحجة لا تقوم إلا إذا كانت تستند إلى العلم والدليل والبرهان، الأمر الذي لا يتحقق إلا بإرادة الإنسان واختياره.

فإذا اختار الإنسان تقليد آبائه..، أو اتباع الظن والهوى..، فهذا هو اختياره، الذي لا يخرج عن قانون المشيئة الإلهية، الذي لولاه لاهتدى الناس جميعا. فالإنسان هو الذي يختار طريقه:

فإما أن يسير في طريق العلم، وإقامة الحجة والبرهان الإلهي على حجية الدين الذي يتبعه، فيعبد الله على بصيرة، فيكون من الناجين..، وإما أن يتبع هواه، أو يقلد آباءه بغير علم، فيكون من الهالكين.

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ [8] فاطر

إن قوله تعالى: "فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ"، ذلك حسب سنة الاختيار، التي خلق الله تعالى البشر على أساسها، وهؤلاء قد اختاروا طريق الهوى الذي زين لهم أعمالهم. فتدبر:

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ [14] محمد

إن الآية تحكي حال فريقين:

الفريق الأول: هو المتبع للحق القائم على البينة، وهي علم وحجة وبرهان من الله.

والفريق الثاني: هو المتبع للباطل القائم على الشرك والهوى وإغواء الشيطان.

وإن المشيئة الإلهية نظام كوني يحكم الفريقين، انطلق منه قانون الاختيار البشري.

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ [1] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ [2] ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ [3] محمد

ولقد جاءت رسالة الله الخاتمة، "آية قرآنية"، لإيقاظ وعي الأبناء، وتحريرهم من سلطان [الآبائية] وإرشادهم إلى طوق النجاة الذي سيأخذ بأيديهم إلى صراط ربهم المستقيم، وهو الاتباع الحق لما حملته الرسالة من نصوص الدين الإلهي ملة وشريعة.

الربانية خلق النبوة

إن من رحمة الله تعالى بالناس أن جعل لكل داء دواء، والدواء الذي يُحصّن الإنسان من الإغواء الشيطاني، ومن فتنة [الآبائية]، هو العلم القائم على دراسة وتعليم "الآية القرآنية"، والوقوف على عطائها المتجدد، على مر العصور.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ [79] آل عمران

إن خلق الربانية منهج ونظام حياة، يقوم على تعليم ودراسة كتاب الله، يعين المسلم على استلهام عطاء آياته، والوقوف على الشريعة الإلهية التي أمر الله تعالى باتباعها فيصعب على الشيطان اختراق قلبه، كما يصعب على فتنة [الآبائية] أن تتمكن منه.

لقد جاء كتاب الله، "آية قرآنية"، ونوراً يهدي الآباء لتربية الأبناء على هذا الخلق العظيم، أسوة بنبيهم الكريم، عليه السلام، حتى لا يقعوا أسرى أهوائهم، أو إغواء الشياطين.

إن خلق الربانية هو خلق العلم الموصل إلى دلائل الوحدانية وتفاعلها مع فطرة التوحيد، ليشهد الإنسان شهادة علمية، أنه "لا اله إلا الله"، ويقيم حياته على مقتضى هذه الشهادة.

ولقد جاءت سورة الروم بمجموعة من الآيات المحكمات البيّنات، تضع القواعد العامة لهذه المدرسة التربوية، العاصمة للإنسان من فتنة [الآبائية] والإغواء الشيطاني.

وتعتبر هذه المجموعة من الآيات، وحدة بنائية متكاملة، ومدرسة إيمانية فاعلة تبدأ بقول الله تعالى:

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ [17] وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ [18] الروم

وإلى قوله تعالى:

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [28] بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [29] الروم

ليبدأ بعدها بيان لما يستلزمه منهج التوحيد الخالص لله عز وجل، الذي تأسس في قلب المسلم، حسب ما تعلمه من الآيات السابقة، فقال تعالى:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [30] مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ [31] مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [32] الروم

وإن المتدبر لهذه المجموعة من الآيات، يشعر أنه يعيش في عالم من التوحيد الخالص، هذا التوحيد الذي تشهد به كل ذرة من ذرات هذا الكون، الذي نعيش فيه. ولكن، من الذي سيصل إلى فهم هذه الحقيقة؟!

إنهم أصحاب القلوب الحية، هؤلاء الذين لم يعطوا فرصة لـ [الآبائية] أن تعمل على تغييب آليات عمل قلوبهم. لذلك عقب الله على بعض آيات هذه المجموعة بقوله تعالى:

"... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"

"... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ"

"... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ"

"... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"

"... كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"

نعم إنه أول الطريق: فلا فاعلية لـ "الآية القرآنية"، وتناغمها مع دلائل الوحدانية إلا بتفعيل آليات عمل القلب، لتحصيل العلم العاصم من فتنة [الآبائية].

ونلاحظ أنه في وسط هذه المنظومة الكونية الموحدة، جاءت "آية الزواج"، التي قام عليها الوجود البشري:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [21] الروم

وجاء أيضا بيان للدور الذي تقوم به [الآبائية] لصد الناس عن التفاعل مع هذه المنظومة الكونية الموحدة.

بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [29] الروم

تدبر قول الله تعالى: "بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ". ثم تدبر قوله بعدها: "فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ".

إن اتباع الهوى ضلال، وظلم للنفس، لأنه يضع الشيء في غير موضعه.

وأول الظلم، الشرك بالله تعالى، وأن ينسب إليه الإنسان ما لم ينزل به سلطانا. ثم يأتي ظلم النفس، والذي يقف حاجزاً بين الإنسان وفطرته الإيمانية، فلا يرى دلائل الوحدانية وتفاعلها مع فطرته!! لذلك كان على من أسلم وجهه لله تعالى، وأخلص عبوديته له، أن يقيم الدين القيم، سلوكا عمليا، ملة وشريعة.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [30] الروم

تدبر قوله تعالى: "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ". نعم إنهم ليسوا من أهل العلم الحق الذي يقوم على التوحيد الخالص لله عز وجل، وعلى الإنابة إليه وتقواه، وإقامة الصلة الدائمة به سبحانه وتعالى.

إن العلم الحق هو السلاح الوحيد في مواجهة فتنة [الآبائية] والإغواء الشيطاني. هذا العلم القائم على الفهم الواعي لفاعلية "الآية القرآنية"، هذه الفاعلية التي تقوم بها أمة أخلصت عبوديتها لله تعالى، فأقامت الصلاة حق الإقامة، صفا واحدا يعصمها من التفرق في الدين.

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ [31] مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [32] الروم

إن التفرق في الدين، ليس من خلق النبوة، وليس من الربانية في شيء، وأنصاره ليسوا بعلماء، فالعلماء لا يفرحون بتفرقهم واختلافهم في دين الله تعالى: "كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ"!!

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [104] وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [105] آل عمران

إن العلماء الحقيقيين علماء بالبيّنات، "مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ"، يستحيل أن يتفرقوا في الدين، إلى فرق ومذاهب متصارعة.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [159] الأنعام

إن العلماء الحقيقيين يتبرؤون من التفرق في الدين، "لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ"، أسوة برسول الله محمد، عليه السلام.

إن العلماء الحقيقيين هم أهل العلم الحق، الذين أقاموا تدينهم على الدليل والبرهان استجابة لشريعة الله تعالى، بعيدا عن التقليد الأعمى الذي ورثوه عن آبائهم.

إن العلماء الربانيين، هم الذين تعلموا ودرسوا آيات الذكر الحكيم وتعلقت قلوبهم بها ملة وشريعة، فعصمهم ذلك من الوقوع في الشرك بالله تعالى.

شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ [13] الشورى

تدبر قوله تعالى: "أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ"، لتعلم أن التفرق في الدين مخالف لسنة جميع الأنبياء والرسل، سنة الصالحين المهديين.

إن الذين انفصلوا عن هذه السلسلة الإيمانية، متصلة الحلقات بجميع الأنبياء والرسل، هم الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، بغيا بينهم، في الوقت الذي يحملون فيه "آية قرآنية" تأمرهم ليل نهار أن يستقيموا على منهاج النبوة، وخلق الربانية، وتدبر وتعلم نصوص "الآية القرآنية".

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ [14] الشورى

تدبر قوله تعالى: "وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ".

إن وحدة الأمة لن تقوم إلا على أخلاق النبوة، وعلى رأسها خلق "الربانية"، حيث الاجتماع على كتاب الله تعالى، لاستلهام عطاءاته التي تعيد للمسلمين خيريتهم وشهادتهم على الأمم. لذلك أمر الله رسوله محمدا، عليه السلام، أن يستقيم على الدين القيم، ولا يتبع أهواء الذين لا يعلمون، الذين تفرقوا في الدين، "مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ". "بَغْياً بَيْنَهُمْ".

فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ [15] الشورى

إن الاستقامة على دين الله تعالى لا يمكن تحققها بالتقليد الأعمى للآباء: "فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ"، ولا باتباع الهوى: "وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ"، وتدبر قول الله تعالى:

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ [18] الجاثية

ومع هذا البيان الواضح، لا يزال معظم المسلمين يتمسكون بعضويتهم في منظومة [الآبائية]، متجاهلين مسئوليتهم الفردية، يقلدون أئمة مذاهبهم بغير علم، ويهجرون "الآية القرآنية"، القائمة بينهم تدعوهم لتفعيل نصوصها، سلوكا عمليا، أمة واحدة واتباعا لسنة نبيهم العظمى، سنة الأنبياء جميعا..، سنة إقامة الدين وعدم التفرق فيه.

فهل يحل للمسلم، الذي شرفه الله بحمل أكرم رسالة، وأعظم "آية"، أن يتخلى عن هذا الشرف السامي، وأن يعيش في هذه الدنيا تابعا مقلدا لا يفكر ولا ينظر ولا يتأمل ولا حتى يعقل ما وصل إليه حال المسلمين اليوم من بؤس وتخلف، بل أقول وتقهقر؟!

إن التفرق في الدين يتصادم مع أخلاق النبوة، ومع خلق "الربانية"، ومع فطرة التوحيد..، يتصادم مع الدين القيم، لذلك كان يجب أن ينظر كل مسلم في تدينه الوراثي نظرة علمية تأصيلية، ليقف على حقيقته، وهل هو دين الله الحق؟!

فتدبر هذه المجموعة من الآيات:

وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [8] العنكبوت. وانظر [لقمان/15]

قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ [46] هود

إن من "الحكمة" التي أوحاها الله تعالى إلى رسوله محمد، عليه السلام، ما تضمنته سورة الإسراء، من وصايا، شملت أصول الدين وقواعده الرئيسة.

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً [39] الإسراء

ولقد تضمنت هذه الوصايا، الوصية بإعمال آليات عمل القلب، من تدبر وتفكر وتعقل ونظر..، لبيان أن الأصل في إسلام المرء هو أن يقيم تفعيله لهذه الوصايا على أساس منهج الاستدلال العقلي، فقال تعالى عن هذا المنهج:

وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً [36] الإسراء

إن مهمة الرسل أن يعينوا الناس على معرفة خالقهم، وتوحيده، وإخلاص عبوديتهم له..، وذلك بالوقوف على دلائل الوحدانية، المنتشرة في الكون، وتفاعلها مع فطرة التوحيد، وآيات الكتاب المنزل عليهم.

وإن الوقوف على دلائل الوحدانية، وتفاعلها مع فطرة التوحيد، يستحيل أن يتحقق إلا بتفعيل آليات عمل القلب، أي إلا بالعلم..، علم الكتاب الإلهي المنزل، الذي من شأنه أن يعصم المتعلم، والمعلم، من الشرك بالله..، ففائدة العلم العمل.

لذلك كان من مهمة الرسل تعريف الناس بالفرق بين ما هو دين إلهي، وما هو تراث بشري، صنعه آباؤهم بأيديهم، وأن كل إنسان مسئول عن التمييز بين الآية الإلهية والرواية البشرية، حتى لايقع في الشرك بالله تعالى، فليس في دين الله مقدس غير كلام الله، الذي لا تثبت صحة نسبته إليه عز وجل إلا بالدليل قطعي الثبوت عن الله، وليس عن رسله.

وإن من مهمة الرسل أن يبينوا للناس أن هناك يوما سيرجعون فيه إلى الله لتوفى كل نفس ما عملت، وأن كل إنسان سيحاسب على ما قدمت يداه، لا على ما قدمت أيدي الناس.

وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً [13]

اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [14]

مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً [15] الإسراء

المسئولية فردية

إن الاستفادة من تجارب الآباء في مختلف الميادين، وتقليدهم في الخبرات والمهن المختلفة..، أمر ممدوح، لا شيء فيه، بل هو واجب شرعي، وضروري لتقدم الأمم والحضارات.

أما تقليدهم فيما سيحاسب عليه الإنسان شخصيا يوم القيامة، من أمر النبوات والشرائع الإلهية، والذي هو دين الله تعالى، فلا مجال للتقليد فيه، إلا إذا وقف المقلد على الدليل والبرهان الإلهي، المثبت لصحة هذا التقليد، وفي هذه الحالة لن يسمى عمله هذا تقليدا وإنما اتباعا بعلم.

إن العلم هو القاعدة التي يقوم عليها خلق "الربانية"، والتي يقيم عليها المسلم توحيده لله عز وجل، وبذلك أمر الله تعالى رسوله محمدا:

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ [19] محمد

فكيف يظن مسلم، أن الله تعالى يمكن أن يقبل إيمانه الوراثي، وتقليده الأعمى لآبائه أو اتباعه لهم بغير علم؟! إن الاتباع بعلم، سلوك ومنهج، يقوم على قواعد وأصول موضوعية، تحقق إرادة المتبوع.

فإذا كان الاتباع لمنهج الله ولشريعته، فإنه لا شك سيأخذ بالإنسان إلى صراط ربه المستقيم، أما إذا كان لغير منهج الله، ولغير شريعته، فإنه لا شك سيأخذ بالإنسان إلى المعيشة الضنك:

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى [124] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً [125] طه

فما هو هذا الذكر الذي إذا أعرض عنه الإنسان فإنه سيعيش معيشة ضنكا، ويكون مصيره جهنم؟! يقول الله تعالى:

قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى [126] طه

إن الشيطان يزين للإنسان على مر العصور، عضويته في منظومة [الآبائية] منظومة التفرق في الدين، ليصده عن الباب الموصل إلى العلم الحق، باب تفعيل آليات عمل القلب، وحتى لا يقف على مأساة تفرق أمته، وتخاصم أفرادها وتقاتلهم.

فكيف لا يقف الإنسان مع نفسه وقفة صدق، يتعرف من خلالها على حقيقة تدينه الوراثي، وكيف يقبل أن يكون تابعا مقلدا لأئمة مذهبه، من غير علم؟!

إن المقلد هو من اكتسب قناعة ذاتية بما هو عليه من تدين وراثي، دون دليل، ولا برهان، ولا هدى من الله تعالى. لذلك فهو:

. سجين دائرة الظن والوهم، لا يعتني بإقامة البراهين العقلية التي تنير طريقه إلى معرفة الحق.

. أبعد الناس عن إدراك حقائق الأشياء، فقد اكتسب قناعة موروثة بما هو عليه من عقيدة وثقافة وقيم..، دون تفعيل آليات عمل قلبه، وبذلك يبطل نعمة كبرى من نعم الله تعالى عليه، ألا وهي نعمة التغيير والتطوير نحو مستقبل أفضل.

. يرفض الاجتهاد في الدين، لأنه سجين تراثه المذهبي، الذي يحذره من أي اجتهاد بعد اجتهاد علماء سلفه، باعتبار علم الدين قد تم واكتمل.

. لا يستطيع أن يعيش حالة التوازن بين ثوابت العقيدة ومتطلبات التنمية المستدامة والتقدم الحضاري.

إن الانطلاق من فكر السلف، وما دونوه من تراث ديني، بدعوى أنهم خير من الخلف، بل وفوقهم في العلم والحكمة، وفهم الدين، انطلاق غير صحيح بل ومضلل... ذلك أن السلف بشر اجتهدوا وتفاعلوا مع نصوص الدين، حسب قدراتهم الذهنية ومقتضيات عصورهم، وقد تحملوا مسئوليتهم الشخصية، وعلى الخلف أن يفعلوا مثل ما فعلوا، ليتحمل كل مسلم مسئوليته الشخصية.

إن الانطلاق من تراث الفرق والمذاهب المختلفة، نحو فهم وتفعيل "الآية القرآنية" لن يخرج المسلمين مما هم فيه من ظلمات، وسيكون عقبة في طريق استلهام عطائها الذي هو طوق النجاة الأخير الذي يجب عليهم التمسك والاعتصام به.

لقد أراد الله تعالى للإنسان أن يولد حرا، يقبل الإبداع والتطور الفكري، فإذا هو يفقد حريته بانتهاء فترة طفولته، ويتحول إلى صورة طبق الأصل من أبيه!!

لذلك كان من الضروري ألا يغفل المسلم أبدا عن قول الله تعالى:

وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً
[36] الإسراء

فهذه الآية هي الدليل على فساد الإيمان الوراثي، وعلى خطر التقليد الأعمى، وأن الإنسان مسئول عن تدينه مسئولية فردية، وليست جماعية.

وفي هذا العصر عصر شبكة المعلومات العالمية [الإنترنت] أصبح فرض عين على كل مسلم، يحمل ثقافة علمية متوسطة، أن يتأكد بنفسه من صحة ما يقرأه أو يسمعه من منابر الدعوة التخاصمية المختلفة، ليقف على حقيقة تدينه، ومكانه من الدين الإلهي واجب الاتباع.

إنه لا مفر من تفعيل منهج الاستدلال العقلي في حياة المسلم، للتثبت من صحة ما يحمله قلبه من ثقافة إسلامية قد تفسده ولا تصلحه. فكما أن المسلم لا يروي خبرا على أنه حقيقة إلا إذا شهد بنفسه وقائعه، فكذلك لا يقبل في دينه إلا ما ثبت يقينا أنه من عند الله تعالى، وليس فقط من عند رسوله، فقد يكون ما صح عن الرسول، عليه السلام خاصا بعصر الرسالة.

صحيح أن جميع المعاصرين لرسول الله قد سمعوا حديثه، كلمة كلمة، مرة واحدة ولكن إذا خرجوا من عند رسول الله، وبدأ كل منهم يروى للآخرين ما سمعه من حديث رسول الله، فإن هؤلاء الذين تلقوا حديث رسول الله بأُذُن واحدة، سيأتون عند الأداء، وكل منهم له رواية عن حديث رسول الله، تختلف عن غيره، وذلك حسب إمكاناتهم وثقافتهم وفهمهم للمنقول وضبطهم لألفاظ أدائه، وحالاتهم الذهنية.

فمن الحقائق التي لا تخفى على ذي بصيرة، أن الخبر إذا لم يدون وقت حدوثه فإن احتمال تحريفه يزداد كلما بعدت المسافة الزمنية عن مسرح الحدث!!

لذلك نجد أن كلمة [السمع] جاءت في جميع آيات الذكر الحكيم، التي ورد في سياقها ذكر السمع والأبصار والأفئدة..، جاءت على الإفراد، لبيان أنه عند التلقي يستقبل الجميع الخبر بآلة سمع واحدة. أما [البصر] فقد جاء مفردا في الآية السابقة فقط وجاء جمعا في جميع الآيات الأخرى..، فلماذا في هذه الآية بالذات؟!

لأن هذه الآية جاءت تتحدث عن "المسئولية الفردية" للإنسان أمام الله تعالى، فكان لابد من تحذير الإنسان شخصيا [وَلا تَقْفُ] من اتباع ما لا يعلم حقيقته، وما لم يشهد وقائعه ببصره، وليس ببصر غيره..، وبآليات عمل قلبه هو، وليس بقلب غيره.

ففيما يتعلق بمسئولية الإنسان الدينية: لا علاقة له بسماع غيره، ولا بإبصار غيره ولا بتفكير وتدبر وتعقل غيره.

أما ما تختلف فيه الأهواء ولا تتلاقى، وما كان من قبيل العلوم المدنية، التي تخضع للتجارب المعملية، وقامت عليها حركة تطور الحياة بنظمها المختلفة... إلى آخره، فهذا كله مما يجب أن يستفاد فيه من تجارب الآخرين، وتطور أفكارهم، بما يخدم مصلحة البشرية جمعاء، مسلمهم وكافرهم.

لذلك كان من الضروري أن يتولى الله تعالى بنفسه أمر دينه [ملة وشريعة] فهو سبحانه أعلم بطبيعة هذا الإنسان الذي حمّله أمانة الدين، حتى لا يكون للناس على الله حجة يوم الدين، فيقول أتباع المذاهب المختلفة [السني، والشيعي، والمعتزلي...]: هكذا وجدنا آباءنا يفعلون!!

فماذا لو قال الله تعالى لهم جميعا:

لقد أمرتكم باتباع العلم الحق: "آية" رسولكم "القرآنية"، التي يستحيل أن يمسها تحريف إنس ولا جان..، فاتبعتم أهواء مذاهبكم المختلفة، ومروياتكم العشوائية واجتهاداتكم المذهبية، وها هو رسولكم يتبرأ من الذين هجروا آيته، الدالة على صدق بلاغه عن الله؟!

إن الذين يتحدثون عن تمسكهم بالسنة النبوية، يقولون ذلك في الوقت الذي هم متفرقون في الدين، وبتفرقهم هذا قد أعطوا ظهورهم أصلا للآية المثبتة لهذه "السنة النبوية"، هذه "الآية" التي من غيرها لن تكون هناك "سنة"، ولن يكون هناك "رسول" أصلا..، فهل يعقل أن يتمسك الإنسان بالفرع، ويترك الأصل؟!

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً [27] يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً [28]

لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً [29] الفرقان

فما هو هذا الذكر الذي جاء إلى الإنسان بنفسه، فأعرض عنه، واتخذ فلانا خليلا؟!

إنه القرآن الحكيم.

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً [30] الفرقان

إن هذا الظالم يشهد بأن سبب ضلاله هو عدم اتباعه سبيل الرسول، والرسول يشهد بأن سبيله هو هذا القرآن الذي اتخذه قومه مهجورا.

إذن فالذكر هو آيات القرآن الحكيم التي يجب على الناس اتباعها، والتي ستكون هدفا للمجرمين، أعداء الدين الذين يعملون ليل نهار على اختراقها، وتحريفها، بأية صورة من الصور!!

لذلك كان من الطبيعي أن يأتي هذا البيان القرآني بعدها:

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنْ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً [31] الفرقان

إن بيننا وبين مسرح أحداث تراث الفرق والمذاهب الإسلامية خمسة عشر قرنا تقريبا لا تملك كل فرقة منه الآن إلا ما سمحت به "الخلافة الإسلامية" في عصر تدوينه بتداوله، فهناك تراث لفرق إسلامية قد تم إعدامه، بل وإعدام أصحابه!!

إن المسلم الذي يريد أن يسير في حياته على هدى وبصيرة، ليلقى ربه وهو عنه راض، عليه ألا يغفل وصايا الحكمة، التي حملت للناس أصول الدين وقواعده الرئيسة والتي بدأت بقوله تعالى:

لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً [22] الإسراء

والتي ختمت بقوله تعالى:

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً [39] الإسراء

ووسط هذه الوصايا جاء الأمر بتحمل كل إنسان مسئوليته الفردية يوم القيامة:

وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً [36] الإسراء

إن هذه الوصية، التي هي من الحكمة التي أوحاها الله تعالى إلى رسوله محمد عليه السلام، تضع أصول منهج الاستدلال العقلي للتثبت من صحة الأخبار، التي يجب أن يقيم عليها المرء إسلامه.

فكما أن المسلم لا يحل له أن يروي خبرا على أنه حقيقة إلا إذا شهد بنفسه وقائعه أي إلا إذا كان على علم يقيني بما سيخبر به، وأنه حقيقة مجزوم بها..، كما أمرت الشريعة الإسلامية، واقتضته مسئولية الإنسان الدينية..، فكذلك هو مسئول عما يصل إلى سمعه وبصره وقلبه..، ومؤاخذ إذا أعمل وسائل إدراكه في غير العلم الحق الذي أمره ربه باتباعه.

إن نصوص الكتاب الحكيم لم تثبت صحة نسبتها إلى الله تعالى، عند جميع الفرق والمذاهب الإسلامية، بالرواية عن رسول الله، عليه السلام، وإلا لجاءت بنفس الصورة المذهبية التي جاءت بها مرويات الفرق والمذاهب المختلفة!!

لذلك فإن مسئولية المسلمين معلقة في أعناقهم هم، لا في أعناق غيرهم، وهم مسئولون عن تفعيل "الآية القرآنية" المعاصرة لهم هم، وليس عن تفعيل من في القبور لها، وحجية هذه "الآية القرآنية" قائمة بينهم اليوم، كما كانت قائمة بين آبائهم.

إذن.. فلماذا لا يجتمعون حول هذه "الآية القرآنية"، مخلصين لله الدين، سائلينه تأليف قلوبهم، وشرح صدورهم، لاتباع سنة نبيهم الكبرى، التي نطقت بها كل آية من آيات ذكره الحكيم، سنة:

شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ [13] الشورى

مسئولية خير أمة

لقد تجاوزت الأمم المتحضرة "فقه الآباء"، واهتموا بـ "فقه الأبناء"، وتفعيله في حياتهم فتقدموا. أما معظم المسلمين، الذين حملوا "الآية القرآنية" العالمية الخالدة ليكونوا شهداء على الناس..، لم يخرجوا من دائرة "فقه الآباء"، وهجروا "الآية" واتبعوا "الرواية"، ولم يتنازلوا عن عضويتهم في منظومة [الآبائية]، وتركوا "السنة النبوية" الكبرى، سنة تفعيل "الآية القرآنية"، سنة الشهادة على العالمين، سنة إخراج الناس من الظلمات إلى النور... تركوها وراء ظهورهم!!

الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [1] إبراهيم

لقد ظن معظم علماء المسلمين ودعاتهم، أن إقامة الصلوات الخمس، وصوم رمضان، وحج البيت، وأداء العمرة..، وانشغالهم بمنابر دعوتهم المذهبية، المحلية والفضائية..، ظنوا أن ذلك دليل وبرهان على خيريتهم وشهادتهم على العالمين!!

والحقيقة أنهم لو فعلوا ذلك، وهم أمة واحدة، لقلنا إنها خطوة في طريق تحقيق تلك الخيرية، وتفعيلهم لـ "الآية القرآنية"، وحرصهم على إقامة الشهادة على العالمين.

أما أن يؤدوا الشعائر التعبدية وقلوبهم شتى، ومنابر دعوتهم تشهد ليل نهار أزمة التخاصم والتكفير لبعضهم، هذه الأزمة التي نبتت في عصور الفتن الكبرى، فأنتجت هذه الفرق المتخاصمة، بتراثها ومروياتها المذهبية..، فإن هذا كله لا علاقة له بالخيرية..، فالقرآن الحكيم عندما يتحدث عن ذلك، فإنه يخاطب أمة واحدة، قد حمّلها الله تعالى مسئولية الشهادة على الناس.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [77] وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ [78] الحج

فمتى سيفهم المسلمون أنهم جميعا يركبون سفينة واحدة، وليس من مصلحتهم إقامة جسور العداء والتخاصم بينهم، بسبب عضويتهم في منظومة [الآبائية] المذهبية!! أليسوا هم الأمة الوسط التي أمرها الله تعالى أن تقيم الشاهدة على الناس؟!

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ [143] البقرة

فأين هي الأمة الوسط، التي تفاعل أفرادها مع حاضرهم، فوجدوا السبيل للنهوض من أزمة تفرقهم وتخاصمهم أن يتحدوا، ويعتصموا بكتاب ربهم، يستقون منه العون والنصر والهداية؟!

وأية فرقة، من الفرق الإسلامية، هي التي ستسمح لها الفرق الأخرى أن تتحدث للعالم باسم الإسلام؟!

وإذا كانت مشيئة الله قد اقتضت أن يكون محمد، عليه السلام، هو خاتم الرسل والنبيين، وأن يكون برهان صدقه هو "الآية القرآنية" القائمة بين الناس إلى يوم الدين فلماذا لم يستطع المسلمون تفعيل هذه "الآية القرآنية" في حياة الناس، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، استجابة لأمر الله تعالى لهم بـ "الشهادة على الناس"؟!

الحقيقة أن السبب وراء كل هذا: أن معظم المسلمين، وأئمة مذاهبهم المختلفة، قد وقعوا أسرى فكر [الآبائية] المذهبي، الذي وقع فيه أتباع الأمم السابقة..، فهجروا كتاب ربهم، واتبعوا مرويات وتشريعات ما أنزل الله بها من سلطان.

وقد يقول قائل: إن القرآن عندما ذم [الآبائية] كان يوجه خطابه إلى ملل الكفر المختلفة، وليس لهؤلاء الذين ولدوا في بيئة مسلمة، ويحملون الهوية الإسلامية ويقيمون الشعائر الإسلامية، تقليدا واتباعا لآبائهم!!

أقول: إن الله تعالى عندما ذم [الآبائية] لم يذم أشخاص [الآباء]، ولا هويات [الأبناء] وإنما ذم الملل والمناهج والأنظمة والمصادر التشريعية..، التي يرثها الأبناء عن الآباء باعتبارها دينا مقدسا واجب الاتباع، دون إذن أو برهان من الله تعالى.

فالقضية ليست قضية هويات يولد بها الإنسان، وإنما هي قضية دين إلهي على كل إنسان أن يتحمل مسئوليته. لذلك عندما أراد الله تعالى بيان وجوب اتباع إبراهيم، عليه السلام، بيّن أن المقصود هو اتباع ملته وليس شخصه.

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ [123] النحل

وإن ما يميز الاتباع المحمود، الذي عليه برهان من الله، هو التبرؤ من الشرك:

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ [38] يوسف

وعلى ملة ونهج الأنبياء وهداهم..، أمر الله تعالى رسوله محمداً أن يسير:

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ [90] الأنعام

تدبر قوله تعالى "فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ"، لتعلم أن الاتباع اتباع "منهج"، واتباع "شريعة" و"هدى"، فقال تعالى: "فَبِهُدَاهُمْ"، وهدي المرسلين مرجعيته كتاب الله وليس أشخاصهم.

فلقد عرف العرب شخص رسول الله محمد، عليه السلام، وأحبّوه وصدّقوه..، فلما حمل رسالة الله إليهم، كذبه من كذبه، لا لشخصه، ولكن لنبوته ورسالته.

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الأَوَّلِينَ [68]

أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ [69]

أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ [70] المؤمنون

نعم.. "أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ": إن "الْقَوْلَ" الذي خرج على لسان رسول الله، عليه السلام وأمرهم الله أن يتدبروه، هو النور الذي أنزله على رسوله، هو نصوص "الآية القرآنية" التي تعهد الله بحفظها.

ولكونها حقا مطلقا، كرهوها: "بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ".

وهل حمل رسول الله غير الحق المطلق المنزل من ربه؟!

فلنتخيل أن الله تعالى أسند إلى المسلمين مهمة حفظ هذا الحق، آيات الذكر الحكيم فهل سيظل حقا؟!

وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ [71] المؤمنون

إن الحق لم يتبع أهواء الآباء، وإن "الظن" لا يغني من "الحق" شيئا، وتعهد الله تعالى بحفظ آيات ذكره الحكيم، لتكون الحجة والمنهج والذكر..، الذي يوقظ قلوب الناس من غفلتها: "بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ"

إن الاتباع، في دين الله لا يكون إلا للحق، لا يكون للظن أبدا.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [35]

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ [36] يونس

ولكون حجية تراث الآباء ومروياتهم ظنية، استلزم الأمر الفصل بين هذا التراث وبين نصوص "الآية القرآنية"، أي بين ما هو بشري، وما هو إلهي، حتى لا تختلط الأمور على الناس، فقال تعالى بعدها:

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [37] يونس

إن الفرق بين "الآية الإلهية"، والرواية البشرية"، أن "الآية" لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، أما "الرواية" فيمكن أن تفترى!!

لذلك بيّن الله تعالى بعدها كيف يُميز الإنسان بين النص الإلهي، والنص البشري ويفصل بينهما:

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [38] يونس

لقد جاء الأمر باتباع رسول الله، غير مرتبط بشخصه الكريم، لا لأنه لا يستحق ذلك، فحاشاه، وإنما لأنه ميت لا محالة..، فلا يجب أن ترتبط رسالته بشخصه، وإنما بكتابه و"آيته القرآنية"، القائمة بين الناس إلى يوم الدين، فتدبر:

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [157] الأعراف

فانظر وتدبر: لقد أمر الله تعالى باتباع الرسول، فقال تعالى: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ.."، ثم بيَّن للناس موضوع هذا الاتباع، وحدده تحديدا واضحا لا لبس فيه ولا غموض، فقال بعدها:

"فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ"

فهل يصح أن يرث أبناء المسلمين غير هذا النور، كدين إلهي واجب الاتباع؟!

انظر إلى منابر الدعوة، للفرق والمذاهب المختلفة، واسأل أصحابها:

ما المراجع الدينية التي تعتمدون عليها في دعوتكم، المحلية والفضائية؟!

إنك ستجد أن كل علماء أو دعاة فرقة، أو مذهب معين، عاشوا أسرى مراجع مذاهبهم، ينهون أتباعهم عن قراءة مراجع الفرق والمذاهب الأخرى، والغريب أنهم جميعا يركبون سفينة واحدة، سفينة "أسرى [الآبائية] المذهبية"، التي ولدوا فيها، وتربوا على مائدتها!!

لقد كان عليهم، بعد بلوغهم النكاح، واكتمال رشدهم..، أن يدرسوا كل هذه المذاهب دراسة علمية جادة، إذا كانوا حقا يبتغون الحصول على صفة، أو لقب "عالم"..، لأنهم إذا فعلوا، فسيتركون كل هذه المذاهب، ويعودون إلى ما كان عليه رسول الله وصحبه الكرام، قبل ظهور هذه الفرق وهذه المذاهب المختلفة.

وهل هذه السلسلة من الدراسات، إلا ثمرة هذه الرحلة الإيمانية، من الإيمان الوراثي إلى الإيمان العلمي اليقيني؟!

واللافت للنظر، أن أنصار [الآبائية] الذين يصرون على تمسكهم بمذاهبهم المختلفة المتصارعة..، إذا واجهتهم بالآيات القرآنية التي تنهى عن التقليد الأعمى، وعن اتباع الآباء بغير علم، ذهبوا يبطلون مفعول هذه الآيات، بدعوى الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وأن هذه الآية نزلت في النصارى، وتلك نزلت في اليهود..!!

فهل تدبروا قول الله تعالى، محذرا من التعامل مع آيات الذكر الحكيم، بهذا الفهم المذهبي، حيث قال:

وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [155] أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ [156] أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ [157] الأنعام

فلماذا يريد المسلمون إخراج أنفسهم من دائرة التحذير الخاصة بأتباع الرسل السابقين؟! أليسوا بشرا كسائر البشر، يمكن أن يضلوا السبيل بعد وفاة رسولهم، كما ضل أكثر السابقين؟!

هل يحملون الدليل والبرهان على أنهم على الحق الذي كان عليه رسول الله وصحبه الكرام؟! أم أنهم هكذا وجدوا آباءهم يفعلون، فقلدوهم، وتربوا على مراجعهم الدينية، حسب فرقهم التي ولدوا فيها؟!

وإذا كانوا على الحق...، فأتباع أية فرقة، من الفرق الإسلامية، هم الذين على هذا الحق...، أي هم الفرقة الناجية؟! وما برهان ذلك من كتاب الله تعالى؟!

وإذا كنا نسمع دائما عن السلف الصالح، وعن تقديس تراثهم الديني...، كل حسب فرقته، أو مذهبه، الذي ينتمي إليه، فإننا لم نسمع، إلى يومنا هذا، أن تراثهم الديني كان له دور في نهضة المسلمين، والأخذ بأيديهم لمواجهة تحدياتهم المعاصرة!!

إنه من الخطر الكبير على الأبناء، علميا ومعرفيا، أن يكونوا مقلدين تابعين...، لا ينطلقون في بحوثهم ودراساتهم الدينية، من قناعتهم الفكرية الذاتية، القائمة على أساس فاعلية "الآية القرآنية" المعاصرة لهم!! فمن إذن الذي سيقوم بهذه المهمة، ومتى؟!

إن الدارس الجاد لأمهات كتب التراث الديني، للفرق والمذاهب المختلفة، يجد أن من يتبعونها قد ورثوا عقائد، وأفكارا...، على أنها من الدين الإلهي واجب الاتباع، فإذا نظرت إلى هذا الموروث الديني وجدته قائما على مرويات شاعت وانتشرت وتواترت على ألسنة الناس، حتى أصبحت مكونا رئيسا من تدينهم، ولا علاقة لها بالنص التشريعي الإلهي القطعي الثبوت عن الله تعالى وعن رسوله!!

ودليل ذلك ما يقوم به طلبة الدراسات العليا، في المؤسسات الدينية المذهبية المختلفة، من تنقية مستمرة لأمهات الكتب، قد تصل إلى حد إلغاء كثير من محتواها!!

أما إذا كانت هذه الدراسات متعلقة بمقارنة المذاهب الإسلامية، فستجد أن أصحابها يصلون في نهاية بحثهم إلى أن المذهب الذي ينتمون إليه هو أصح المذاهب!!

وتزداد الإشكالية وتتسع، عندما يحمل هذا التراث المذهبي، مشاهير العلماء والدعاة ينشرونه من خلال منابرهم الدعوية المختلفة!!

فماذا يملك العامة من الناس الذين يلقى على مسامعهم هذا التراث التخاصمي المفرق للمسلمين..، من الأدلة والبراهين العلمية التي يستطيعون بها، الوقوف أمام هذا التغييب العقلي، والرد على حامليه؟!

لقد بعث الله تعالى رسوله الخاتم محمداً، عليه السلام، بـ "آية قرآنية" إلى الناس كافة ناسخة لكل الكتب والشرائع السابقة، قائمة بين الناس، تشهد بذاتها "أن لا إله إلا الله" وأن "محمداً رسول الله"، إلى يوم الدين.

فمن من هذه الفرق المختلفة، سيحمل مسئولية الشهادة على الناس جميعا؟!

لقد بعث الله تعالى رسوله الخاتم ليضع عن الناس إصرهم، والأغلال التي وضعتها [الآبائية] على قلوبهم. ولقد جاءت "آيته القرآنية"، آية عقلية، وليست حسية، فرسول الله ميت، وآيته الدالة على صدقه لابد أن تبقى خالدة، حاملة آليات حفظها في ذاتها لتقيم الحجة على الناس جميعا إلى يوم الدين.

فمن من هذه الفرق المختلفة، سيثبت عالمية هذه "الآية القرآنية" للناس جميعا؟!

لقد جاءت "الآية القرآنية" آية عقلية، معاصرة، ترتبط بعالم الأفكار، المتسع والممتد إلى يوم الدين. هذا العالم الذي يُتيح للناس فرصة الوقوف على عطائها المتجدد مع تحديات ومقتضيات كل عصر.

فمن من هذه الفرق المختلفة، سيظهر عطاء هذه "الآية القرآنية" للناس جميعا؟!

لذلك فإن القول بوجوب اتباع أئمة السلف، لفهم نصوص هذه "الآية القرآنية" قول غريب، ودخيل على طبيعة وخصائص هذه "الآية القرآنية"، التي لا تستمد حجيتها ولا فاعليتها من الماضي، وإنما من عطائها المعاصر، المتجدد على مر العصور.

ويزداد الأمر غرابة عندما نجد من يقول: إن كل من يدلي برأي في فهم آيات الذكر الحكيم، دون أن يذكر المرجع السلفي الذي استقى منه رأيه هذا، يعد مبتدعا في دين الله..، والمبتدع في الدين خارج عن ملة الإسلام!!

والحقيقة أن من يدعونه مبتدعا، خارجا ببدعته عن ملة الإسلام، هو في الحقيقة قد خرج عن ملة المذهب الذي نشأ فيه، وتربى على مائدته، وليس من ملة الإسلام الحاكمة لكل هذا الوجود البشري.

إن "السلفية" منظومة فكرية تستمد أصولها من منظومة [الآبائية] الأم، من لدن نوح عليه السلام، ومكان هذه المنظومة في الشريعة الإسلامية لا يتعدى أخذ العبر والعظات. هكذا فهمنا من الموضع الوحيد الذي ذكر [السلف]، في سياق الحديث عن هلاك فرعون وقومه:

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ [54] فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ [55] فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ [56] الزخرف

لقد جعل الله تعالى مصير فرعون وقومه [سَلَفاً] ومثلا، ليأخذ الخلف منه العبرة وليعلموا أن انتقام الله سينالهم إن هم ساروا في طريقهم، وعملوا عملهم.

لقد قامت منظومة [الآبائية] على التقليد الأعمى للآباء، واتباعهم بغير علم ولا هدى من الله تعالى. فانظر إلى أتباع الفرق والمذاهب المختلفة، المتمسكين بتدينهم الوراثي كيف يقيمون معظم الشعائر الدينية، والمعاملات الإسلامية، واسأل معظمهم:

هل تعلمون الدليل الشرعي على قيامكم بهذا العمل، وفي أي المصادر الدينية يوجد؟! لن تجد إلا إجابة واحدة: هكذا سمعنا من أئمتنا، أو قرأنا في أحد كتبهم!!

لقد جاء القرآن يحدد المسئولية الفردية لكل شخص في هذا الوجود، ويبين أن الموتى قد طويت صحائفهم، ولم تبق إلا ذكراهم، وما على الأحياء إلا أخذ العبر.

فتدبر قوله تعالى في سورة البقرة:

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [133]

فبعد أن تحدث السياق عن موقف الأمم من دعوة الأنبياء والرسل، جاء يقطع التعلق بهذه الأمم التي خلت, ويبين أن المعول عليه هو أعمال الخلف وما كسبت قلوبهم.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [134] البقرة

ثم عاد السياق يستكمل الحديث عن الجدل القائم بين الرسل والمكذبين لدعوتهم.

وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ [135] البقرة

حتى وصل السياق إلى قوله تعالى:

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [140] البقرة

ثم عاد السياق يذكر الناس بمسئوليتهم الفردية، وأن على الإنسان ألا ينشغل بعالم الأموات، إلا من أجل أخذ العبرة.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [141] البقرة

إن كلمة "خلت" خبر عن أمة مضت، أي خلا منها المكان والزمان، وهذه بدهية لا تحتاج إلى بيان، فعندما يذكرها القرآن فإن هذا يؤكد أن من خلت منهم الأرض [أي الموتى]، لن ينفعوا من عليها [الأحياء]، بأية صورة من صور النفع، إلا الاعتبار والاتعاظ، فلن ينفع صلاح الآباء الأبناء إذا لم يتبعوا الحق الذي كانوا عليه.

والسؤال: إذا كان الأبناء لن يسألوا عن أعمال آبائهم، فكيف يكون تراث الآباء مصدر تشريع وفتوى للأبناء، لا يصح إسلامهم إلا باتباعه؟!

إن للآباء ما كسبوا، وللأبناء ما كسبوا، وسيسأل كلٌّ عن عمله.

ألم تحدث محاولات لتطبيق الشريعة الإسلامية؟! ولكن لماذا ظلت هذه المحاولات أسيرة المذهب الديني الذي يعتنقه قادتها؟! ولماذا لم يبارك الله تعالى هذه المحاولات ويجعلها سببا في توحيد الصف الإسلامي؟!

وهل القيادة "السنية" يمكن أن تسمح للقيادة "الشيعية" أن تحل محلها؟! وهل العكس صحيح؟! إن مفهوم "السلف الصالح" عند أهل السنة، يختلف عن مفهومه عند "الشيعة" وكلمة "السلف" واحدة!!

فأين الخلل؟! لماذا أصبح التأسي بالسلف الصالح مسألة مذهبية، الصالح عند فريق ليس كذلك عند آخر!!

لماذا توقفت نماذج الصلاح عند أئمة السلف وتراثهم الديني؟! ألم يفقد هذا التوجه الفكري المذهبي المسلمين قدرتهم الذاتية على التغيير والتجديد..، فأصبحوا في ذيل الركب الحضاري، وهم الذين أسند الله تعالى إليهم مهمة قيادته؟!

هل المسلمون اليوم، مؤهلون لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، بما يحملونه من تراث ديني مذهبي، تخاصمي، تتصارع عليه كل فرقة، وكل مذهب من مذاهب الفرقة الواحدة، لإظهار أن تراثها هو الحق واجب الاتباع، وأنه الذي حمل نصوص "السنة النبوية" الصحيحة، والدليل على أن أتباعه هم الفرقة الناجية؟!

هل الإشكالية في أن المسلمين مستضعفون، متخلفون عن الركب الحضاري، لذلك يصعب عليهم تحمل مسئوليتهم التي أمرهم ربهم بها؟!

أم أن "المؤامرة" على الإسلام هي التي أقعدتهم عن النهوض من كبوتهم؟! أم أنهم هم الذين، بتفرقهم وتخاصمهم وتقاتلهم..، منذ عصر الفتنة الكبرى وإلى يومنا هذا قد سمحوا لأعداء الإسلام أن يشلوا حركتهم، ويخترقوا صفوفهم، ويتآمروا عليهم، ولم يسمحوا لهم بالتقدم خطوة إلا بإذنهم؟!

إذن فنحن أمام مأساة، لن ينفع معها تمسك كل صاحب مذهب بمذهبه، ولن ينفع معها اضطهاد المفكرين الذي يريدون إيقاظ المسلمين من سباتهم.

لقد جاءت رسالة الله العالمية الخاتمة، "آية قرآنية"، تحذر المسلمين من الانتساب إلى هذه المنظومة [الآبائية] التي تأمر باتباع السلف، بغير علم، وتبين لهم كيف كانت هذه التبعية السلفية عقبة أمام دعوة الرسل، حتى لا يقعوا فيما وقع فيه من أهلكهم الله بسبب تمسكهم بهذه الآبائية الضالة.

إن الذين فصلوا أنفسهم عن منظومة [الآبائية] هم الذين تقدموا، وقادوا العالم في مسيرة الركب الحضاري.

فماذا لو أن المسلمين، حملة "الآية القرآنية"، تميزوا عن هؤلاء بتفعيل نصوصها سلوكا عمليا حضاريا، أمة واحدة؟!

ألم يكفهم تكريم الله تعالى لهم، وتشريفهم بحمل آية رسوله القرآنية، العالمية الخالدة التي إن قاموا بتفعيلها في حياتهم، كانوا خير أمة أخرجت للناس؟!

وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ [50] أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [51] العنكبوت

فلماذا لم يكتف أتباع الفرق والمذاهب المختلفة، بكتاب الله، الآية الدالة على صدق بلاغ الرسول عليه السلام، عن ربه، والتي حذرت أتباعه من التفرق في الدين وذهبوا يتمسكون بتفرقهم، واتباع أئمة مذاهبهم المتخاصمة؟!

لماذا انشغل فقهاء المذاهب المختلفة، بثمار أزمة التفرق والتخاصم، التي أسفرت عنها الفتن الكبرى، وتقديس كل فرقة لتراثها الديني، واتهام من ينكره، أو ينكر بعضه بإنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة...، وإقامة منابر الدعوة، بمختلف وسائلها على أساس ذلك..، لتظل فتاوى استحلال دماء المسلمين قائمة بينهم، بدعوى أن الله تعالى قد شهد للفريقين المتقاتلين بالإيمان، على الرغم من سفك دماء بعضهم بعضا..، ودليلهم على ذلك [الآية9/ الحجرات] مع أن استدلالهم هذا، لا يصح شكلا وموضوعا، وسيأتي بيان ذلك فيما بعد؟!

لماذا لم ينطلقوا من فاعلية كتاب الله كـ "آية قرآنية" معاصرة لهم، ولم يتعالوا عن كل الإشكالات المذهبية، ولم يتورعوا عن إصدار أحكام تكفير بعضهم، في مسائل هي من صنع أنفسهم، ومذاهبهم المختلفة؟!

ولكن الذي لا يمكن أن يقبله المنطق السليم، هو أن يرفع أتباع كل فرقة، وكل مذهب من مذاهب الفرقة الواحدة، راية التمسك بـ "السنة النبوية"، فإذا هم في حقيقة الأمر يتمسكون بأحاديث، إن صحت عند فريق، لم تصح عند آخر، حتى وصل الخلاف بين علماء الفرق والمذاهب المختلفة، إلى حد يبطلها جميعا!!

لقد عاش صحابة رسول الله "السنة النبوية" تفعيلا عمليا لنصوص "الآية القرآنية" ولكيفيات الأداء العملي لما أجملته من أحكام، جنبا إلى جنب النص القرآني، المحفوظ بحفظ الله تعالى له، وعلى هذا الأساس خاطبهم الله تعالى كخير أمة حظيت بشرف وجود رسول الله فيهم.

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً [29] الفتح

فأين أصحاب منابر الدعوة، الداعمة لأزمة تفرق المسلمين وتخاصمهم..، من هذا الجيل القرآني، الذي شهد الله تعالى له بالخيرية، وبالعدالة..، قبل أن يظهر علماء الجرح والتعديل، والتصحيح والتضعيف، الذين قام علم الحديث على اجتهاداتهم ومدارسهم المذهبية؟!

إن الذين شهد الله تعالى لهم بالعدالة، من صحابة رسول الله، قد أقاموا شهادتهم على الناس، باعتصامهم بحبل الله جميعاً، فتدبر:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [77] وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ [78] الحج

وهكذا يجب أن تكون شهادة المسلمين، على مر العصور، تنفيذا لأمر الله تعالى وتأسياً بسنة رسوله، وتفاعلا مع تحديات كل عصر، وإمكاناته الثقافية والمعرفية. لذلك لم يربط الله تعالى فاعلية "الآية القرآنية" بحياة رسوله محمد، عليه السلام، فتدبر:

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ [144] آل عمران

لقد أراد الله تعالى أن يبيّن للناس، أنه لا تلازم بين دوام فاعلية "الآية القرآنية" وبقاء الرسول على قيد الحياة، فقد حملت "الآية القرآنية" حجيتها في ذاتها، وستعطي عطاءها لكل من آمن بها وصدّقها، على مر العصور..، وعلى هذا الأساس، تتواصل خيرية الأمة، وتتحقق مسئولية شهادة المسلمين، على العالمين، إلى يوم الدين.

وفي نفس الوقت، حملت الآية تحذيرا من الانقلاب على الأعقاب في حالين:

الأولى: إذا "قتل" النبي، وقد بيّن السياق أن الصحابة عندما ظنوا أن رسول الله قد "قتل"، انقلب منهم على الأعقاب من انقلب، فنزلت الآية تحذر من تكرار ذلك.

الثانية: إذا "مات" النبي، وقد بيّن السياق أن من الصحابة من قد ينقلب على الأعقاب بعد "موت" النبي، واكتمال الدين، وتمام النعمة، فنزلت الآية تحذر من حدوث ذلك مستقبلا، وتكون الآية بذلك إنباء بالمستقبل.

وحيث إن رسول الله، عليه السلام، قد مات، ولم يقتل، إذن فالانقلاب الذي حذرت منه الآية، هو ما حدث فعلا بين المسلمين من فتن كبرى بعد وفاته.

وعلينا أن نعلم، أنه لو لم يشأ الله تعالى أن يكون محمد هو رسوله الخاتم، لجاء ذكر تفاصيل هذا الانقلاب من فتن كبرى..، في الكتاب الذي كان سينزله الله على من سيبعثه رسولا، تماما كما ذكر لنا ما حدث من انقلاب بين أتباع رسوله عيسى عليه السلام، بعد وفاته، وهو الرسول الذي سبق رسول الله محمدا مباشرة. فتدبر:

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ [116]

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [117] المائدة

أما وقد شاءت إرادة الله أن يكون محمد هو خاتم النبيين، فلا رسالة بعده تحكي لنا ما حدث من انقلاب بين اتباعه، إذن فنحن لا نملك دليلا قطعي الثبوت، عن الله تعالى يؤكد حدوث هذا الانقلاب، أو هذا التفرق والتخاصم المذهبي..، إلا ما حذرت منه الآيات القرآنية، من التفرق في الدين، والانقلاب على الأعقاب..، ثم ما حملته لنا "منظومة التواصل المعرفي" من وقائع تاريخية، تؤكد حدوث ذلك.

فهل فكرت يوما لماذا لم ينقسم صحابة رسول الله إلى فرق مختلفة، فهذا سني وذاك شيعي، وهذا معتزلي، وآخر خارجي..، ثم عند أهل السنة: هذا حنفي، وآخر شافعي.... وهكذا باقي الفرق المختلفة؟!

ولماذا تمسك المسلمون بكل هذه المذاهب المختلفة، على مر العصور، والتي لا تخفى مأساتها على ذي بصيرة؟!

لقد ظهرت فتنة [الآبائية] جلية، في تقاتل المسلمين بعد سنوات قليلة من وفاة رسول الله محمد، عليه السلام، وتفرقهم إلى فرق دينية مذهبية مختلفة، وإن بدا لبعض الناس أن الصراع كان سياسيا. ولكن اللافت للنظر هو تواصل هذه الفتنة وتدعيمها على مر العصور، وإلى يومنا هذا، حتى أصبح يصعب على أتباع هذه الفرق، قبول أية دعوة تصرفهم عن تقديس تراث مذاهبهم ومروياته، بل ولا يجدون في أنفسهم حرجا يمنعهم من الدفاع عنه، والموت في سبيله!!

لذلك سيبقى السؤال قائما: لماذا امتدت فتنة [الآبائية] وتواصلت حلقاتها بين أتباع رسول الله محمد، عليه السلام، وظلت قائمة بينهم إلى يومنا هذا؟!

والجواب: لأن المسلمين تخلوا عن مسئوليتهم في الشهادة على العالمين.

مسئولية الشهادة على الناس

إن الشهادة على الناس تقوم على العلم والبرهان والأدلة القطعية..، وذلك كله يجب أن يكون معاصرا للحدث، وإلا فلا قيمة لهذه الشهادة.

تدبر قول الله تعالى:

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ [143] البقرة

إن الأمة الوسط، هي أمة الحق والعدل، التي تضع الموازين والقيم والأعمال الصالحة بين الناس، لتأخذ بأيدهم نحو مستقبل أفضل، ونحو تنمية مستدامة قاعدتها لا ضرر ولا ضرار. وإذا كانت هذه هي مكانة الأمة الإسلامية، عند الله تعالى، فما بالنا بمكانة علمائها؟!

إن صفة "الوسطية" التي وصف الله تعالى بها هذه الأمة، قيمة علمية وسلوك حضاري، الأمر الذي لا يتحقق إلا بإرادة أفرادها، واستقامتهم على صراط الله المستقيم.

ولكن.. أين هي هذه الأمة اليوم، وأين هم هؤلاء العلماء، الذين يقفون صفا واحدا بتخصصاتهم العلمية المختلفة..، يقيمون الشهادة على الناس، سلوكا حضاريا، بلا تفريط ولا إفراط؟!

لذلك فإن القول بـ "إجماع الأمة"، الذي تتحدث عنه منابر الدعوة المذهبية المختلفة يقصد به إجماع أتباع فرقة أو مذهب معين، وليس إجماع كافة المسلمين، إلا إذا كان المقصود هو ما اتفق عليه أتباع كافة الفرق والمذاهب المختلفة..، كاتفاقهم على حجية كتاب الله، وعلى أعداد الصلوات، وعدد الركعات، وعلى القيام والركوع والسجود.

إن هذا الإجماع، المنقول عبر "منظومة التواصل المعرفي"، يعد حجة في دين الله تعالى، بشرط أن يكون قائما على نص قرآني يأمر بموضوعه.

إذن فسياق الآية، لا يخاطب فرقا أو مذاهب مختلفة، متصارعة..، وإنما يخاطب كيان أمة، تحمّل كل فرد فيها مسئوليته كاملة أمام الله تعالى.

أمة اعتصمت بكتاب ربها، واتبعت تفعيل رسوله لآياته، هذا التفعيل الذي تعلمه المسلمون بالتقليد والمحاكاة عبر "منظومة التواصل المعرفي"، والقائم بين المسلمين ما بقي النص القرآني نفسه.

وإذا كان رسول الله، عليه السلام، قد شهد بذاته على معاصريه، ثم بعد وفاته شهد صحبه الكرام على معاصريهم، وهكذا، تتحرك الشهادة على مر العصور..، إذن فمهمة الأمة المسلمة مهمة [وسط]، بين عصر الرسالة، الذي تحملت عنه مسئولية الشهادة... وبين كافة العصور، وإلى يوم الدين، حيث دورها الحقيق في إقامة هذه الشهادة بين الناس.

وبما أن رسالة الله الخاتمة رسالة عالمية، فإن التقصير في أداء هذه المهمة [الوسط] يعتبر تقصيرا في أداء الشهادة، بل ضياعا للرسالة نفسها، وذلك لعدم وصول نور هدايتها للعالمين.

وإذا كان تقصير المسلمين وعلمائهم، في تحمل مسئولية هذه الشهادة، أمة واحدة يعتبر مخالفة لسبيل رسول الله، لأنهم هم الوسطاء، وبدونهم ما كان لدين الله أن ينتشر بين الناس..، إذن فإن أول عمل يجب أن يشغل أذهان المسلمين كافة، هو التوبة والإنابة إلى الله تعالى، والاستغفار..، من هذا التقصير، ومن هذه المخالفة لـ "السنة النبوية" الكبرى، سنة أداء الشهادة على العالمين، التي هي امتداد لمهمة رسول الله الذي يدّعون تمسكهم بسنته:

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ [78] الحج

تدبر قول الله تعالى: "هُوَ اجْتَبَاكُمْ"، والاجتباء: الاصطفاء، أي هو اختاركم لتحمل مسئولية الشهادة على الناس: "لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ".

وإذا كان اتباع "السنة النبوية" يعني العمل بما كان عليه رسول الله وصحبه الكرام في عصر الرسالة، فأين تمسك المسلمين بهذه "السنة النبوية"، سنة إقامة "الأمة الوسط" التي تتحمل مسئوليتها في الشهادة على الناس؟!

فهل يعقل أن يحصر علماء المسلمين اتباع "السنة النبوية" في دائرة اتباع الأحاديث التي نسبها الرواة إلى رسول الله، والتي يعترف معظمهم أنها ظنية الثبوت..، ثم يكفرون منكرها، ويسفكون دماء بعضهم بسببها..، بدعوى إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة..، هل يعقل أن يكون هذا هو أكبر همهم..، دون الالتفات إلى ما هو أخطر من ذلك، بل إلى الدين نفسه، وهو ضياع أمتهم [الوسط]؟!

إذن فمن المسئول عن تخلي المسلمين عن [الوسطية] والشهادة على العالمين؟!

ولن تنفع علماء المسلمين، مقولة أن "المؤامرة على الإسلام هي السبب"، ولن ينفعهم الركون إلى مسألة تعهد الله تعالى بحفظ كتابه..، لأنه مع إيماننا اليقيني بحفظ الله لكتابه، فإننا نؤمن في نفس الوقت أن هذا الحفظ كان في اللوح المحفوظ، قبل أن ينزل القرآن على قلب رسول الله محمد، عليه السلام.

إذن فما أهمية حفظ الله تعالى لذكره الحكيم بعد نزوله، إن لم يشهد العالم، تفعيل المسلمين لآياته، لإقامة الدليل والبرهان على أنه "الآية" الدالة على صدق الله فيما أنزل وصدق رسوله فيما بلغ؟!

لقد تعهد الله بحفظ ذكره الحكيم، لا ليكون آيات تحفظ في الصدور، أو تعلق على الجدران، أو توضع على المكاتب، أو تقرأ في المناسبات..، في الوقت الذي يعيش فيه العالم بعيدا عن هداية القرآن، وفاعلية آيته، بسبب تقصير المسلمين في أداء مهمتهم في الشهادة على الناس، والأخذ بأيديهم إلى صراط ربهم المستقيم.

كما أنه لن ينفع المسلمين رفع رايات "الخيرية"، و"الوسطية"..، وأنهم حملة مصابيح الهدى..، وهم يقفون متفرجين، فرحين بمنابرهم المذهبية، المحلية والفضائية يخاطبون أنفسهم من داخل بيوتهم، لا علاقة لهم بما يحدث من حولهم!!

والحقيقة أن السبب وراء هذا الفرح، وهذه السعادة..، أنهم ينتظرون قرونا من الزمان وهم على حالهم هذه من التفرق والتخلف..، بعثة المهدي، الذي سيحمل عنهم مسئولية الشهادة على الناس، وإخراج العالم من ظلماته، نيابة عنهم!!

فهل هذا هو الفهم الواعي، لمعنى "الشهادة على الناس"، الذي جاءت الآية الكريمة تحدده تحديدا محكما لا غموض فيه؟!

هل "الشهادة على الناس مسئولية فرقة، أو مذهب من مذاهبها..، هذه الفرق التي تتصارع على حقيقة المهدي، وتنتظره ليتحمل المسئولية أمام الله تعالى نيابة عنها؟! أم هي شهادة المسلمين كافة، وهم أمة واحدة؟! فتدبر قوله تعالى:

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ [110] آل عمران

والغريب، أنه مع ضياع هذه "الأمة الوسط"، وتفرق المسلمين إلى مذاهب شتى نجد أن علماءهم لا يتورعون عن إصدار أحكام الردة والتكفير على المخالفين لهم في المذهب، بدعوى مخالفة ما هو معلوم من الدين بالضرورة!! فإذا الذي يدّعون أنه معلوم من الدين بالضرورة مسألة خلافية، إن لم يحدث الخلاف حولها بين مذاهب الفرقة الواحدة، فستجده قائما على أشده بين الفرق المختلفة!!

لقد تغيرت الأدوار، فبعد أن كان المسلمون، في يوم من الأيام، في موقع الشهادة على الناس، أصبح الناس اليوم هم الشهداء عليهم، على تفرقهم وتخاصمهم وتقاتلهم!!

فلماذا لا يترك علماء الفرق والمذاهب المختلفة منابرهم المذهبية المفرقة للمسلمين ويجتمعون على "السنة النبوية" الكبرى، سنة "الشهادة على الناس"، مع بقاء منابرهم كما هي، وتغيير توجهها الفكري؟! فهل يمكن أن يحدث هذا، في يوم من الأيام؟!

الحقيقة أننا أمام عقبة وإشكال عقدي خطير، يدعي أن ما عليه علماء المسلمين اليوم، بمنابرهم المذهبية المختلفة، من تفرق وتخاصم وتقاتل..، هو إرادة الله التي لا سبيل للإنسان إلى تغييرها، والله لا يسأل عما يفعل، فإذا أراد للمسلمين أن ينهضوا من كبوتهم فعل، فهو قادر، لأنه القائل عز وجل:

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [40] النحل

أقول: لقد اقتضت مشيئة الله أن يخلق الإنسان حرا، يختار بإرادته بين الحق والباطل، بين الهدى والضلال، وأن يزوده بآليات التدبر والتفكر والتعقل..، التي تعينه على ذلك، ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة، ساجدة، مسبحة، كسائر المخلوقات.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ [118] إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [119] هود

فهل أراد الله تعالى أن يكون الناس فرقا ومذاهب مختلفة، فكانوا كما أراد سبحانه ثم يشمل فريقا منهم برحمته، ويحرم فريقا، ثم يقول تعالى: "وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ"؟!

وهل يعقل أن يجعل الله تعالى الناس بين كافر ومسلم، ثم يعذب الكافرين ويرحم المسلمين ثم يقول: "وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ"؟!

إن تكريم الإنسان بآليات التدبر والتفكر والتعقل والنظر..، وتفضيله على كثير من المخلوقات، جعله مميزا بسنة الاختيار والاختلاف، اللتين قامت عليهما حضارة الأمم وتقدمها. ولكن هذا كله في إطار المهمة الأساس التي خلق الله تعالى الناس لأدائها:

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ [56] الذاريات

لذلك أرسل الله الرسل لهداية الناس إلى صراط ربهم المستقيم، صراط العبودية الحقة وأمرهم بإقامة الدين، وعدم التفرق فيه، فقال تعالى:

شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ [13] الشورى

إذن فيستحيل أن يخلق الله تعالى الناس فرقا ومذاهب دينية مختلفة، ثم يتوعد المختلفين بجهنم!! وهل يعقل أن يأمرهم بألا يتفرقوا في الدين، وهو سبحانه قد خلقهم أصلا فرقا ومذاهب مختلفة!!

إننا يجب أن نفرق بين علم الله تعالى وإرادته، وبين إرادة الله تعالى ومشيئته.

إن الله تعالى يعلم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون. وهذه قضية لا علاقة لنا بها إلا بالإيمان والتسليم.

والله تعالى لا يريد، ولا يرضى، لعباده الكفر ولا المعصية، ولا يرضى لعباده الاختلاف والتفرق في الدين. وهذا أصل من الأصول الإيمانية التي يجب أن يقيم عليها المسلم إسلامه، فلا يعقل أن يخلق الله فريقا من الناس أصلا كفارا!!

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [7] الزمر

تبقى مسألة المشيئة، وهذه فيها تفصيل:

إن مشيئة الله تعالى مطلقة، فلو شاء تعالى لهدى الناس جميعا، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، وإنما شاء أن يختار الإنسان دينه بإرداته.

لذلك شاء تعالى أن يكون هناك طريق للهدى، وطريق للضلال، شاء أن يكون هناك طريق للإسلام، وطريق للكفر.

فمن اختار طريق الهدى، فهو لم يخرج عن مشيئة الله، والله تعالى لم يجبره على اختيار طريق الهدى. ومن اختار طريق الضلال، فهو لم يخرج أيضا عن مشيئة الله والله تعالى لم يجبره على اختيار طريق الضلال.

فالله تعالى لم يخلق الناس أصلا مختلفين في الدين، وإنما خلقهم أحرارا ليختاروا بين الحق والباطل، لذلك "وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ" وفق قانون الاختيار:

فمن اختار الحق فقد نالته رحمة الله تعالى: "إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ".

والأصل أن الله خلقهم للرحمة: "وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ".

ومن اختار الباطل، فقد ناله عذاب الله: "وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ".

وإذا كان كثير من علماء ودعاة المسلمين، على مستوى الفرق والمذاهب المختلفة قد فرطوا في المحافظة على وحدة أمتهم، بدعوى أنها إرادة الله، وهكذا وجدوا آباءهم يفعلون..، فمن الذي سيوقظهم من سباتهم، وينهض بهم من كبوتهم، إلا أنفسهم؟!

إن المسلمين إذا أرادوا انتزاع أنفسهم من منظومة [الآبائية] المذهبية، ومن التفرق في الدين، وعادوا بأنفسهم إلى عصر الرسالة، حيث الأمة الواحدة، التي لا تعرف إلا رسولا واحدا، وكتابا إلهيا واحدا..، فإن الله تعالى سيغير حالهم الذي هم عليه اليوم ويخرجهم من ظلمات التفرق والتقاتل والتخاصم..، إلى نور الوحدة والحب والتآلف ويعيش كل منهم في مجتمعه آمنا معافى.

فماذا فعل علماء ودعاة الفرق والمذاهب المختلفة لإنهاء أزمة التفرق في الدين التي حذرهم الله تعالى من الوقوع فيها، والقائمة بينهم منذ عصر الفتن الكبرى إلى يومنا هذا؟! ألم يقرءوا قول الله تعالى مخاطبا رسوله محمدا، ومحذرا المؤمنين من التفرق في الدين:

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ [31] مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [32] الروم

إن الناظر في أحوال معظم علماء ودعاة الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة ومدى انتشار وشهرة منابرهم الدعوية، المحلية والفضائية..، إذا قرأ القرآن، وتدبر آياته، ووقف على حقيقة المسئولية التي كلف الله بها هؤلاء العلماء، يشعر بضآلة وتخلف هذه المنابر عن مسئولية الشهادة على الناس، بل وعن ركب الحضارة العالمية الذي وضع الله تعالى مسئولية قيادته في أعناق المسلمين!!

إن المتابع الجيد لثقافة هذه المنابر الدينية، ومدى تأثيرها على العامة من المسلمين ومدى ارتباط المسلمين بها..، إذا قرأ القرآن، ووقف على مسئولية كل مسلم في تفعيل نصوصه سلوكا حضاريا تنمويا، يثبت للعالم أجمع كيف أن رسوله محمدا، عليه السلام جاء رحمة للعالمين..، إن فعل ذلك، يشعر بأن هذه المنابر المذهبية تعمل من منطلق إقامة الشهادة على أتباعها من خلال تراثها الديني التخاصمي المفرق للمسلمين في الوقت الذي جاءت فيه "الآية القرآنية" لتعمل من منطلق الشهادة على العالمين، من منطلق الوقوف على فقهها القرآني المعاصر، والمتجدد العطاء على مر العصور.

إن ما حدث من تفرق وتخاصم بين المسلمين، بسبب أحداث الفتن الكبرى التي مزقت كيان الأمة، جعل المسلمين ينتمون إلى فرق ومذاهب مختلفة بإرادتهم، يعيشون في كيانات مستقلة، لكل فرقة مؤسساتها الدينية الخاصة بها، ومرجعياتها الخاصة بمذاهبها المختلفة، وبمنابرها الدعوية، الأمر الذي يحتاج إلى فهم واع، لتحذير الله المسلمين من الوقوع في فتنة "التفرق في الدين"، حتى يغيروا ما بأنفسهم، للوصول إلى الأمة [الوسط] القادرة على تحمل مسئولية الشهادة على الناس على خير وجه.

القرآن يحذر من الفتنة

لقد كان إرسال الله تعالى لرسله، ضرورة شرعية، لتذكير الناس بضرورة تفعيل فطرتهم الإيمانية، وآليات عمل قلوبهم، للوقوف على دلائل الوحدانية، في الآفاق وفي أنفسهم، وتفاعلها مع المعارف، التي تنقلها لهم "منظومة التواصل المعرفي" حسب إمكانات وأدوات كل عصر.

لقد جاء الرسل لتعليم الناس كيف يقيمون حجية الدين الإلهي، واجب الاتباع، في مواجهة فتنة [الآبائية]، وإغواء الشيطان وهوى النفس وتحمل مسئوليتهم الإيمانية أمام الله تعالى عند بلوغهم النكاح واكتمال رشدهم.

وجاءت الرسالة الإلهية الخاتمة، تتواصل مع المعارف السابقة، وتحمل للناس محصلة تفاعل الرسالات الإلهية، لأخذ العبرة، والتحذير من الوقوع فيما وقع فيه أتباع الرسل السابقين، من تفرق في الدين، وتبديل وتحريف لرسالاتهم.

جاءت الرسالة الخاتمة، "آية قرآنية" عالمية، وفرقانا يُعين الناس على الاهتداء إلى صراط ربهم المستقيم، بعد أن وصل الإنسان إلى مرحلة من النضج الفكري، تمكنه من الإيمان بصدق الله فيما أنزل، وصدق رسوله فيما بلغ، عن طريق إثبات حجية هذه "الآية القرآنية"، بعد أن انتهى عصر الآيات الحسية، التي لا تقوم حجيتها إلا على من شاهدها، وأدرك فاعليتها.

جاءت "الآية القرآنية"، توقظ الناس من سبات الاتباع الأعمى، وتأمرهم بإعادة النظر في تدينهم الوراثي، للوقوف على مدى مطابقته لميثاق الفطرة، ولدعوة الرسل وللحجج والبراهين الدالة على الوحدانية التي حملتها آيات الآفاق والأنفس للناس جميعا.

لقد جاءت "الآية القرآنية" بمثابة إعلان عالمي، عن بداية عصر جديد، تقوم فيه آليات التدبر والتفكر والتعقل والنظر..، بالدور الأساس في التمييز بين الحق والباطل بين الآية الإلهية والرواية البشرية، فلم يعد هناك مكان، في دين الله تعالى، لوسائل إدراك معطلة، أو مشلولة..، تتخذ الموروث دينا مقدسا.

وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً [36] الإسراء

فإذا علمنا أن الشيطان قد أخذ على نفسه العهد أن يغوي الناس أجمعين، "إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ"، فلنعلم أن أول باب من أبواب هذا الإغواء كان باب تغييب آليات عمل القلب، ليسهل عليه قيادة أتباعه إلى افتراء الكذب على الله ورسله، وتزيين الباطل للناس على أنه الحق.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ [170] البقرة

وإذا كانت هذه هي سنة الإغواء الشيطاني، التي حذر الله تعالى بني آدم من اتباعها، حتى لا تتواصل فتنة [الآبائية] فيضل الناس صراط ربهم المستقيم...

وإذا كان الناس يخرجون من رحم أمهاتهم أحرارا، ليدخلوا منظومة [الآبائية] أسرى ملل ومذاهب وشرائع آبائهم..، فهل يحل لمسلم، قد شرفه الله بوسائل إدراك حية وبآليات للتدبر والتفكر والتعقل والنظر..، تعينه على تحقيق مهمة استخلافه في الأرض على خير وجه..، هل يحل له أن يتخلى عن هذا الشرف السامي، ويعيش حياته عضوا في منظومة [الآبائية]، تابعا مقلدا..، لا يتدبر ولا يفكر، ولا يعقل، ولا ينظر في ميراث آبائه..، فيظل أسير مذاهبهم، طوال حياته؟!

ألم يقص الله تعالى القصص كي نأخذ العبرة من انحراف أتباع الرسل السابقين الذين فتنهم الشيطان، فغيروا وبدلوا وحرفوا رسالات ربهم، وتفرقوا وتقاتلوا، ووقعوا في فتنة [الآبائية]؟!

ألم تتواصل فتنة [الآبائية] لتشمل أيضا أتباع رسول الله محمد، عليه السلام وبصورة ما كان الشيطان يحلم أن يحققها، مع خير أمة أخرجت للناس، الذين أسند الله تعالى إليهم مهمة "الشهادة على العالمين" إلى يوم الدين؟!

ألم ينقسم المسلمون بعد وفاة رسول الله، عليه السلام، إلى فرق: سني، وشيعي ومعتزلي، وإباضي..، ثم إلى مذاهب مختلفة، داخل الفرقة الواحدة؟!

في الحقيقة، إنني لم أكن أريد فتح ملف هذه "الفتنة الكبرى"، لولا أهميته في هذه الدراسة، وتوافر الشواهد التي تجعلني على قناعة بحدوثها، وبالأخص ما يتعلق منها بفتنة "التفرق في الدين".

ومن هذه الشواهد:

أولا: الآية القرآنية التي حذرت أتباع رسول الله محمد، عليه السلام، من الانقلاب على الأعقاب إذا قتل الرسول أو مات، والتي سيأتي ذكرها بعد.

لقد مات رسول الله، ولم يقتل، حسب ما حملته لنا "منظومة التواصل المعرفي" من أخبار، ما يجعلني على قناعة بأن هذه الآية تتبئ بالمستقبل، وما سيحدث في صفوف المسلمين من انقلاب، بعد وفاة رسول الله، عليه السلام.

لقد ابتلى الله تعالى الجيل الأول من المؤمنين، الذين صاحبوا رسول الله في دعوته وجهاده، ليبين للناس أن الآية الدالة على صدق رسوله، قد جاءت "آية قرآنية" حتى تستمر فاعليتها بعد وفاة رسول الله.

ولقد حذر الله تعالى المسلمين من الانقلاب على الأعقاب، في سياق آيات تتحدث عن الجهاد، حيث يقول الله تعالى في سورة آل عمران:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [142]
وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْن الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ [143]

فإذا كان الجهاد والقتال في سبيل الله جزءا من فاعلية الرسالة العالمية الخاتمة، فلا يعقل أن ترتبط هذه الفاعلية بشخص رسول الله، عليه السلام، وإلا لسقط الجهاد عن كاهل المسلمين بموته، ولتوقفت فاعلية "آيته القرآنية".

فتدبر ماذا قال الله تعالى بعدها:

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ [144] آل عمران

لقد كان من الضروري أن يلتحق الجيل الأول من المسلمين بمدرسة التربية والتمحيص والابتلاء، فهم اللبنة الأولى لبناء خير أمة أخرجت للناس.

لقد عاش هذا الجيل عصر التنزيل واكتمال الدين، لذلك كان ارتباطهم بشخص رسول الله ارتباط النفس بالجسد، فلم يكونوا يتخيلون، وهم في هذه المرحلة المهمة من التربية، أن يغيب عنهم رسول الله، عليه السلام.

لقد تصور بعضهم، أن قتل أو موت الرسول يعني ضياع الدين، وهذا ما استغله الشيطان ليقوم بدوره في إشاعة خبر مقتل رسول الله، في هذه المعركة، ليجعل الله تعالى ذلك اختبارا وابتلاء لتمحيصهم.

ونلاحظ استخدام جملة "انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ" للتعبير عن شدة اللوم للمسلمين على ما حدث منهم، في هذه المعركة، مع وجود مواقف مماثلة، حدث فيها تولٍّ وتقصير من المسلمين، ولم يوجه إليهم هذا اللوم الشديد. ومن هذه المواقف، يوم حنين:

لَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ [25] التوبة

لقد أيد الله تعالى المؤمنين في هذه المعركة بإنزال السكينة، وبالملائكة، وتاب على من علم سبحانه أنه يستحق أن تقبل توبته.

ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ [26] ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [27] التوبة

ومما يؤكد اختلاف طبيعة التولي في المعركتين، ما يلي:

ففي المعركة الأولى، قد تحدث سياقها عن "الانقلاب على الأعقاب"، وكان وراء ذلك طائفة أرادت أن تعود بالمسلمين إلى ما كانوا عليه في الجاهلية.

وقد ورد هذا المعنى في سياق الحديث عن هذا الانقلاب في قوله تعالى:

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنْ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [154] آل عمران

فتدبر قوله تعالى: "يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ".

وقولهم: "لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا"!!

إذن فالقضية لا تتعلق فقط بتولي الأجساد عن القتال، وإنما الأساس فيها تولي القلوب عن دين الله تعالى.

أما في المعركة الثانية، فقد جاء السياق القرآني يخاطب المؤمنين جميعا، بمن فيهم رسول الله: "ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ"، ولم يشر إلى مخالفات تتعلق بملة التوحيد وظن الجاهلية!!

وهذا يبين أن شائعة قتل الرسول، كانت فتنة لضعاف الإيمان، لإحساسهم بضياع الدين، بموت الرسول، وكانت فرصة للمنافقين لإشعال نار الحرب النفسية!!

ولأنها كانت مرحلة تربية وتمحيص، وابتلاء، يُعذر فيها من أخطأ، فقد عفا الله تعالى عن الذين استزلهم الشيطان بما كسبوا:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمْ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ [155] آل عمران

ومن الملاحظ أن استخدام القرآن الحكيم لكلمة "الانقلاب"، في المعركة الأولى وجعله جزاء للشرط، الذي هو موت الرسول أو قتله، يبين أن لوم الله المسلمين لم يكن في المقام الأول، بسبب التولي عن الزحف، وإنما بسبب التولي عن دين الله تعالى في حال موت الرسول أو قتله!!

ذلك أن كلمة "انقلاب" تعنى الرجوع إلى الوراء، وهو تعبير أكثر إيحاء، وتصويرا لبيان شدة اللوم الذي وجهه الله تعالى للمنقلبين، وكأنهم انقلبوا إلى حالتهم التي كانوا عليها قبل الإسلام: "انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ"!!

ثانيا: الارتباط الوثيق بين ما حدث من تفرق المسلمين، بعد وفاة رسول الله، إلى مذاهب دينية مختلفة، ظهرت هياكلها بوضوح بعد أحداث الفتن الكبرى..، وبين عديد من الآيات القرآنية، التي جاءت تحذر المسلمين، أتباع رسول الله محمد، من التفرق في الدين، واتباع مصادر تشريعية، ما أنزل الله تعالى بها من سلطان.

فتدبر هذه الآيات التالية، التي لا تحتاج إلى تعليق:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [30] مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ [31] مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [32] الروم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [102] وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [103]

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [104] وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [105]

ثالثا: تواصل توابع هذه "الفتن الكبرى"، على مر العصور، وتدعيم منظومة [الآبائية] المذهبية لها..، إلى يومنا هذا.

والسؤال: لماذا استمرت توابع أحداث "الفتن الكبرى" إلى يومنا هذا، وظل المسلمون على حالهم من التفرق والتخاصم والتقاتل..، كل حزب بما لديه من تراث ديني فرح؟! ولماذا تحولت أحاديث رسول الله، بعد وفاته، إلى مرويات، إن صحت عند فريق، لم تصح عند آخر، وقد يراها ثالث أنها موضوعة؟!

والجواب: إنه بعد وفاة الرسل، يقوم الشيطان بدوره في إغواء الأبناء وصدهم عن صراط ربهم المستقيم، وعن إقامة الدين الحق، وتزيين التفرق فيه. تساعده في ذلك منظومة [الآبائية] التي تعمل على تدعيم أصول الفُرقة والمذهبية وتمسك الأبناء بميراث آبائهم الديني، والقتال للدفاع عنه.

لقد علم الشيطان أن الله تعالى اصطفى أمة رسول الله محمد، عليه السلام، لحمل مسئولية الشهادة على الناس، وتفعيل آيته القرآنية، متجددة العطاء إلى يوم الدين.

كما علم الشيطان أن "الخيرية" التي وصف الله بها هذه الأمة، ليست ادعاء، ولا كلمة تقال في المؤتمرات والمناسبات، وإنما هي منهج حضاري وبرنامج تنموي، يأخذ بأيدي الناس إلى خيري الدنيا والآخرة..، وهذا كله يتعارض مع أهدافه الشيطانية.

أما الذي أسعد الشيطان، وحقق أمنيته..، فهو تفرق المسلمين رغم تحذير الله لهم من التفرق في الدين، ومن الوقوع في شراكه وإغوائه وفتنته..، الأمر الذي تخصص فيه الشيطان، ونجح في فتنة معظم أتباع الرسل السابقين عن طريقه، والذي يعلم أنه إذا نجح في فتنة فريق منهم، يكون قد نجح في فتنتهم جميعا!!

ومن الآيات التي حذرت المؤمنين من هذه الفتنة، قول الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [24] وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [25] وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [26] الأنفال

إن الفتنة الحقيقة، هي في الاختلاف في الدين، فبعد أن كان المسلمون أمة واحدة أصحاب كلمة واحدة، في الاستجابة لله وللرسول: "اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ"، يحدث بينهم اختلاف، وشقاق، فيتفرقون إلى مذاهب دينية مختلفة، فيختل نظام جماعتهم، وتنهار أمتهم. وهذه الفتنة إذا وقعت عمت الناس جميعا، الظالم منهم والصالح، وتكون نوعا من عذاب الله في الدنيا.

وليست الفتنة في اختلاف الآراء، والأفكار, والأفهام...، فهذه كلها من مقتضيات "سنة الاختيار" التي أقام الله تعالى عليها هذا الوجود البشري، والتي جاءت "الآية القرآنية" تحث الناس على اتخاذ الجانب البنّاء منها، في استلهام عطائها المتجدد على مر العصور.

لقد وضع الشيطان بذور الفتنة ورسول الله، عليه السلام، على فراش الموت واستمرت شجرتها تنمو حتى جنى المسلمون أولى ثمارها بقتلهم خليفتهم الثالث أمام أعينهم، ثم توالى جني الثمار إلى يومنا هذا، مرورا بأحداث الفتنة الكبرى المعروفة!!

هذه الفتن التي كان يستند المسلمون في دراستها إلى النصوص الدينية، لتعليل موقف سلفهم منها، كلٌ حسب توجهه العقدي والمذهبي، حتى جاء عصر التدوين، بعد قرن ونصف قرن من وفاة رسول الله، على أقل تقدير، فدوّنت كل فرقة، ودوّن كل مذهب من مذاهب الفرقة الواحدة، تراثهم الديني، الذي ما زال إلى يومنا هذا، تحمله منابر الدعوة الإسلامية، بصورها المختلفة، تمسكا وتدعيما للفُرقة والمذهبية!!

وعلى هذا الأساس أقمت قناعتي بأن القاعدة التي انطلقت منها كل الفتن التي قامت بين المسلمين كانت قاعدة دينية، يستند كل فريق فيها إلى نصوص دينية..، وهي مسألة "الخلاف حول الإمامة"، والتي تفرعت عنها كل الإشكالات المتعلقة بالخلاف حول إقامة دولة دينية، أو مدنية..، إلى يومنا هذا!!

فهل استوعب المسلمون الدرس، واتقوا الفتنة، التي ستصيبهم جميعا، خاصة وأن الآيات فيها إنباء بالمستقبل؟!

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [25]

لقد وقعوا في الفتنة، وحدث الانقلاب بعد موت رسول الله، وأصبح العالم الإسلامي "بعد الفتنة الكبرى" كيانات دينية مذهبية مغلقة، وضع أصولها وقواعدها أئمتها، وسار عليها الخلف، تمسكا بعضويتهم في منظومة [الآبائية].

لقد ارتبط تدين الأبناء بما وضعه الآباء من مذاهب فكرية وفقهية، جعلوها حاكمة على فاعلية "الآية القرآنية".

لقد عاش المسلمون داخل دوائر مذاهبهم، يتحدثون مع أنفسهم، ويتخاصمون مع أنفسهم، ويقتلون أنفسهم..، ويعيشون في واد، والعالم كله يعيش في واد آخر، ينظر إليهم كعالم متخلف..، يعيش في ذيل الحضارة، غائبا عن معارفها وتحدياتها؟!

فهل يحل للمسلمين أن يتخلوا عن مسئوليتهم في الشهادة على العالمين، ويظلوا على حالهم هذا، من التفرق والتخاصم والتخلف الحضاري، وهم يحملون "الآية القرآنية" التي بدونها لن يستطيعوا إثبات صدق نبوة رسولهم؟!

إن الآيات القرآنية، التي أشارت إلى حدوث مثل هذه "الفتن الكبرى"، هي قاعدة البيانات التي أقمت عليها قناعتي بفتح هذا الملف، الذي لا مفر من الاستعانة في معالجة موضوعاته، بأمهات كتب المؤرخين الأُول.

ولا ننسى أننا نتحدث عن فتنة [الآبائية]، وكي ف تواصلت حلقات الانحراف عن صراط الله المستقيم بعد وفاة الرسل، وأنه لو شاء الله أن يرسل رسولا بعد رسوله محمد عليه السلام، لذكر في رسالته الجديدة ما وقع من فتن كبرى بين أتباع رسوله محمد تماما كما ذكر ما وقع من انحراف أتباع عيسى عن صراط الله المستقيم.

يقول الله تعالى:

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ [116]

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [117] المائدة

فهل تعلم المسلمون، أتباع الفرق والمذاهب المختلفة، الدرس..، وأخذوا العبر والعظات من أحداث "الفتن الكبرى"، التي مزقت الصف المسلم؟!

تعالوا نتعرف على مقتطفات من هذه الأحداث، وكيف تناولها المؤرخون الأُول كل حسب رؤيته العقدية والمذهبية!!

ولقد تعمدت ألا أذكر المراجع، التي استقيت منها هذه المقتطفات، لأسباب أهمها:

1. أن الهدف من هذه الدراسة ليس مجرد عرض لوقائع وأحداث تاريخية عن موضوع "فتنة الآبائية"، وإلا لاحتجنا إلى عشرات الكتب في بيان ذلك، ولإثبات مراجع وهوامش هذه الدراسة.

2. عندما اتخذت "منظومة التواصل المعرفي" مرجعا مبينا لما أشار إليه القرآن من حدوث انقلاب في صفوف المسلمين، بعد وفاة رسول الله محمد، عليه السلام، كان ذلك لربط نصوص "الآية القرآنية" المعاصرة لنا، بما عليه المسلمون من انقسام إلى فرق ومذاهب مختلفة، يعيشون بداخلها اليوم، وقد وضعت بذورها ورسول الله على فراش الموت، ثم نمت شجرتها مع أحداث "الفتن الكبرى"، وظلت تنمو وتثمر تفرقا وتخاصما وتقاتلا..، إلى يومنا هذا!

3. عندما اعتمدت المؤرخين الأُول مصدرا معرفيا، لبيان أحداث هذه الفتن، كان ذلك بهدف أخذ العبر والعظات من أحداث التاريخ، كما أمر الله تعالى في كتابه، لذلك فإن معظم ما نقلته عنهم، غلبت عليه النظرة التحليلية النقدية للأحداث، وليس نقلا حرفيا وذلك لحث القارئ الكريم على الرجوع إلى الموضوع نفسه، ولا يكتفى بما أوردته فيه من إشارات..، فالقضية أكبر من أن يشار إلى وقائعها فقط!!

4. وعلى أساس ما سبق، ومن منطلق قناعتي بوجوب تفعيل نصوص "الآية القرآنية" في واقعنا المعاصر، مع أخذ العبر والعظات من أحداث التاريخ..، لبناء مستقبل أفضل يصبح فرض عين على كل مسلم، من وجهة نظري، أن يقف بنفسه على كيفية علاج المؤرخين لأحداث "الفتن الكبرى"، من زوايا الرؤى المذهبية المختلفة، ولا يكتفي بهذه المقتطفات، لأنها ليست في ذاتها هدفا رئيسا لما تسعى إليه هذه الدراسة.

5. إن أحداث "الفتن الكبرى" اشتهرت بحيث لا تخفى على معظم المسلمين، كما كانت قبل هذه الثورة "المعلوماتية" المذهلة، التي حملتها وسائل الإعلام، بمنابرها وآلياتها المختلفة، وعلى رأسها شبكة الإنترنت العالمية، التي يسرت للإنسان الحصول على الموضوع الذي يريد قراءته، في دقائق معدودة.

ومن المراجع المهمة التي اعتمدنا عليها، والموجودة على شبكة الإنترنت، ويمكن أن تكون بين يدي القارئ الكريم، في أي وقت شاء، كتاب "المؤرخون العرب والفتنة الكبرى"، للدكتور عدنان محمد ملحم، دار الطليعة، بيروت.

وقبل إلقاء الضوء على بعض أحداث "الفتنة الكبرى"، تعالوا نستعرض سريعا تاريخ وفاة أهم وأشهر [الأخباريين]، و[المؤرخين]، الذين نقلوا هذه الأحداث، للوقوف على المساحة الزمنية [غير الموثقة] بين مسرح هذه الأحداث وعصر [الإخباريين] من ناحية وكذلك بين عصري [الإخباريين] و[المؤرخين] من ناحية أخرى.

الأخباريون والمؤرخون

في البداية، لابد أن نُميّز بين فترتين زمنيتين، الأولى: فترة من شهدوا مسرح الأحداث [عصر الرسالة وعصر الخلافة الراشدة] وهؤلاء اصطلح علماء السلف على تسميتهم [الأخباريين]، وهم الذين أخذ المؤرخون الأُول عنهم أحداث التاريخ أو بـ [الرواة] وهم الذين أخذ عنهم [المحدثون] الأحاديث المنسوبة إلى النبي، عليه السلام. وهذه الفترة هي القرن الأول الهجري، تقريبا، ولم يعثر على مدونات كاملة موثقة لأصحابها، تصلح للتحقيق العلمي.

أما الفترة الثانية: فهي فترة عصر التدوين، والتي بدأت مع منتصف القرن الثاني الهجري، على أقل تقدير، وخلالها ظهر [المؤرخون]، و[المحدثون] الذين تفصلهم عن [الأخباريين]، و[الرواة] مساحة زمنية، لا تقل عن قرن آخر من الزمان!! ويعتمد توثيق أخبار ومرويات هذه الفترة، على ما إذا كانت هناك مخطوطات للرواة الأُول الذين اعتمد عليها [المؤرخون] و[المحدثون] في نقل مروياتهم.

والحقيقة أن العقبة التي ستقف أمامنا، عند إرادة الوقوف على مدى صحة مرويات التاريخ، أو الحديث، المنسوب إلى النبي..، هي هذه الفترة الأولى، غير الموثقة، من حلقات السند الروائي، التي تربط بين عصر الرواة والأخباريين، ومسرح الأحداث الذي نقلوا عنه مروياتهم، والتي يستحيل بدون مدونات ومخطوطات أصحابها الوقوف على حقيقة ما حدث حتى منتصف القرن الأول الهجري، على أقل تقدير!!

لقد كانت الأخبار والمرويات تتداولها الألسن شفاهة، ثم جاء عصر التدوين، فدونت بعد أن تُوفى أصحابها، ما وضع علماء السلف أمام إشكالات وعقبات إن لم يحسنوا الظن بالرواة الذين نقلوها، لسقطت مرويات الحديث، والتاريخ، كلها!!

وهذه الحلقة الأولى من حلقات "السند الروائي"، التي قامت على إحسان الظن بالموتى، هي التي أفقدت معظم المرويات حجيتها، باعتبارها نصوص شريعة واجبة الاتباع!! وهذه الحقيقة ليست غريبة على المحدثين، ولا على المؤرخين، فهم يعترفون بها في أمهات كتب تراث الفرق والمذاهب المختلفة!!

وسيتضح لنا جانب من هذه الحقيقة عند الوقوف على تاريخ وفاة أشهر الأخباريين والمؤرخين الأُول، ومقتطفات من سيرتهم الذاتية.

أولا: الأخباريون الأُول

ومن أشهر هؤلاء الأخباريين الأُول:

1. عروة بن الزبير بن العوام [ت93هـ]:

من فقهاء المدينة، ورواة الحديث، تأثر بوالده الزبير بن العوام في مسألة النزاع على الخلافة، الذي كان في طليعة الداعين إلى إعلان الحرب ضد عليّ بن أبي طالب وقتل في موقعة الجمل.

2. أبان بن عثمان بن عفان [ت105هـ]:

عمل سبع سنين واليا على المدينة لعبد الملك بن مروان. وكان من رواة الحديث.

3. وهب بن منبه [ت110 أو114هـ]:

عمل قاضيا على صنعاء، ولم يكن معتمدا في الحديث، وكان عالما في الإسرائيليات.

4. عاصم بن عمر بن قتادة [ت120هـ]:

تابعي، كان من رواة الحديث، أمره عمر بن عبد العزيز أن يجلس في المسجد الأموي بدمشق فيحدث الناس بالمغازي، ومناقب الصحابة.

5. شرحبيل بن سعد [ت123هـ]:

كان يجعل لمن لا سابقة له سابقة، فأسقطوا مغازيه وعلمه، لكن سفيان بن عيينة قال فيه: لم يكن أحد أعلم بالمغازي والبدريين منه**!!** وقد وثقه في الحديث يحيى بن معين وابن حبان، وخرّج له ابن حبان وابن خزيمة في صحيحيهما.

6. محمد بن مسلم بن شهاب الزهري [ت124هـ]:

كان من رواة الحديث، وكان حريصا على إرضاء التوجه السني العام الذي كان سائدا في عصر الدولة الأموية، استعمله يزيد بن عبد الملك على القضاء، ولكنه أمام مجون واستهتار الوليد بن يزيد [ت126هـ] دافع عن عليّ وشيعته، وأدان عثمان والسيدة عائشة، وطلحة والزبير. وكمعظم كتب الأخباريين الأُول، لم تحفظ كتب الزهري، ولكن حفظت أجزاء من كتاب له يسمى "المغازي"، في مصنف عبد الرزاق الصنعاني.

7. يزيد بن رومان الأسدي المدني [ت130هـ]:

حفظت أجزاء من كتاب له يسمى "المغازي"، في طبقات ابن سعد، وجل اعتماده على عروة والزهري، وروى عنه ابن إسحاق.

8. أبو الأسود الأسدي [ت131هـ]:

حفظت أجزاء من كتاب له يسمى "المغازي"، في "الإصابة" لابن حجر، ومعظم رواياته عن عروة بن الزبير.

9. عبد الله بن أبي بكر بن حزم [ت135هـ]:

صاحب كتاب "المغازي"، أخذ عن أبيه وعروة بن الزبير، وحدث عنه الزهري وابن إسحاق.

10. داود بن الحصين الأموي [ت135هـ]:

تلميذ عكرمة، حدث عنه ابن إسحاق، يتبع الخوارج في مذهبه.

11. موسى بن عقبة [ت141هـ]:

صاحب كتاب "المغازي"، وكان من رواة الحديث، ونقل عن الزهري رواياته.

12. أبان بن تغلب بن رباح [ت141 هـ]:

كان من وجوه قرّاء الشيعة، فقيها لغويا، وله كتاب في تفسير غريب القرآن. أخرج له أهل السنة في سننهم نحو مئة حديث، وقد وثّقه أحمد، ويحيى بن معين، وأبو حاتم الرازي، والنسائي، وابن عديّ، وابن حبّان. ذكر المؤرخون أن له في التاريخ: كتاب "صِفّين"، وكتاب "الجَمَل"، وكتاب "النهروان"..، وكلها غير موجودة!!

13. محمد بن السائب الكلبي الكوفي النسّابة [ت146هـ]:

من كبار الأخباريين الشيعة الأُول، متروك الحديث وليس بثقة، عند أهل السنة ولكنه عندهم رأس في الأنساب.

14. عوانة بن الحكم الكلبي [ت147،158هـ]:

صاحب أول كتاب يحمل لفظة "التاريخ" بمعنى الكتاب الجامع للأحداث عبر السنين، وقد أسماه "كتاب التاريخ"، ثمّ أخذ عنه المؤرخون وأصحاب التراجم، بعد ذلك هذه اللفظة على نحو واسع. كان عثمانيا يضع الأخبار لبني أمية!! كثير الرواية عن التابعين، ولكنه قَلَّ أن روى حديثا مسندا!!

15. محمد بن إسحاق بن يسار [ت151،152هـ]:

صاحب كتاب "السيرة النبوية"، وهو أول كتاب يُحسن صاحبه ترتيب أحداث السيرة ولكن لم يصل كاملا!! كان من رواة الحديث، نقل زياد البكائي [ت183هـ] عنه أخبار السيرة، ثم نقل ابن هشام [ت182هـ] عن زياد هذه السيرة، بعد أن نقحها واختصرها ودفع منها ما شك فيه من الأخبار.

اتهمه بعض أهل الحديث بالزندقة وأنه أدخل في السيرة النبوية روايات منكرة منقطعة. وقد وثقه بعضهم!!

16. أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي الكوفي [ت157هـ]:

من أعاظم مؤرخي الشيعة الأُول. ضعفه أهل السنة في الحديث. دافع عن سياسة عليّ بن أبي طالب، وأدان مواقف أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير ومعاوية، وانتقد الأمويين بشكل حاد، واعتبر مقتل عثمان نتيجة حتمية لسياساته.

17. إبراهيم بن محمّد بن أبي يحيى المدني [ت184هـ]:

مؤرّخ شيعي، نُسبت إليه سائر كتب الواقدي [ت207هـ]!! صنف كتابا سماه الموطأ وهو أضعاف موطأ مالك. حدث عنه جماعة قليلة منهم الشافعي، الذي لم يوثقه، ولم يتهمه بالكذب.

18. سيف بن عمر [ت 170،180،200هـ]:

أخباري، اتهمه أئمة النقد بوضع الأحاديث، ومن ثم تركوا مروياته، ومع ذلك اعتَمَد عليه كثير من المؤرخين [كالطبري وابن كثير] وأصحاب كتب الحديث [كالذهبي، وابن حجر، وابن عساكر] واعتبروه أخباريا عارفا، وإماما في التاريخ والنقول عنه في أخبار الردة والفتوح كثيرة!!

وقد صحح كثير من المحدثين بعض أسماء رواتهم، وبعض الأحداث التاريخية استنادا إلى مروياته، إلا أن كثيرا منهم لم يرووا عنه الأحاديث، واعتبره ابن حبان [ت354هـ] "زنديقا". والسؤال: لماذا صحت، عند المحدثين، مرويات "سيف بن عمر" في التاريخ، ولم تصح عنه في الحديث؟!

19. أبو اليقظان النسابة لقبه سحيم واسمه عامر بن حفص [ت190هـ]:

لم يعتن بالحديث رغم أن شيوخه من كبار المحدثين الذين ذكرهم ضمن مصادره!! عاش بالبصرة، وميوله أموية، ويخالف غلاة الشيعة.

20. أبان بن عثمان الأحمر البجلي [ت200،170هـ]:

من كبار الفقهاء أصحاب الإمام الصادق، أدرك الإمام الكاظم وحدّث عنه قليلاً. ألّف كتاباً كبيراً في التاريخ يعتبره بعضهم أول كتاب يستوعب عصور ما قبل الإسلام مع السيرة النبويّة، وشيء من تاريخ الخلافة الأولى.

وكغيره من أوائل الأخباريين فإن كتابه هذا لا وجود له، أما أخباره فقد حُفظت في المصادر التي أخذت عنه كاليعقوبي والكافي.

21. هشام بن محمد بن السائب الكلبي الكوفي [ت204، 206هـ]:

من كبار الأخباريين الشيعة الأُول. جرحه أهل السنة في الحديث لاعتماده على مصادر تخدم توجهه المذهبي.

أثرت علاقاته الجيدة بالخلفاء العباسيين على إبراز دور بني العباس في دعم عليّ والوقوف إلى جانبه في صراعه مع السيدة عائشة، وطلحة والزبير، من جهة ومعاوية من جهة أخرى**!!**

انتقد الأمويين، واعتبرهم المسئولين عن الفتنة، وأنهم المغتصبون الحقيقيون لحق العلويين والعباسيين في الحكم.

22. محمد بن عمر بن واقد، أبو عبد الله الواقدي [ت207هـ]:

اتهم بالتشيع، وله كتاب في "المغازي"، عمل قاضيا لهارون الرشيد وللمأمون. اعتمد في رواياته على موسى بن عقبة، ومعمر بن راشد، وهما تلميذا الزهري.

نقل كثيرا من كتاب "السيرة لابن إسحاق" دون أن يذكر اسمه.

انفرد بروايات وأخبار وأحاديث غير معروفة، بلغ عددها عشرين، وقيل ثلاثين ألف حديث**!!**

تباينت آراء المحدثين في درجة توثيقه، إذ وثقه بعضهم وضعفه آخرون، واتهموه بالكذب وتقليب الأحاديث، واعتبروه "متروكا" لتشيعه**!!**

23. الهيثم بن عدي الطائي [ت 207 أو 209هـ]:

جرحه المحدثون لتساهله في الإسناد بما يخالف شروطهم، واتهموه "بالكذب" وقالوا عنه "متروك الحديث" و"سكتوا عنه".

قال عنه ابن المديني: الهيثم بن عدي أوثق عندي من الواقدي**!!**

24. أبو عبيدة معمر بن المثنى [ت 209هـ]:

كان شعوبيا يبغض العرب، ويذهب مذهب الخوارج!!

25. نصر بن مزاحم المنقري الكوفي [ت212هـ]:

من كبار الأخباريين الشيعة الأُول، اتهمه أهل السنة بالكذب واضطراب حديثه.

26. أبو الحسن علي بن محمد المدائني [ت225هـ]:

أحد رجال البصرة ورواتها المبرَّزين. وثقه يحيى بن معين [ت233هـ] في الحديث واعتبره عبد الله بن عدي [ت360هـ] ليس بالقوي، إلا أنه اعتبر حجة في التاريخ، حتى في الروايات التي لم يذكر لها إسناد!!

له كتب عن: مقتل عثمان، صفين، الخوارج، النهروان.

27. محمد بن سعد [ت230هـ]:

صاحب "الطبقات الكبرى"، وجد في طبقاته الخبر الضعيف، والمنقطع، والغريب والمرسل...، ومع ذلك عدّله علماء الجرح والتعديل!!

28. أبو زيد عمر بن شبة النميري [ت262هـ]:

له كتاب "أخبار البصرة"، تحدث فيه عن موقعة الجمل، ولم يبق من مؤلفاته الكثيرة سوى أخبار المدينة!! وثقه بعض المحدثين، كالدارقطني.

تعليق:

1. إن هناك قرنا من الزمان، على أقل تقدير، يفصل بين عصر تدوين أية مدونة من مدونات العلوم الإسلامية، وبين زمن حدوث ما احتوته من أخبار ومرويات..، إنه القرن الأول الهجري، فقد كانت تروى الأخبار التاريخية، والمرويات المنسوبة إلى رسول الله شفاهة، ولم يكن يشغل بال أحد من صحابة رسول الله، أن يدوّن "الحديث النبوي" أو أحداث "الفتن الكبرى"، في مرجع متكامل، وهم أولى الناس بهذا العمل، من حيث الضبط والعدالة.

لقد كانوا معاصرين للأحداث، ومنهم من تولى أمر خلافة المسلمين، وكان يجب أن يكون تدوين الحديث من أولويات عمله، إن كان من الدين الإلهي الواجب الاتباع!! ومن البدهي أن نسأل: إذا كانت هناك مدونات، لهذه العلوم الإسلامية، في القرن الأول فلماذا إذن لم تأخذ مكانها العلمي، الذي أخذته مدونات القرن الثالث الهجري؟!

2. لقد أجمع معظم المؤرخين، والمحققين، على أنه حتى نهاية القرن الثاني الهجري لم تكن هناك مصنفات كاملة في التاريخ الإسلامي، أو في الحديث..، فقد فقدت معظمها، ولم تصل منها إلا أجزاء، وكلها خاصة بالسير والمغازي.

فأبو مخنف مثلاً [ت157هـ] قيل إن له أكثر من 32 كتابا. وهشام الكلبي [ت206هـ] نحو 150 كتابا. والمدائني [ت225هـ] نحو 240 كتاباً.

وكلها في السيرة النبوية والمغازي والسقيفة والردّة، ومقتل عثمان، وموقعة الجمل وصفّين، والنهروان وأخبار معاوية...، وليس من بينها مصنفات في الحديث كالتي ظهرت في القرن الثالث الهجري..، فلماذا لم يدوّن علماء القرن الأول الهجري مصنفات كاملة في مختلف العلوم الإسلامية؟!

3. نلاحظ أن مسألة "التشيع"، التي اتهم بها بعض [الأخباريين]، قد خضعت لتعريفات ووجهات نظر علماء الجرح والتعديل، بحيث يمكنهم اتهام من يريدون تجريحه بـ "التشيع"، إن شاءوا!!

فمن فضل عليّ بن أبي طالب على عثمان، قالوا عنه: "متشيع".

ومن نال من بني أميّة [وعلى رأسهم معاوية] فهو "متشدّد في التشيّع".

ومن فضل عليّا على أبي بكر وعمر فهو "رافضي".

ومن نال من أبي بكر وعمر فهو "مغال في الرفض".

وبناءً على هذا التقسيم أدخلوا كثيرا من أهل العلم في التشيّع، لمجرّد تفضيلهم عليّ ابن أبي طالب، وقدحهم في بني أُميّة، مثل الطبري، والنسائي، والحاكم النيسابوري الذين اتهموا بالتشيع لهذا الاعتبار.

فهل يعقل أن يقيم الله تعالى دينه، وحجية نصوص شريعته، و"آيته القرآنية" العالمية الخالدة، على مرويات واجتهادات علماء السلف، ومدارسهم المذهبية المختلفة في الجرح والتعديل، والتصحيح والتضعيف؟!

ثانيا: المؤرخون الأُول

المؤرخون الأُول هم الذين نقلوا مرويات الأخباريين السابق ذكرهم، واكتفوا بالإشارة إلى مصادرها، مع تحليل أو نقد لها في بعض الأحيان.

وقد سجل أوائل وأشهر المؤرخين، أحداث الفتن الكبرى، برؤى مختلفة، ارتبطت بميولهم واتجاهاتهم الدينية المذهبية. ومن هؤلاء:

1. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري [ت274،276هـ]:

أكدت عديد من الدراسات أنه بمقارنة المصادر والروايات التي اعتمد عليها "ابن قتيبة" في مؤلفاته، مع الأسانيد المتفرقة التي وردت في كتاب "الإمامة والسياسة"، وجد تباين كبير بينهما، ما يؤيد القول بعدم صحة نسبة هذا الكتاب إليه.

وذهبت بعض الدراسات إلى أن هذا الكتاب، لمؤلف مجهول، عاش في أواسط القرن الثالث الهجري، وكان يهدف للدفاع عن شرعية الخلافة الإسلامية، بوجه عام بصرف النظر عن هوية ومذهب الخليفة، وهاجم الخارجين على الخلفاء، لذلك ذهب إلى تأييد الأمويين، والشيعة، والعباسيين..، على حد سواء!!

2. أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري [279هـ]:

كانت صلته بالخلفاء العباسيين قوية، وقد أثر ذلك على كتاباته، خاصة في ترجمته للعباس بن عبد المطلب [ت32هـ] حيث حشد عددا كبيرا من الروايات والأحاديث النبوية التي أشادت بفضله، وأبرزت مكانته عند رسول الله، عليه السلام. وقد ذكر حديثا، ينسبه إلى الرسول، يقول فيه لعمه العباس: "فيكم النبوة وفيكم الخلافة".

انتقد الأمويين، وفي مقدمتهم خليفة المسلمين عثمان بن عفان، وحشد روايات كثيرة تدين سياسته، وخروجه على سنة الرسول، وأكد أن مقتل عثمان يتحمل هو وزره لأنه نتيجة أعماله الخاطئة، وأن ليس من حق معاوية أن يخرج على خلافة عليّ بدعوى المطالبة بدم عثمان!!

اعتمد في روايات الفتنة على شيوخ يتراوح زمن وفاتهم بين [211 و262هـ].

وقد استخدم ألفاظا تدل على أنه أخذ أخباره مباشرة من [الأخباريين] الأُول، مع أنه أخذها من شيوخه، وذلك لإضفاء الثقة على معلوماته!!

ومن هذه الألفاظ، قوله: "قال الزهري" [ت124هـ]، "قال أبو مخنف" [ت157هـ] "قال هشام بن الكلبي" [ت204هـ]، " قال الواقدي" [ت207هـ]، "قال المدائني" [ت225هـ] والحقيقة أنه لم يأخذ رواياته عن هؤلاء [الأخباريين] لأنه لم يعاصرهم!!

وكان يأخذ من [الأخباريين] ما يوافق مذهبه، ويترك ما يخالفه:

ـ فلم يعتمد على روايات عوانة بن الحكم في مجال تطورات الفتنة زمن عثمان والصراع بين عليّ بن أبي طالب، والسيدة عائشة، وطلحة والزبير، مع أن لعوانة مصنفات تعالج هذه الفترة!! وربما يعود ذلك إلى دفاع هذه المصنفات عن سياسة عثمان وتأييدها له.

ـ لم يأخذ عن الواقدي أحداث الفتن، على الرغم من أن له كتابين عن الفتنة، هما الجمل وصفين، وأخذ عن المدائني وأبي مخنف!!

ـ لم يأخذ عن الهيثم بن عدي مروياته عن الفتن بسبب الاتهامات التي وجهت له. كما أظهرت مروياته عن الفتن تأييده لعلي في مواجهة معاوية والخوارج.

ـ لم يعتمد على مرويات المدائني التي تبنت وجهة نظر أهل البصرة في دعمهم السيدة عائشة وطلحة والزبير في معركة الجمل.

ـ انفرد بذكر استعداد الزهري للخروج مع زيد بن علي بن الحسين على ولاية الوليد بن يزيد [ت 126هـ].

ـ ذكر أن القتلى في معركة الجمل عشرون آلفا، وهم عند اليعقوبي ثلاثون ألفا وعند الطبري ستة آلاف!!

صنف البلاذري ستة كتب، فقد منها أربعة، ووصل منها كتابان هما: فتوح البلدان وكتاب أنساب الأشراف.

3. أحمد بن واضح بن يعقوب البغدادي [ت292هـ]:

من أعلام المؤرخين الشيعة في القرن الثالث الهجري، وكتابه في التاريخ من أهم مصادر الشيعة التاريخية. أخذ أخباره عن الفتنة بشكل رئيس من مصنفات الواقدي والمدائني، وأبي مخنف. انتقد سياسة عثمان، واعتبر الخروج على سلطته أمرا شرعيا وأن مقتله كان نهاية متوقعة. كما وصف حكم عثمان بأنه مؤامرة أموية لتجاوز أحقية العلويين بالخلافة.

اعتبر خروج أصحاب الجمل على خلافة عليّ مؤامرة شخصية، وأدان معاوية وصراعه مع عليّ، ووصفه بأنه صراع على "الملك"، واعتبر انتصار معاوية انتصارا للظلم والعدوان.

4. محمد بن جرير الطبري [ت310هـ]:

من أعلام المؤرخين السنة في القرن الثالث الهجري، ويعتبر كتابه "تاريخ الملوك" المصدر التاريخي الأساس عند أهل السنة.

وثقه المحدثون، في الوقت الذي احتوت مروياته عن الفتن، والدولة الأموية مرويات ضعيفة وموضوعة. واستخدم في أسانيد رواياته ألفاظا تدل على معاصرته [الأخباريين] الذين نقل عنهم، وهو لم يعاصرهم، كقوله: حدثني، وحدثنا، وأخبرنا... وذلك بهدف إضفاء الثقة على أخباره.

اعتمد بشكل رئيس على روايات "سيف بن عمر" [ت180هـ] التي تتماشى مع وجهة نظره في أحداث الفتنة الكبرى، وهو المعروف بالكذب ووضع الحديث، والمتهم بالزندقة!!

قدم من خلال روايات الزهري معلومات متناثرة تعكس وجهة نظر المدينة إزاء أحداث الفتنة، منها ما يعزز أو يخالف مواقف عثمان وعليّ، وتنتقد بشكل معتدل السيدة عائشة، وطلحة والزبير، ومحمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، بسبب أدوارهم في الفتنة.

قدم من خلال روايات عوانة، معلومات متناثرة عن أحداث الفتنة، تتعلق بتطورات الصراع بين عليّ ومعاوية، لبيان وجهات نظر تختلف عما قدمه أبو مخنف [الشيعي] عنها، وذلك لإعطاء صورة متوازنة عن هذا الصراع، وأغفل رواياته عن تطورات الفتنة زمن عثمان، وعن الصراع بين خليفة المسلمين عليّ بن أبي طالب، وأم المؤمنين عائشة، ومعها طلحة والزبير.

عندما تحدث عن الصراع بين عليّ ومعاوية اعتمد بشكل أساس على روايات أبي مخنف [الشيعي] لأنها تعبر عن وجهة نظره في الأحداث..، في الوقت الذي لم يأخذ عنه شيئا يتعلق بـ "معركة الجمل"، على الرغم من تصنيف أبي مخنف كتابا عن "معركة الجمل"!! ولم يذكر شيئا عن المرويات المتعلقة بالفتنة زمن عثمان، على الرغم من تصنيف أبي مخنف كتابا باسم "الشورى ومقتل عثمان".

بلغت مرويات أبي مخنف [الشيعي] في تاريخ الطبري [585] رواية، في أهم فترة من التاريخ، وهي الفترة ما بين وفاة رسول الله، وحتى سقوط الدولة الأموية [132هـ] فكيف اخترقت مرويات أبي مخنف تاريخ الطبري، وكيف نتحقق من صحتها، وكتبه التي قيل أن المؤرخين أخذوا عنها، لا وجود لها؟!

ونلاحظ أن أهم المدونات التي اهتمت برواة الشيعة قد ظهرت في القرن الرابع الهجري، وما بعده، بداية بكتاب "الفهرست"، للنديم [ت380هـ]، و"الرجال" للنجاشي [ت450هـ]، و"الفهرست"، للطوسي [ت460هـ].

فانظر، وتدبر، متى ظهرت أمهات كتب الفرق والمذاهب المختلفة، وكم قرنا من الزمان يفصلها عن مسرح الأحداث وهي التي أقام على مروياتها أتباع الفرق المختلفة ثقافتهم الدينية التخاصمية التكفيرية؟

تعليق:

1. فإذا أراد الباحث أن يتحقق من صحة وأمانة نقل المؤرخين الأوائل عن هؤلاء الرواة فكيف يتسنى له ذلك، ومدونات الشيوخ والإخباريين، لا وجود لها؟!

فهل عليه أن يقيم بحثه العلمي على إحسان الظن بهؤلاء المؤرخين؟!

وإذا كانت هذه الإشكالية، قد شملت أيضا المحدثين، فلا وجود أصلا لمدونات الرواة الذين نقلوا الأحاديث، المنسوبة إلى رسول الله، منذ عصر الرسالة وإلى عصر التدوين فهل علينا أيضا إحسان الظن بهم؟!!

إن إحسان الظن هذا، إن صح أن يقيم عليه علماء الفرق والمذاهب المختلفة حجية مصادرهم التراثية المذهبية، فإنه لا يصح في إقامة حجية نصوص الشريعة الإلهية الواجبة الاتباع.

إنه أمر طبيعي، أن يكون تراث الأمم "ظنياً" في ثبوته، وصحة نسبة مروياته إلى أصحابها، فلا توصف أخباره ومروياته بالقطعية بأي حال من الأحوال. أما دين الله تعالى فلا يؤخذ إلا من مصدر قد ثبتت صحة نسبته إلى الله على وجه القطع واليقين.

لذلك فإن الذين فرقوا بين رواة التاريخ، ورواة الحديث، فقبلوا مرويات المؤرخين التاريخية، ولم يقبلوا منهم ما يتعلق بأحاديث رسول الله..، فهؤلاء نسألهم:

على أي أساس فرقتم بين موضوع الرواية، والراوي في الحالتين واحد؟!!

هل لأنكم تملكون من العلم، والكشف الإلهي، ما استطعتم به أن تميزوا بين صدقه عند روايته للحديث، وكذبه عند روايته للتاريخ، أو العكس؟! أم لأنه اشتهر عنه ذلك؟!

وإذا كان الأمر كذلك، فأي دين هذا الذي يقوم على مثل هذه الرؤى وهذه الاجتهادات المذهبية..، فيقولون: فلان ثقة في التاريخ، كذاب في الحديث!! ولماذا؟!

لأن الراوي إما أن يكون شيعي المذهب، أو سني..، حسب مذهب الفرقة التي ينتمي إليها عالم الجرح والتعديل!!

2. يقول الطبري في أحداث سنة [30هـ]: "في هذه السنة كان ما ذكر من أمر أبي ذر ومعاوية، وإشخاص معاوية إياه [أي إرساله إلى المدينة] وأمور كثيرة كرهت ذكر أكثرها!!

فأما العاذرون لمعاوية فإنهم ذكروا في ذلك قصة كتب بها إلي السري يذكر أن شعيبا حدثه سيف..، وقال سيف..، وقال سيف..، ثم قال: "وأما الآخرون فإنهم رووا في سبب ذلك أشياء كثيرة وأمورا شنيعة كرهت ذكرها"!!

والسؤال: لماذا لم يذكر الطبري هذه الأمور الشنيعة؟! أليس من مهام المؤرخ أن ينقل الأحداث كما هي، ويترك مسألة تقييمها أو نقدها لأهل التمحيص؟!

هل يصح أن ينحاز المؤرخ إلى مذهبه، ولا ينقل من التاريخ إلا ما وافقه؟!

إن الطبري كره ذكر هذه الأمور لأن فيها ما يسيء إلى معاوية، وإلى الخليفة عثمان، وهما من أهل السنة، وهي أمور قد ذكرتها المصادر التاريخية الأخرى!!

لذلك حرص معظم المؤرخين، من أهل السنة، ألا تحتوي مؤلفاتهم على هذه الأمور واتهموا المصادر الأخرى بافتراء الكذب.

يقول ابن الأثير [ت639هـ] في مقدمة كتابه "الكامل في التاريخ"، عن المصادر التي استقى منها رواياته، ويعتبر كتابه هذا من أمهات كتب التاريخ، عند أهل السنة:

"إنني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد..، فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الإمام أبو جعفر الطبري، إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه والمرجوع عند الاختلاف إليه، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه، لم أخل بترجمة واحدة منها...، ثم قال:

"فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه... إلا ما يتعلق بما جرى بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإني لم أضف إلى ما نقله أبو جعفر شيئا.. وإنما اعتمدت عليه من بين المؤرخين إذ هو الإمام المتقن حقا، الجامع علما وصحة اعتقاد وصدقا".

فانظر أثر المذهبية على تعطيل أصول البحث العلمي!! لقد حمّل ابن الأثير [ت639هـ] الطبري [ت310هـ] مسئولية ما جرى بين أصحاب رسول الله، عليه السلام كاملة، فقال:

"فإني لم أضف إلى ما نقله أبو جعفر شيئا"!! وهو يعلم أن أحداث "الفتن الكبرى" لم يستق الطبري أخبارها إلا من خلال أخباري واحد هو "سيف بن عمر"!!

إن ابن الأثير، وهو العالم الفقيه، صاحب كتاب "جامع الأصول في أحاديث الرسول"، الذي جمع فيه أحاديث الكتب الستة المعتمدة في الحديث وهي:

الموطأ وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي وصاحب كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر"، وصاحب كتاب "أسد الغابة" في معرفة الصحابة.

هذا العالم الكبير، لم يجرؤ أن يتحدث عن أحداث "الفتن الكبرى" إلا من خلال مرويات الطبري التي أخذها عن إخباري واحد، هو "سيف بن عمر" على أساس أن الطبري أمامٌ، لا شك في علمه وصدقه، وهو المسئول عن رواية أحداث هذه الفترة!!

فإذا ذهبنا إلى الطبري، في مقدمة كتاب التاريخ، نجده هو أيضا يعفي نفسه من المسئولية، ويُحمّلها [الأخباريين] الذين أخذ عنهم مروياته، كـ "سيف بن عمر"!!

لقد أراح ابن الأثير نفسه فحذف الأسانيد من رواياته، وهو عالم الحديث، وحكم بصحة الأخبار، على أساس أنها وردت في تاريخ الطبري!! وها هو ابن خلدون يقع في نفس الإشكال، فقال بعد حديثه عن الخلافة الإسلامية:

"هذا آخر الكلام في الخلافة الإسلامية، وما كان فيها من الردة والفتوحات والحروب ثم الاتفاق والجماعة، أوردتها ملخصة عيونها ومجامعها، من كتاب محمد بن جرير الطبري، وهو تاريخه الكبير، فإنه أوثق ما رأيناه في ذلك، وأبعد عن المطاعن والشبه في كبار الأمة وأخيارها، وعدولها من الصحابة والتابعين".

ثم قال: "فكثيرا ما يوجد في كلام المؤرخين مطاعن وشبه في حقهم أكثرها من أهل الأهواء، فلا ينبغي أن تسود بها الصحف"**!!**

وطبعاً ابن خلدون يقصد بأهل الأهواء: علماء الفرق الأخرى**!!**

إنها فتنة [الآبائية] المذهبية، التي شملت المؤرخين جميعا، والتي لم يجد الأبناء أمامها إلا التسليم، أو اتهام الآخر بافتراء الكذب، أو محاولة تأويل المرويات والأحداث..، بصورة تخرجهم من أن يكون الآباء سببا في هذه الفتن**!!**

لقد حدث كل ذلك لأنه لم يُعرف، إلى يومنا هذا، السبب الرئيس وراء عدم تولي الخلافة الراشدة، بمؤسساتها الحكومية، مسئولية تدوين علوم الشريعة: من تفسير وحديث، وفقه، وتاريخ إسلامي..، وترك ذلك للأفراد، كل حسب عقيدته التي تربى عليها، ومؤسسته الدينية التي تعلم فيها..، فلا نجد كتاباً من أمهات الكتب الدينية، ولا منبرا من منابر الدعوة، إلا وصاحبه، إن لم يكن إمام مذهب، فسيكون تابعا له**!!**

إنه لا سبيل أمام المسلمين إلى معرفة تاريخ تراثهم الديني، وما ورثوه من ثقافة روائية مذهبية، وما مرت به الأمة الإسلامية من أحداث وفتن وصراعات، وهي في عصرها الأول..، إلا تدبر كتاب الله تعالى، وما حمله من تحذير للمسلمين من التفرق في الدين ثم تعقل ما دونه المؤرخون والمحدثون الأُول عن هذا العصر والذي وصلنا عن طريق "منظومة التواصل المعرفي"، ثم مطابقة ذلك بواقع الفرق والمذاهب المختلفة، التي يعيش بداخلها المسلمون اليوم.

والآن مع جولة سريعة، ومقتطفات من أحداث "الفتن الكبرى"، أستعرضها على النحو التالي:

أولا: فتنة الخلافة [الإمامة]، ورسول الله على فراش الموت

ثانيا: الفتنة في عهد عثمان بن عفان

ثالثا: الفتنة بين أهل البيت

رابعا: الفتنة بين كتاب الوحي

الإنقلاب على الأعقاب

**[وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً
وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ]**

[144] آل عمران

فتنة الخلافة بعد النبي

لقد نقلت لنا "منظومة التواصل المعرفي"، بصورة مذهبية، الخلاف حول مسألة الخلافة [أو الإمامة] بين أكبر فرقتين من الفرق الإسلامية، وهما السنة والشيعة. لقد انقسم المسلمون، بعد وفاة رسول الله، إلى فرق ومذاهب شتى، وازداد تفرقهم بعد أحداث "الفتن الكبرى"، بداية بفتنة قتل خليفة المسلمين الثالث عثمان بن عفان. لقد وضعت بذور هذه الفتن ورسول الله على فراش الموت، وكان الخلاف، بين صحابة رسول الله على مسألة الخلافة [الإمامة] سببا في إشعال أزمة التخاصم والتقاتل بين المسلمين والتي تواصلت حلقاتها إلى يومنا هذا.

فلماذا اختلف صحابة رسول الله، حول من سيخلفه، إلى فريقين:

الأول: يرى أن الإمامة لعلي بن أبي طالب

والثاني: يرى أن الخلافة لأبي بكر الصديق

لقد نظروا إلى مواقف حدثت من رسول الله، اتخذ كل فريق الموقف المؤيد له منها دليلا على أحقية صاحبه بالخلافة:

ومن أهم المواقف التي اتخذها الفريق الموالي لأبي بكر، هو استخلاف رسول الله له في الصلاة بالمسلمين، وأن في ذلك إشارة ووصية من رسول الله بخلافته من بعده.

ومن أهم المواقف التي اتخذها الفريق الموالي لعليّ، هو استخلاف الرسول لعليّ بن أبي طالب إماما على المدينة، في غزوة تبوك، وبما أنها كانت آخر غزواته، فهم من ذلك "الشيعة" أنها وصية من رسول الله بخلافة عليّ من بعده.

ولقد قام ترجيح الشيعة لخلافة عليّ على أساس أن اختيار الرسول لعليّ خليفة له على المدينة أقرب للخلافة العظمى للبلاد، بعد وفاته، من القياس على استخلافه لأبي بكر في الصلاة، التي هي ركن من أركان الإسلام.

وهناك موقف ثالث، حدث ورسول الله على فراش الموت، وهو ما يعرف برزية يوم الخميس، وهو الموقف الذي يتأوله كل فريق لخدمة توجهه المذهبي!!

فقد روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: "يوم الخميس: وما يوم الخميس، قالوا: وما يوم الخميس؟ قال:

اشتدّ برسول الله، صلى الله عليه وسلم وجعه فقال: "ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعدي". فتنازعوا، وما ينبغي عند نبيٍّ تنازع، وقالوا: ما شأنهُ، أهَجَر؟ استفهموه، فقال: "دعوني، فالذي أنا فيه خير".

قال ابن عباس: إن الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب، من اختلافهم ولغطهم!! ويبكي حتّى يبلّ دمعُه الحصى".

فأهل السنة يقولون: إن رسول الله أراد أن يوصي بخلافة أبي بكر!! والشيعة يقولون: إن الوصية كانت لعليّ!!

هذا كل ما يمكنني قوله، باختصار، عن جذور أزمة "الخلافة"، عند أهل السنة، أو الإمامة، عند الشيعة، كنظام للحكم الإسلامي، والتي ظلت موضوعا للصراع الديني والسياسي، بين المسلمين وحكامهم، إلى يومنا هذا.

والحقيقة أنه لم يبق في هذا الموضوع ما يقال، إلا إلقاء الضوء على بعض الإشكالات التي تفرعت عما سبق ذكره من مواقف صحابة رسول الله من مسألة الخلافة، أو الإمامة.

1. لقد نقلت لنا "منظومة التواصل المعرفي" الخلاف حول اختيار خليفة رسول الله بصورة مؤسفة!! لقد اجتمع جماعة من الأنصار مع عدد من المهاجرين في سقيفة بني ساعدة، لحسم أمر الخليفة، وبايعوا "سعد بن عبادة" خليفة لرسول الله، ولكن أهل البيت وبنو هاشم، رفضوا هذا الاجتماع، واتهموا المجتمعين بالتآمر عليهم!!

فهل لم تكن هناك أحاديث نبوية [سنة نبوية] يعلمها صحابة رسول الله، تحسم هذا الخلاف، في أول فتنة تتعرض لها الأمة الإسلامية، كان من المفترض أن ينجح صحابة رسول الله في إدارتها بسلام؟! الحقيقة أن "منظومة التواصل المعرفي" لم تنقل لنا غير مرويات كلها محل نظر ونقد من الفرقتين: السنة والشيعة!!

2. على الرغم من ادعائهم وجود حديث نبوي يقول: "الأئمة من قريش"، وأن أبا بكر الصديق قد احتج بهذا الحديث على الأنصار لما بايعوا "سعد بن عبادة" خليفة لرسول الله، فتراجعوا تسليما وطاعة لما قاله الرسول [أي لهذه السنة النبوية]..، إلا أن كثيرا من علماء الفرق الإسلامية لا يرون وجوب العمل بهذا الحديث، باعتباره "حديث آحاد" لا يقوم عليه أصل من أصول الدين.

فإذا كان حديث "الأئمة من قريش" صحيحا، واجب العمل به، عند من يرون ذلك إذن فما حكم من أنكروا العمل بهذا الحديث، بدعوى أنه حديث آحاد، علما أن معظم الأحاديث التي نسبها الرواة إلى رسول الله أصلا أحاديث آحاد؟!

3. إن المتابع الجيد لأحداث ومرويات "الفتن الكبرى" لا يخفى عنه أن مثل هذه الأحاديث، التي نسبها رواة الفرق والمذاهب المختلفة إلى رسول الله، والتي جاءت تتحدث عن "الفتن" أو عن "الإمامة"، أو "البيعة"، أو عن ترتيب الخلفاء الراشدين في الفضل..، معظمها قد وضعها الرواة، إما نصرة لأئمتهم، أو دفعا لإشكالات تسيء إليهم، أو حلا لمواقف ما كان لها أن تحل إلا بأن يكون الرسول قد قال فيها قولا حاسما للنزاع!! ومن هذه الإشكالات:

- لقد قامت نظرية "الخلافة"، عند أهل السُنّة على أساس البيعة لأبي بكر ووجوب أن يكون الإمام قرشياً، فلا تنعقد الإمامة بدون هذا الشرط، استنادا إلى الرواية السابقة "الأئمة من قريش"!!

وإن المتابع لمرويات الفتن، والإمامة، والبيعة..، يوقن أنها وضعت بعد وفاة رسول الله، وأن اشتراط أن يكون الإمام قرشيا كان لإضفاء الشرعية على الخلافة الراشدة وعلى الملك العضود، الذي أخذه معاوية بالسيف، وخلفاؤه من بعده، وحتى نهاية الدولة العباسية!!

وهذا ما أكده ابن خلدون في المقدمة، بقوله: "بقي الجمهور على القول باشتراطها أي القرشية، وصحّة الخلافة للقرشيّ، ولو كان عاجزاً عن القيام بأُمور المسلمين".

فتدبر قوله: "ولو كان عاجزا عن القيام بأمور المسلمين"!!

ودليل ذلك أن الفريق المعارض لشرط "القرشية" وضع حديثا، أخرجه البخاري في صحيحه، يقول: "هَلَكَةُ أمتي على يدي غلمة من قريش"!! والذي يعني أن اشتراط أن يكون الخليفة قرشيا هو الذي أضاع خيرية الأمة، فمعظم شراح الحديث مجمعون على أن المقصود بـ "الغلمة" من سياق هذا الحديث، وبالنظر إلى روايات أخرى، هم خلفاء بني أمية.

لقد استعاد الشيعة في خلافة عليّ بن أبي طالب مكانتهم، فاستطاعوا أن ينشروا أحاديث تدعم موقفهم وأحقية إمامهم عليّ بالخلافة بعد الرسول!!

لقد وضعت أصول المذهب الشيعي ومرجعياته في خلافة عليّ. ولقد كان يجمع المسلمين ويخطب فيهم بهذه الأحاديث، لتثبيتها في أذهانهم. ولهذا نقل مقر الخلافة إلى العراق، الأمر الذي لم يفعله أحد ممن سبقه!!

ـ انظر أيضا وتدبر هذا الحديث، ومثله العشرات، والذي يعتبره بعض علماء السلف من دلائل النبوءة، وهو قول النبي، عليه السلام، في خطبة حجة الوداع: "فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرِبُ بعضُكم رقابَ بعض"!! قال ابن عباس: فو الذي نفسي بيده، إنها لوصيته إلى أمته..، أخرجه البخاري ومسلم!!

هل يعقل أن يكون هذا الحديث من قول رسول الله قبل وفاته؟! إن الذي يقول بذلك يتهم جميع صحابة رسول الله بالكفر لوقوعهم فيما حذرهم منه الرسول، مع سبق الإصرار!!

وإنما، إجلالا وتنزيها لمن صحبوا رسول الله، وشهد الله تعالى لهم بالتقوى والصلاح..، أعتقد أن مثل هذه الأحاديث، قد وضعها الرواة، بعد وفاة رسول الله، وأثناء أحداث الفتن الكبرى، بعد أن تمكن الشيطان والهوى من قلوب ضعاف الإيمان وبدعم من المنافقين..، لعلها توقف هذه الفتن المشتعلة!!

4. بخصوص "رزية يوم الخميس"، واتهام الشيعة لعمر بن الخطاب بأنه كان السبب في منع رسول الله من الوصية بالخلافة لعليّ..، استنادا لما أورده البخاري ومسلم عن ابن عباس قال:

"عندما اشتد برسول اللّه، صلى الله عليه وسلم، وجعه، فقال: "ائتوني أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعدى، فقال عمر: إن رسول اللّه قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب اللّه!! فكان ابن عباس يقول: إن "الرزية كل الرزية" ما حال بين رسول اللّه، وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم"!!

ويتعجب الشيعة من فصل عمر بن الخطاب بين كتاب اللّه، وبين رسول اللّه ويقولون: إن مبدأ الاكتفاء بالقرآن لم يكن يعرفه الإسلام ورسول الله على فراش الموت!! وإذا كان عمر يستند في رأيه إلى كتاب الله، لذلك قال: "حسبنا كتاب اللّه" فإن كتاب اللّه يقول:

مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً [80] النساء

ويقول الله تعالى:

مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [7] الحشر

ويقول الله تعالى:

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً [36] الأحزاب

ويقول الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [1] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ [2] الحجرات

فيرى الشيعة أن هذا النزاع، الذي حدث بين صحابة رسول الله، وهو على فراش الموت، اجتمع فيه: تقديم بين يدي الرسول، ورفع الأصوات فوق صوته، ورد أمره وعصيانه، ثم نسبته إلى الهجر والهذيان!! وعلى هذا الأساس وقفوا موقف العداء للصحابة الذين منعوا النبي من الوصية وهو على فراش الموت!!

ويقولون: إذا كان المدافعون عن عمر قد رأوا أن موقفه كان في صالح الإسلام فإن قول ابن عباس "الرزية، كل الرزية"، الذي ورد في الحديث يبين أن موقف عمر كان ضد الإسلام!! بل لقد ذهب ابن تيمية إلى أن الشك قد وقع في قلوب الصحابة نتيجة هذا الموقف، فقال في "منهاج السنة": "إن النبي لما رأى الشك قد وقع، علم أن الكتاب لا يرفع الشك، فلم يبق فيه فائدة، وعلم أن اللّه سيجمعهم على ما عزم عليه!!

فهل هذه شهادة من ابن تيمية بأن الشك قد وقع بين الصحابة، وهم بين يدي رسول الله، ثم تفرقوا وهم على هذا الحال من الاختلاف: بين شاك يقول: "غلب عليه الوجع حسبنا كتاب اللّه"، وهم الذين يمثلون أهل السنة اليوم، وآخرين يقولون: "أعطوا رسول الله كتابا يكتب لكم ما لا تضلوا بعده أبدا"، وهم الذين يمثلون الشيعة!!

فإذا ذهبنا إلى كتاب الله تعالى، وجدناه لا يشترط جنسًا، أو مذهبا، أو قبيلة، فيمن يتقلد منصب الحكم، وإنما يفهم من مقاصد القرآن أن أهم مؤهلات الحاكم أن يكون قادرا على إقامة الحق والعدل بين الناس.

إن الفريقين لم يتخذوا "الآية القرآنية" مرجعا هاديا لهم عند التنازع، وعندما ذهبوا إلى سنة رسول الله، عليه السلام، لتحسم لهم هذا النزاع..، اشتد نزاعهم، وتخاصموا وكفر بعضهم بعضا..، لأن كل فريق يحمل من الأحاديث النبوية، التي صحت عنده ما يعتبرها وحيا إلهيا واجب الاتباع!!

لقد ابتعد الفريقان عن استنباط حكم وشروط الخلافة من كتاب الله، الذي لم ينص صراحة على من يكون خليفة رسول الله، وإنما وضع شروطا عامة للإمامة، ثم ترك مسألة اختيار الإمام يقررها أهل الشورى، حسب متطلبات ومقتضيات كل عصر.

لقد تحدث القرآن الحكيم عن الشورى كنظام سياسي واجتماعي على المسلمين تفعيله في مختلف المجالات.

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ [38] الشورى

إن من صفات المؤمنين، ومنهم رئيس الدولة، أن "أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم"، ولكن من الذي بيده أخذ القرار عند الخلاف؟! إذن لا بد أن يوجد بين المتشاورين شخص أو جهة هي التي بيدها وحدها أخذ القرار بعد المشورة، وهنا يقول الله تعالى:

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ [159] آل عمران

فلماذا لم نسمع عن انعقاد "مجلس الشورى"، بعد وفاة رسول الله، لاختيار خليفته؟!

لماذا لم يحسم هذا المجلس مسألة الخلافة ورسول الله ما زال حيا على فراش الموت؟!

وهل ما حدث من خلاف بين صحابة رسول الله حول من سيخلفه، دليل على عدم التزامهم بمبدأ الشورى بعد وفاة رسول الله؟!

وفي هذا السياق يسأل الشيعة: هل هناك دليل على أن مسألة اختيار الخليفة تكون شورى بين المسلمين؟!

وهل اتفق المحدثون على صحة حديث نبوي ينص صراحة على خلافة أبي بكر؟!

أم أن المسألة كلها مسألة توقعات وتأويلات لتصرفات توحي باختيار الرسول لمن يخلفه: "مُروا أبا بكر فليصلّ بالناس"، باعتبار عدم الفصل بين إمامة الصلاة والإمامة العامة، وإن كان هناك من يرى أن هذا القياس باطل!!

يقول ابن حزم في "الفِصَل":

"أمّا من ادّعى أنّه إنما قُدِّم قياسا على تقديمه إلى الصلاة فباطل بيقين، لأنه ليس كلّ من استحقّ الإمامة في الصلاة يستحق الإمامة في الخلافة، إذ يستحق الإمامة في الصلاة أقرأ القوم وإن كان أعجميا أو عربيا، ولا يستحقّ الخلافة إلا قرشي، فكيف والقياس كله باطل؟!

لقد توفي رسول الله محمد، عليه السلام، تاركا وراءه "سنة الفتنة"، التي جعلها الله تعالى في هذا الوجود، ليعلم الصادقين في إيمانهم وتوحيدهم من الكاذبين.

وإذا كانت الحقائق التاريخية قد شهدت بحدوث انقلاب وقع في صفوف المسلمين بعد وفاة رسول الله، فإن من واجبنا أن نحلل ونتدبر أسباب هذا الانقلاب وآثاره على وحدة الأمة وتقدمها، وتفعيلها لآية الله القرآنية في واقع الحياة.

إن الذين صاحبوا رسول الله، بشهادة القرآن، فيهم العدول، وفيهم البغاة، وفيهم أهل الجرائم من المنافقين، ولا شك أن فيهم أيضا مجهول الحال!! فيبين القرآن الكريم أن المسلمين الذين عاشوا مع رسول الله في فترة التنزيل واكتمال الدين كانوا ينقسمون إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتَّبعوهم بإحسان، كما بين الله تعالى ذلك بقوله:

وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [100] التوبة

الفئة الثانية: وهم المنافقون الذين كانوا يكيدون المكائد للإسلام:

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنْ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ [101] التوبة

الفئة الثالثة: وهم المؤمنون الذين خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيّئ:

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [102] التوبة

لقد بدأ الانقلاب على الأعقاب بالخلاف حول الإمامة، ورسول الله على فراش الموت، ثم بحروب الردة مع خلافة أبي بكر الصديق...، أما أن يُقتل خليفة المسلمين الثالث، عثمان بن عفان، بأيد مسلمة، بعد أن حوصر أربعين يوما، وجيوش المسلمين تقف متفرجة، ثم تبدأ في التحرك بعد مقتله بدعوى المطالبة بدمه..، وتحدث المعركة الكبرى، والفتنة العظمى، بين أهل بيت رسول الله:

بين أم المؤمنين السيدة عائشة، وعليّ بن أبي طالب، في موقعة "الجمل".

ثم بين عليّ بن أبي طالب ومعاوية في "صفين".

لقد انتشر الإسلام، وقويت شوكته في خلافة الشيخين، أبي بكر وعمر..، فهل ما حدث من "فتن كبرى"، يعتبر دليلا على أن الشيطان قد نجح في اختراق وحدة الأمة الإسلامية، وهي في عصرها الأول، كما نجح مع الأمم السابقة..، وأن الانقلاب الذي حذر الله تعالى منه المؤمنين، قد وقع فعلا، وأن نظرية "المؤامرة" بريئة من دماء آلاف المسلمين، التي سفكت في هذه "الفتن الكبرى"؟!

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ [164]

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [165] آل عمران

الفتنة في عهد عثمان بن عفان

تذكر المصادر التاريخية أن خليفة المسلمين عمر بن الخطاب أسند إلى أبرز زعماء قريش مهمة التشاور لاختيار الخليفة من بعده، ومن هؤلاء: عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام.

وذكرت المصادر أنها كانت مؤامرة نفذها عبد الرحمن بن عوف، وأيده آخرون بهدف إبعاد الخلافة عن عليّ لصالح عثمان. وكان من الطبيعي أن تتفق المصادر الشيعية على اتهام عبد الرحمن بن عوف صراحة بالتخطيط لهذه المؤامرة وتنفيذها. وهناك من المصادر من ذكر أن اختيار عثمان تم بصورة طبيعية وشرعية.

إذن فالصراع حول الخلافة بدأت تتضح معالمه مع الاقتراب من خلافة عثمان وكان من الطبيعي أن توجه الاتهامات إلى سياسته بشكل مباشر، ومنها التأكيد على سوء إدارته لأمور المسلمين وأموالهم، ما أثار غضب وسخط كثير من الصحابة، من أبرزهم أبو ذر، وعبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر.

كما ذكرت المصادر انتقاد السيدة عائشة لسياسة عثمان في تعيين أقاربه، واتهامها بالتحريض ضده، الأمر الذي نفته أم المؤمنين بعد مقتله، حيث عبرت عن أسفها وحزنها لمقتله. وذكرت المصادر الشيعية أن السبب وراء موقف السيدة عائشة من عثمان هو أنه أنقصها عطاءها الذي كانت تأخذه في عهد عمر بن الخطاب وجعله مساويا لغيرها من نساء النبي. لقد تبنت المصادر الشيعية وجهة النظر التي تدين سياسة السيدة عائشة تجاه عثمان والدور الكبير الذي قامت به، بمشاركة طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، في تحريض الناس ضد عثمان، ودعوتها عبد الله بن عباس أمير الحج المعين من قبل عثمان إلى عدم الوقوف إلى جانبه، ورفضها الاستجابة لمطالب بعض الصحابة التدخل لحث أهل الأمصار على عدم التعرض للخليفة، وإصرارها على الذهاب إلى الحج.

أما المصادر السنية فقد وصفت موقف السيدة عائشة بالإصلاحي، ولم تهتم ببيان الانتقادات الموجهة إلى سياسة عثمان، وأظهرت شخصيته ومواقفه بصورة إيجابية وشككت في الدوافع التي انطلق منها الذين هاجموا سياسته.

ولقد وصلت الانتقادات الموجهة ضد سياسة عثمان إلى ذروتها عام [34هـ]، وبدأ تحريض الناس ضده يأخذ شكلا عنيفا، فقد طلب بعض الصحابة إعلان الجهاد في سبيل الله لقتال من [أفسدوا دين محمد] وهنا بدأت تظهر الروايات، المنسوبة إلى رسول الله، التي تخدم أغراض المؤيدين لهذا الجهاد، والمعارضين.

فهناك من استند إلى روايات يبشر فيها الرسول عثمان بالشهادة والجنة!! في حين تجاهل آخرون هذه الروايات بدعوى الخلاف حول صحتها.

ولقد قامت هذه الروايات بدور رئيس في الخلاف الفقهي بين المؤرخين، حول الشروط التي يباح بموجبها دم المسلم، ففريق منهم توقف عن إبداء الرأي في هذه المسألة، وفريق أكد أن الاقتتال بين المسلمين محرم شرعا، مهما كانت أسبابه.

فإذا انتقلنا إلى ساحة دار الخلافة، وحصار أهل الأمصار للخليفة، وموقف الصحابة من هذا الحصار، نجد أن من المصادر من أشار إلى أن أهل الأمصار قد فرضوا على بيت عليّ بن أبي طالب الحصار، ومنعوه الخروج، لأنه حذرهم من قتل عثمان، ورماهم بالحجارة!!

وهناك من اعتبر هذا الموقف دليلا على عدم تدعيم عليّ بن أبي طالب لأهل الأمصار في قتلهم عثمان، وبيان براءته من دمه.

وهناك من أضاف أن علياً رفض دخول أهل مصر إلى المدينة بعد تأكده من وجود مؤامرة بين قادة أهل الأمصار للنيل من الخليفة.

وقد أجمعت معظم المصادر على موقف طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، من حصار عثمان، وتحريضهما المستمر للمسلمين، وقيادتهما لجموع المحاصرين لعثمان وإصدارهما الأوامر لهم بقطع الماء عنه، ورفضهما طلب عليّ بالسماح للصحابة بإدخال الماء إليه..، ومشاركتهما في قتله.

وهناك من ذكر أن طلحة طلب من الخليفة الغفران فرفض طلبه قائلا: "ألبت عليّ الناس ودعوتهم إلى قتلي، حتى إذا فاتك ما تريد جئت معتذرا". وأن طلحة أخذ مفاتيح بيت المال من الخليفة أثناء الحصار، وأخذ ما فيه من مال.

وموقف طلحة والزبير من حصار عثمان، يجعلهما من أبرز الشخصيات التي هاجمت سياسة عثمان، وحرضت المسلمين على قتله، وشاركت في ذلك.

ومن المصادر من يتساءل: هل وقوفهما بجوار السيدة عائشة، ومشاركتهما الفعالة في إدارة جيشها، لمحاربة عليّ بن أبي طالب، بدعوى المطالبة بدم عثمان والثأر له... يجعلهما مجروحي العدالة، بلغة علماء الجرح والتعديل، مع أنهما من العشرة المبشرين بالجنة؟!

ومن المصادر من أضاف عمرو بن العاص إلى المحرضين على قتل عثمان، فقد ذكرت مغادرته المدينة إلى فلسطين حيث أخذ يؤلب الناس ضد عثمان، فكيف يأتي ويطالب بدمه، ويتحالف مع معاوية ضد عليّ، الأمر الذي توج في معركة صفين؟!

وتتجه المصادر السنية نحو رفع المسؤولية عن الصحابة في حصار الخليفة أو مقتله، وإلقائها على عاتق أهل الأمصار، وتؤكد أن الزبير رفض دخول أهل مصر إلى المدينة وأرسل ابنه عبد الله ليقف إلى جانب عثمان في مواجهته المحاصرين، وأن أهل الأمصار ألزموا طلحة بيته تحت تهديد السلاح، وهناك من أكد على وجوده خارج المدينة عندما قتل عثمان..، وأن السيدة عائشة عندما خرجت إلى الحج خرجت هاربة من بطش أهل الأمصار وتهديدهم لعثمان بالقتل.

ومن المصادر من أشار إلى اعتراف السيدة عائشة بالتحريض ضد عثمان، وأنها قالت: "إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا، وقولي الأخير خير من قولي الأول".

وفي أجواء هذا الحصار المشحون بالغضب، والقلق، والتحريض..، كان من الطبيعي أن يشتعل الموقف في أي وقت، ومع أي حدث يثير غضب الحضور.

تتفق المصادر على تصعيد المحاصرين غضبهم، بعد حصار لعثمان دام أربعين يوما، منعوا عنه الماء والطعام، ورجموه بالحجارة.

وأثناء هذا الصراع، قُتل أحدهم بسهم من قبل أحد المدافعين عنه، فأشعلوا النيران بأبواب منزل خليفة المسلمين واشتبكوا في قتال عنيف مع المدافعين عنه، حتى استطاعوا دخول داره، وقام فريق منهم بقتله، وهو يقرأ القرآن!!

لقد توفي عثمان لاثنتي عشرة، وقيل لثمان عشرة، ليلة بقيت من ذي الحجة عام [35هـ]، وكان عمره قد بلغ اثنتين وثمانين، وقيل ستة وثمانين عاما.

ولقد تُرك جثمان خليفة المسلمين في داره، يوما أو يومين، وقيل ثلاثة أيام، ثم حُمل جثمانه على باب من جريد النخل صغير، خرجت عنه رجلاه!!

وذكرت بعض المصادر أن عددا من الناس قذفوا موكب الجنازة بالحجارة، وذكرت أخرى رفض عدد من الأنصار السماح للصحابة بالصلاة عليه، ومنعوا دفن الجثمان في البقيع، فدفنه مشيعوه في حائط يدعى "حش كوكب"، ملحق بالبقيع، كان عثمان قد اشتراه، وقد كان اليهود، من قبل، يدفنون فيه موتاهم!!

وتتفق معظم المصادر على أن عثمان قُتل وهو يقرأ القرآن، صائما، تلبية لرؤيا دعاه فيها رسول الله، إلى الإفطار معه ومع صحابته!! فهل هذا يعني أن عثمان استسلم للقتل، ولم يحرك الجيوش للدفاع عنه، لأنه فضّل أن يُستشهد تلبية لدعوة رسول الله للإفطار معه؟!

وهل هذا يعني أن الله أراد لهذه الأمة أن تتفرق، وتتقاتل..، وتفقد خيريتها، ويمحى وجودها من على خريطة العالم المتقدم..، وصحابة رسول الله، وأمهات المؤمنين من كانوا، وقت حدوث هذه الفتن، على قيد الحياة..، فجاءت هذه الرؤيا لتكون بداية للعد التنازلي نحو التخلف والتقهقر!!

وبصرف النظر عن التفصيلات التي أوردها المؤرخون عن أحداث هذه الفتنة وكيف تعامل صحابة رسول الله معها، ومن هم المسئولون عنها، وهل كان "الغوغاء" من أهل الأمصار وراء التحريض على قتل عثمان بن عفان، أم أن هذه مجرد دعوى لرفع المسئولية عن الصحابة، وخاصة معاوية، الذي كان واليا على الشام وقتها، وكان يملك أقوى الجيوش..، بصرف النظر عن كل هذا، فإن هناك مسائل يجب أن توضع موضع الدراسة والتحليل والمناقشة، وهي:

1. انقسمت خلافة عثمان إلى فترتين متساويتين كل منهما ست سنوات. الأولى: اتسمت بالهدوء النسبي والإعداد الخفي للثورة على سياسته في الحكم. والثانية: اتسمت بتأليب الأمصار عليه، والتحرك للمدينة، لأخذ قرار بشأنه. فالسنوات الست الأولى من خلافته غالبا هي التي وضعت فيها المرويات، المنسوبة إلى النبي التي تحدثت عن فضائل عثمان، والأخيرة هي التي وضعت فيها مرويات ذمه.

فمما روي في فضل عثمان ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها في حيائه وكيف أن الملائكة تستحيي منه كما أخبرها بذلك رسول الله، عليه السلام، عندما دخل عليهما أبو بكر وعمر وعثمان، وقد انحسر ثوب رسول الله إلى فخذيه، فظل رسول الله على حاله حتى دخل عثمان فأصلح عليه ثيابه وجلس يستمع إليه، وقال لعائشة:

"ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة". أما ما روي لإخراجه من الخلافة الراشدة أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: كنا مع رسول الله في صور بالمدينة فقال: يطلع عليكم رجل من أهل الجنة فجاء أبو بكر. ثم قال: يطلع عليكم رجل من أهل الجنة فجاء عمر. ثم قال: يطلع عليكم رجل من أهل الجنة..، قال: ورأيت رسول الله يصغي رأسه من تحت السعف ويقول اللهم إن شئت جعلته عليا، فجاء عليّ ابن أبي طالب.

فأين ذكر خليفة المسلمين عثمان ابن عفان، وهو من العشرة المبشرين بالجنة؟!

2. لقد نسبت المصادر إلى عثمان أقوالا تتنافى مع شدة حيائه الذي وصفه الرسول به كقوله لعمار بن ياسر: "يا ابن المتكاء"، "ويا عاض أير أبيه"، وقوله لأم المؤمنين عائشة: "رب اصرف عني كيدهن إن كيدهن عظيم".

كما نسبت المصادر إلى أم المؤمنين عائشة أنها في نهاية المطاف أصدرت فتوى صريحة بقتل عثمان حيث قالت: "اقتلوا نعثلا فقد كفر".

وعندما علمت أن عليا هو الذي تولى الخلافة تحركت تطلب الثأر لدم عثمان فقيل لها: "لقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلا فقد كفر. قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولي الأخير خير من قولي الأول".

والسؤال:

هل كان انقلاب السيدة عائشة، رضي الله عنها، على عثمان وسياسته نتيجة قطعه عنها ألفين من عطائها كانت تتميز بها عن سائر نساء النبي، فلما سواها بهن أصبحت من المعارضين لسياسته في الفترة الثانية من خلافته، كما ذكرت ذلك كثير من المصادر؟!

3. إن المتدبر للأحداث، وللمرويات التي ذكرت فضائل الصحابة، خاصة تلك التي جاءت حسب ترتيبهم في الخلافة، لا يشك في أنها وضعت عقب أحداث هذه الفتن ومن ذلك الرواية المبشرة لعشرة منهم بالجنة وهم:

أبو بكر، وعمر، وعثمان وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، وسعيد ابن زيد.

وهؤلاء قد ذكر المؤرخون أن لهم أدوارا في الفتنة الكبرى، باستثناء الشيخين: أبي بكر وعمر.

فمنهم من أخذ موقفا سلبيا من أحداث فتنة مقتل عثمان، ومكث في بيته..، كعلي وسعد، وهما من كبار الصحابة الذين كان يجب أن يكون لهم دور في حسم هذا الخلاف القائم.

ومنهم من اتهم بتحيزه لعثمان، فعمل على توجيه آراء مجلس الشورى لاختياره خليفة..، كعبد الرحمن بن عوف. ومنهم من قاد الحملة ضد علي للثأر لعثمان... كطلحة والزبير.

ومنهم من قاد مجموعة القراء ضد عثمان، لتحريقه نسخ المصاحف التي انتشرت في الأمصار، حسب القراءات واللهجات المتعددة، وأصر على عدم تسليم مصحفه وظل على قراءته بالكوفة..، كعبد الله بن مسعود.

4. لقد أبرزت المصادر طبقة القراء التي قامت بدور هام في هذه الفتن الكبرى، التي مزقت الأمة الإسلامية، وكانت بدايتها مقتل خليفة المسلمين عثمان بن عفان. كيف لا وهم قارئوا القرآن ومعلموه، وأهل الورع والتقوى والصلاح؟! خاصة وقد أخذت هذه الطبقة تزداد يوما بعد يوم بصورة تدعو إلى الدراسة والتحليل.

لقد قرب سعيد بن العاص، والي الكوفة، وقتها نخبة منهم إليه، وأشركهم في بطانته ثم اختلف معهم، فأمره عثمان أن يرسلهم إلى الشام. ثم أرسلهم معاوية بدوره إلى حمص حيث مارس عليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ضغوطا نفسية وعذابا إلى أن أعلنوا توبتهم فأطلق سراحهم.

هؤلاء كان وراءهم مئات القراء بالكوفة، كحركة منظمة ولكنها غير رسمية يقودها مالك بن الحارث الملقب بالأشتر. لقد أرسلوا احتجاجا إلى عثمان على نفي القراء إلى الشام، وهم أهل التقى والورع، وأصحاب النفوذ بين قبائلهم..، واستغلوا فرصة خروج سعيد بن العاص والي الكوفة لمقابلة عثمان وقرروا منعه من دخول الكوفة مرة ثانية واستعانوا على ذلك بإخوانهم في الشام.

وعندما رجع سعيد بن العاص إلى المدينة، وجد القراء قد عينوا أبا موسى الأشعري مكانه، فاضطر عثمان إلى قبوله مكرها!!

لقد كانت لأبي موسى الأشعري شعبية بين القراء، وكذلك عبد الله بن مسعود خازن بيت مال الكوفة. ولكل منهما أتباعه من القراء وطريقته في التعليم.

ففي عهد الوليد بن عقبة كان القراء ينقسمون في الجامع إلى مجموعتين: إحداهما تتبع ابن مسعود، والأخرى تتبع أبا موسى.

وتذكر المصادر أن حذيفة بن اليمان دخل المسجد فوجد عبد الله بن مسعود يقرأ فقال: قراءة ابن أم عبد..، وقراءة أبي موسى، والله إن بقيت حتى آتي أمير المؤمنين [يعني عثمان] لأمرته بجعلها قراءة واحدة.

لقد قامت حركة القراء بدور خفي في الأمصار لتحقيق أهدافها السياسية حيث بلغ عدد القراء المشاركين في معركة "صفين" في الشام وحدها أربعة آلاف قارئ من مجموع عشرين ألف قارئ في معسكر الطرفين، مما يؤكد مشاركتهم في التحريض ضد الخليفة عثمان، خاصة وأنهم استغلوا مسألة تحريقه نسخ المصاحف التي كانت موجودة في أيديهم، وإبقاء نسخة واحدة بقراءة واحدة هي لهجة قريش.

لقد عرضت المصادر التاريخية هذه القضية بصورة مذهبية، كل حسب وجهة نظره المؤيدة أو المعارضة لسياسة عثمان بن عفان.

لقد أبرزت المصادر معارضة بعض كبار الصحابة لموقف عثمان من تعدد المصاحف والقراءات، وعلى رأسهم عبد الله بن مسعود، الذي رفض تسليم مصحفه على أساس أن ما يفعله عثمان بدعة مخالفة لسنة رسول الله وخليفتيه، وكذلك كان موقف أبي موسى الأشعري.

وتروي المصادر أن المسلمين كانوا يختلفون في القراءات إلى درجة أن كفر بعضهم بعضا، وأوشكوا أن يتقاتلوا وتقع بينهم فتنة كبرى بسبب ذلك، ما جعل عثمان يتدخل لحسم هذه المسألة. فأرسل عثمان إلى الأمصار نسخة واحدة، هي التي تقرأ والمسماة إلى يومنا هذا بالرسم العثماني، إلا أن القراء ظلوا يقرءون بقراءاتهم.

فكان في الكوفة قراء ينسبون قراءاتهم إلى ابن مسعود، كعاصم، حمزة والكسائي. كما كان في البصرة والشام أيضا قراؤها.

فهل كان جَمْعُ عثمان المسلمين على رسم واحد لكتاب الله وراء إحساس القراء بسحب نفوذهم وسلطتهم الدينية من بين المسلمين، وبالتالي سلطتهم الشرعية على الخليفة باعتبارهم ممثلين لرسول الله في العمل بكتاب الله وسنة رسوله، لذلك قاموا بتحريض الناس على سياسته وشرعية خلافته؟!

5. كيف يُترك خليفة المسلمين محاصرا أربعين يوما حتى يتم قتله، دون تدخل من قوات الأمصار، وبصفة خاصة جيش معاوية، لفك هذا الحصار غير الإنساني الذي مُنع فيه الماء عن خليفة المسلمين، وتم رميه بالحجارة، وحرق منزله قبل إعدامه لإخفاء جريمة القتل العمد؟!

لماذا لم تأخذه القوات إلى مكان آمن، للتحقيق معه، بمعرفة كبار الصحابة المفترض أن سلطتهم الدينية على جميع المسلمين ما زالت قائمة، والدليل على ذلك أن أم المؤمنين عائشة، التي استطاعت أن تقود جيشا في موقعة الجمل للثأر لدم عثمان؟!

وهل كان حقا رَفْضُ خليفة المسلمين استخدام السلاح ضد المتمردين، كما تحكي الروايات والتخلي عن السلطة، يرجع إلى تمسكه بسنة الرسول "أن الخليفة هو ظل الله في الأرض" لذلك فلن ينزع عثمان من تلقاء نفسه قميصاً ألبسه الله تعالى له وسيستسلم للموت وهو صائم يقرأ القرآن منتظرا الإفطار مع رسول الله؟!

لقد قتل خليفة المسلمين عثمان بن عفان باسم الإسلام، وهو الخليفة الذي يحرم الخروج عليه أو قتله إلا بالحق الذي أنزله الله تعالى في كتابه، وهو الذي أجمعت المصادر التاريخية أنه الذي جمع الأمة الإسلامية على رسم واحد للمصحف، بعد أن كادت أن تتقاتل، والذي ما زال اسمه "الرسم العثماني" إلى يومنا هذا.

واستسلم خليفة المسلمين، عثمان بن عفان، للموت، ووقف كبار الصحابة موقفا سلبيا أمام تصاعد أحداث الفتنة، وعلى رأسهم المبشرون بالجنة!!

فهل يعقل أن يكون هذا هو موقف صحابة رسول الله، من فتنة مقتل خليفتهم الثالث عثمان بن عفان؟! أم أن وراء ذلك "نظرية المؤامرة" التي يدعي بعض أنصار الفرقة والمذهبية أنها كانت وراء كل هذه الفتن؟!

إن المؤامرة على الإسلام يستحيل أن تجد لها مكانا بين صفوف المسلمين إلا إذا سمح المسلمون لها بذلك. وعندما حذر الله تعالى المؤمنين من التفرق في الدين، كان يعلم سبحانه أن هناك مؤامرات ستحاك بالمسلمين، وأن هناك شيطانا رجيما سيعمل على تفعيل هذه المؤامرات..، ولكن هل يعقل أن يضع الله تعالى مسئولية الشهادة على الناس، في أيدي أمة، لا تعرف كيف تواجه أزماتها وتحدياتها؟!

الحقيقة أن العيب والتقصير فينا..، وليس في غيرنا!!

6. بعد أن نجحت قوى المعارضة، المناهضة لسياسة عثمان، في أن تحرك المسلمين ضده، حتى تم قتله [ت36هـ]، انشقت صفوف الصحابة، وأصبحوا كيانات طائفية متحاربة، بدعوى المطالبة بدم عثمان!! وكان هناك فريق من كبار الصحابة يرى أن علياً بن أبي طالب كان وراء قتل خليفة المسلمين!! فهل هؤلاء هم الذين امتنعوا عن مبايعة عليّ للخلافة، وأنّ من بايع منهم بعد ذلك بايع مكرها؟!

وهل بايع طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة عليا بن أبي طالب خليفة للمسلمين؟! وإذا كانوا قد بايعوه، إذن فلم انقلبوا عليه في موقعة سفكت فيها دماء الآلاف، وكانت سببا في فتن متلاحقة، أطاحت بوحدة الأمة وخيرتها، وهي موقعة الجمل؟!

إن الخلاف حول قتلة عثمان، كان سببا رئيسا لما حدث بين المسلمين بعد ذلك في موقعتي الجمل وصفيّن، فأهل الشام طالبوا بالقصاص من قتلة عثمان، وجعلوه شرطا لبيعة عليّ بن أبي طالب. وأهل مكة استنفروا الناس وجمعوهم، للمطالبة بدم الخليفة المقتول.

وتقابل الفريقان في موقعتي الجمل، بالبصرة..، وصفيّن، على شاطئ نهر دجلة شرقي بلاد الشام!!

وقبل استكمال أحداث الفتن الكبرى، لابد من القول بأن الخلاف بين المؤرخين والمحدثين، المتقدمين منهم والمتأخرين، حول مدى صحة "أحاديث الفتن" كبير..، ذلك أن المحدثين لا يثقون في الأخباريين الذين نقل عنهم المؤرخون أحداث التاريخ. وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد.

والحقيقة أن القضية ليست قضية تصحيح أو تضعيف لأحاديث الفتنة، بقدر ما هي قضية استغلال هذا الباب، باب "الأحاديث" التي نسبها الرواة إلى النبي، وتوظيفها لخدمة التوجهات العقدية والمذهبية المختلفة.

لقد اعتزل بعض الصحابة الفتنة، وتركوا خليفتهم يُذبح في بيته، لوجود أحاديث تحثهم على الاعتزال، ويمدحهم فيها رسول الله، عليه السلام، ويصوّب موقفهم. ويرفض خليفة المسلمين، عثمان بن عفان، الدفاع عنه، واستسلم لقدره، لوجود رؤيا تخبره أن رسول الله في انتظاره في الجنة؟!

الفتنة بين أهل البيت

بويع علي بن أبي طالب بالخلافة على رأس خمسة أيام من مقتل عثمان لخمس بقين، وقيل لسبع، أو لعشر، أو لثمان عشرة من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة في ظل ظروف خطيرة شهدتها الأمة الإسلامية بعد مقتل خليفتها الثالث.

وفي الوقت الذي تحكي بعض المصادر أن مبايعة طلحة والزبير كانت طوعية لعلي، كانت هناك مصادر أشارت إلى مبايعتهما مكرهين.

ومن المصادر الشيعية ما أكدت على مبايعة طلحة والزبير عليا طوعا، وفي نيتهما الخيانة والغدر. وهناك من صرح باستخدام العنف لإجبار طلحة والزبير على مبايعة علي بن أبي طالب.

أما المصادر السنية فجمعت بين الموقفين معا، على الرغم من أن روايات سيف ابن عمر، التي اعتمدت عليها في الفتنة، أكدت استخدام أهل الأمصار القوة لإجبار طلحة والزبير على مبايعة علي.

وقد شهدت مكة نقاشا حادا حول الجهة التي سيذهب إليها الثوار، ثم استقر الرأي أخيرا على المسير إلى البصرة وقالوا للسيدة عائشة:

"اشخصي معنا إلى البصرة فإنا نأتي بلدا مضيعا، وسيحتجون علينا فيه ببيعة علي ابن أبي طالب فتنهضينهم كما أنهضت أهل مكة ثم تقعدين، فإن أصلح الله الأمر كان الذي تريدين، وإلا احتسبنا ودفعنا عن هذا الأمر بجهدنا حتى يقضي الله ما أراد".

وفي الطريق إلى البصرة مر القوم "بماء الحوأب" فنبحتهم كلابه، فسألت السيدة عائشة القوم، وقيل: إنها سألت محمد بن أبي طلحة، أو صاحب جملها، عن اسم الماء الذي مروا به، فقيل لها: إنه ماء الحوأب، فضربت عضد بعيرها وأناخته قائلة:

"أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقا ردوني، تقول ذلك ثلاثا فأناخت وأناخوا".

وقالت: سمعت رسول الله يقول وعنده نساؤه:

"أيتكن تنبحها كلاب الحوأب" أو "كأني بإحداكن قد نبحتها كلاب الحوأب وإياك أن تكوني أنت يا حميراء" أو "لا تكوني التي تنبحك كلاب الحوأب".

وطلبت السيدة عائشة من القوم الرجوع، فلما كانت الساعة التي أناخوا فيها من الغد جاءها عبد الله بن الزبير وقال: أدرككم والله علي بن أبي طالب فارتحلوا ".

وقيل إن عبد الله بن الزبير حلف، وأتاها ببينة زور من الأعراب؛ وقيل بخمسين رجلا من بني عامر أو أربعين أقسموا جميعا لها أنه ليس ماء الحوأب، فزعموا أنها أول شهادة زور شهد بها في الإسلام.

والسؤال: إذا كان هذا "الحديث" صحيحا، لماذا لم ترجع السيدة عائشة من فورها فليست بالتي تلقي بنفسها في التهلكة على بصيرة؟! وإذا كان ضعيفا فلماذا يردده إلى اليوم، مشاهير العلماء، عند ذكرهم أحداث "موقعة الجمل"؟!

ولقد بينت المصادر السنية أن هدف توجه علي بن أبي طالب إلى البصرة، كان لإدراك طلحة والزبير وعائشة وردهم، والتفاهم معهم، ولم يكن بهدف الاصطدام معهم أو قتالهم وأن الأهداف الرئيسة لكلا الفريقين كانت الحفاظ على وحدة المسلمين.

أما المصادر الشيعية فأكدت على أن الهدف الأساس لخروج علي هو مواجهة معسكر عائشة وطلحة والزبير وقتاله، باعتباره معسكر الناكثين لبيعتهم، الخارجين على الدين والإجماع الإسلامي.

وأشارت في معرض تأكيدها على مصداقية موقف علي بن أبي طالب في صراعه مع معسكر السيدة عائشة وطلحة والزبير، إلى ما نسبه الرواة إلى النبي أنه قال للزبير: "ستقاتله وأنت له ظالم". وفي رواية أخرى أن النبي وجه الحديث لعلي قائلا: "أما إن ابن عمتك هذا سيبغي عليك ويريد قتالك ظالما".

وهناك من ذهب إلى أن عبد الله بن عباس هو الذي أقنع الزبير بعدم مواصلة القتال ضد علي، حيث قال له: "يا ابن صفية بنت عبد المطلب، أتقاتل علي بن أبي طالب؟! فرجع الزبير".

أما المصادر السنية فقد استخدمت رواية "ستقاتله وأنت له ظالم" لإبراز تقوى الصحابة وورعهم، حيث اعترف الزبير بـ "الحديث" قائلا لعلي: "اللهم نعم، ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا"، الأمر الذي دفعه لترك المعركة!!

ولكن الغريب، أن الزبير غير رأيه، عندما وبخه ابنه عبد الله بن الزبير ونعته بالجبن، فعاد مرة أخرى إلى القتال بعد أن قدم كفارة عن قسمه، حيث أعتق غلامه!!

فهل هذا يعني أن الزبير كان عاد مرة أخرى لقتال علي بناء على نصيحة ابنه وكان ذلك إقرارا منه بظلمه لعلي، ويكون من الفئة الباغية؟!

واختلفت المصادر حول عدد القتلى في معركة الجمل، فهو عند الشيعة ثلاثون ألفا وعند السنة ستة آلاف قتيل.

ولقد كان من بين قتلى معركة الجمل الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، اللذان تناولت المصادر ظروف مقتلهما بصورة مذهبية مؤسفة!!

ومع اتفاق المصادر على ملابسات مقتل الزبير بن العوام، وأن ذلك كان لموقفه من علي، أكدت المصادر السنية أن مقتله مؤامرة وجريمة ارتكبت بحق أحد أبرز الصحابة الذين أخذوا على عاتقهم مهمة حماية الإسلام ونشره.

وأبرزت معظم المصادر اعتراف طلحة وندمه على خذلانه عثمان، وحملوا مروان ابن الحكم مسؤولية قتله طلحة، ثأرا لبني أمية، الأمر الذي يدحض الاتهامات الموجهة لعلي حول مسؤوليته عن مقتل عثمان ويجعل طلب السيدة عائشة، القصاص من قتلة عثمان في غير محله!!

ومن المصادر السنية من أشار إلى اعتراف طلحة بتقصيره في بذل جهد أكبر لحماية عثمان وأنه أبرز ندمه الشديد على ذلك قبل موته إلا أنها لم تذكر دور "مروان ابن الحكم" في مقتل طلحة!!

وانفردت المصادر السنية بأن وراء أحداث الفتن الكبرى شخصية يهودية تدعى "عبد الله بن سبأ" قامت بدور رئيس في مقتل عثمان، وفي معركة الجمل!!

ولا شك أن ذلك كان لإبعاد مسئولية هذه الفتن عن صحابة رسول الله!!

والغريب أن المصدر الرئيس لهذا الخبر، هو "سيف بن عمر"، والمؤرخ الرئيس الذي نقل عنه دور عبد الله بن سبأ في فتنة عثمان والجمل، هو "الطبري"!!

ألا يشكك ذلك في دور ابن سبأ، الذي يستحيل أن يكون وراء كل هذه الفتن، التي استطاعت في فترة زمنية وجيزة أن تغير مجرى التاريخ لصالح أعداء الإسلام خاصة إذا علمنا أن عدم إتمام الصلح بين معسكري السيدة عائشة وعلي بن أبي طالب كان بسبب نجاح مؤامرة من ابن سبأ أدت إلى اشتباك الطرفين؟!

ولقد كان في كل مِصْرٍ طائفة تنادي بطاعة الإمام وتحرم الخروج عليه، وهؤلاء كانوا ينتظرون حتى يستقر أمر الخلافة ثم يسارعون إلى البيعة، ولم يكن لهم أي دور سياسي في المجتمع، فهم يبايعون من تؤول إليه السلطة.

إن هؤلاء قد بايعوا عليا على الفور، وسيبايعون معاوية..، وكان يطلق عليهم "أهل الجماعة".

ولقد كان انضمام "أهل الجماعة" إلى معسكر علي، واختلاطهم بحركة القراء في مواجهة معسكر السيدة عائشة..، بالإضافة إلى انضمام [الثائرين] من أهل البصرة، الذين ذبح أولادهم في المجزرة التي أعدها لهم طلحة والزبير..، كان ذلك مصححا لما أثير من شبهات حول تواطؤ علي بن أبي طالب مع "حركة القراء" في تمردهم على عثمان وتحريضهم على قتله.

وأمام فتنة "معركة الجمل" نضع هذه المسائل موضع الدراسة والتحليل والمناقشة:

1. لقد شهدت خلافة علي بن أبي طالب ثلاث معارك حربية راح ضحيتها آلاف القتلى من الجانبين، وكانت سببا في ظهور التكتلات المذهبية بعد ذلك:

الأولى: هي موقعة "الجمل"، بين علي بن أبي طالب، الصحابي الكبير، ابن عم النبي، وصهره، وبين أم المؤمنين عائشة، زوج النبي، وبنت الصحابي الكبير أبي بكر الصديق، ومن أكثر رواة الأحاديث، ومعها الصحابيان الكبيران طلحة والزبير.

والثانية: هي معركة "النهروان"، وكانت بين عليّ والخارجين عليه، الذين عرفوا بعد ذلك بفرقة الخوارج.

والثالثة: هي موقعة "صفين"، بين علي ومعاوية، ذي النسب الأموي الرفيع المنزلة عند رسول الله، حتى اختاره من كتبة الوحي، والذي حافظ على ولايته للشام عشرين سنة. ولقد قتل علي، وتولى معاوية الخلافة، وبذلك عادت السيادة، والخلافة مرة ثانية إلى الأمويين، لتستمر هذه المرة تسعين عاما.

والسؤال: هل كان الأمويون، وعلى رأسهم معاوية، وراء هذه المعارك التي لم تقع إلا في خلافة علي، والتي انتهت بقتله، ولم يستطع أحد من ذريته أن يتولاها من بعده بعد أن سلموها لمعاوية؟!

وهل كان الأمويون وراء وضع الرواية التالية التي أخرجها البخاري في صحيحه:

"كنا في زمن النبي لا نعدل بأبي بكر أحدا، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي لا نفاضل بينهم"، دون ذكر لفضل علي بن أبي طالب، وذلك لإضفاء الشرعية على ولايتهم، وبالتالي شرعية خلافة عثمان، وشرعية الخروج على علي بن أبي طالب واستعادتهم الخلافة مرة أخرى؟!

لاشك أن رائحة الوضع ظاهرة، فقد ذكرت الرواية الخلفاء حسب ترتيبهم التاريخي دون أن تشير إلى علي بن أبي طالب، في الوقت الذي يخبر فيه الراوي عن واقعة حدثت في زمن النبي!!

2. تُبرز المصادر السيدة عائشة، بعد مقتل عثمان بالشخصية القوية التي يهابها المسلمون ويلتفون حولها مستسلمين مطيعين، حتى إنها استطاعت أن تجهز جيشا للقتال بكامل عدته. فأين كانت السيدة عائشة عندما حوصر عثمان أربعين ليلة وانتهى الأمر بقتله؟!

كما تبرز المصادر أن السيدة عائشة علمت بمقتل عثمان عند عودتها من مكة متجهة إلى المدينة. وفي طريقها إلى المدينة لقيها عبيد بن أم كلاب فسألته عن أحوال المدينة، قال: قتلوا عثمان ثم مكثوا ثمانيا.

قالت: ثم صنعوا ماذا؟ قال: أخذها أهل المدينة بالإجماع، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز، واجتمعوا إلى علي بن أبي طالب، فقالت: والله ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك، ويحك انظر ما تقول؟!

قال: هو ما قلت لك يا أم المؤمنين. فولولت فقال لها: ما شأنك يا أم المؤمنين والله لا أعرف بين لابتيها أحدا أولى بها منه، ولا أحق، ولا أرى له نظيرا في جميع حالاته فلماذا تكرهين ولايته؟!

صاحت أم المؤمنين: ردوني، ردوني. فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوما، والله لأطلبن بدمه. فقال لها ابن أم كلاب: ولم؟ فو الله إن أول من أمال حرفه لأنت، فلقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلا فقد كفر. قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا، وقولي الأخير خير من قولي الأول".

لقد انصرفت أم المؤمنين إلى مكة، فنزلت على باب المسجد، فقصدت الحجر واجتمع إليها الناس، فقالت: "يأيها الناس إن عثمان قتل مظلوما والله لأطلبن بدمه".

وكانت تقول: "يا معشر قريش إن عثمان قد قتل، قتله علي بن أبي طالب، والله لأنملة أو قالت لليلة من عثمان خير من علي الدهر كله".

لقد استطاعت أم المؤمنين عائشة ببقائها في مكة، منذ أن خرجت للحج قبل مقتل عثمان، أن تحشد أهل مكة حولها، وكذلك والي عثمان عليها، "عبد الله بن عامر الحضرمي". لذلك عندما قتل عثمان وتولى علي الخلافة، رفض أهل مكة ووالي عثمان البيعة لعلي طالبين الثأر لدم عثمان أولا، خاصة وأن من المصادر من يتهم عليا بالتحريض على قتل عثمان.

ومنها من يتهم السيدة عائشة بأن خروجها على علي بن أبي طالب كان وراءه دوافع شخصية بسبب دوره في حادثة الإفك!!

لقد ساعد ولاة الأمصار "المعزولون" من أفراد الأسرة الأموية السيدة عائشة في تحركها، أمثال عبد الله بن عامر والي البصرة سابقا، ويعلى والي اليمن سابقا، وكذلك والي مكة. ولذلك انقسمت الأمصار إلى نصفين:

الأول: مع معسكر السيدة عائشة وطلحة والزبير.

والثاني: مع علي بن أبي طالب، باعتباره خليفة المسلمين الشرعي.

ولاشك أن هذا الانقسام كان له أثره على بيعة المسلمين لعلي، خاصة وأن ترشيحه للخلافة جاء سريعا بإجماع أهل المدينة وحدها، الذين وقفوا بشدة أمام المعارضين لهذا الترشيح كطلحة والزبير، ودون اعتراض من حركة القراء [التنظيم غير الرسمي في الدولة] وعلى رأسهم الأشتر، معتمدين في ذلك على نتائج مجلس الشورى الذي كان قد اختاره عمر بن الخطاب، والتي أسفرت في النهاية عن أن يكون الاختيار بين عثمان وعلي.

كما تذكر المصادر أن طلحة والزبير أُرغما على البيعة حتى يتمكنا من الخروج إلى مكة لّلحاق بأم المؤمنين عائشة. فلما سمح لهما علي بالخروج نكثا بيعتهما. وكان عليّ يقول ردا على موقفهما: إنه بايع أبا بكر مرغما، ومع ذلك فقد ألزم نفسه بشروط هذه البيعة، ولم يخرج على أبي بكر وعمر.

ولقد اتفقت المصادر على أن من أسباب خروج طلحة والزبير على علي بن أبي طالب، أنهما سألاه أن يوليهما البصرة والكوفة فرفض!!

والسؤال: هل خالفت أم المؤمنين عائشة سنة رسول الله، بعدم التزامها بالتحذير الذي وجهه رسول الله إليها مباشرة: "وإياك أن تكوني أنت يا حميراء" في حديث "ماء الحوأب" واستمرارها في خطتها لقتال معسكر علي، الذي أسفر عن سفك دماء آلاف المسلمين بدعوى أنها خُدعت ممن كانوا حولها؟!

وهل خلاف المحدثين حول صحة هذا الحديث، الذي لو عملت أم المؤمنين بما جاء به لأنقذت الأمة من هذه الفتنة الكبرى..، كان خلافا مذهبيا بين المؤيدين لخروجها والمعارضين؟!

وهل عصى الزبير رسول الله وخالف سنته لعدم قبوله تحذير الرسول له من قتال علي حيث قال له: "ستقاتله وأنت له ظالم"، وهو الحديث الذي تنسب بعض المصادر إلى رواة الشيعة وضعه، وذلك لبيان شرعية موقف علي في محاربته لأم المؤمنين عائشة؟!

3. لقد كانت الشام كلها، بقيادة معاوية، ضد علي بن أبي طالب، وكان والي الكوفة أبو موسى الأشعري على رأس المعارضين لسياسة علي في الكوفة، وقد رفض دعمه بجيوش من الكوفة لاسترداد البصرة.

لذلك كان على علي بن أبي طالب أن يستعين بـ "حركة القراء" الذين وصل عددهم إلى خمسة آلاف قارئ لعزل أبي موسى وطرده من الكوفة، والسيطرة عليها وقد نجح في تحقيق ذلك بمساعدة الأشتر وعدي بن حاتم.

ولكن اللافت للنظر أن هؤلاء "القراء" الذين اشترك منهم ما يقرب من ستمائة في غزو المدينة، ويعتبرون من أولئك الذين اشتركوا في قتل عثمان، من وجهة نظر أم المؤمنين عائشة وأنصارها..، يلتفون الآن بشكل علني حول علي، خوفا من ملاحقتهم بالقصاص!!

لقد أصبح الموقف بين الفريقين صعبا للغاية. فأم المؤمنين عائشة وأنصارها لن يبايعوا عليا، وعلي لن يُسلمهم من تتهمهم السيدة عائشة بقتل عثمان، وهم الذين يمثلون جزءا كبيرا من جيشه.

لقد انزلق الفريقان في عمل حربي، يعلن كل معسكر أنه يدافع عن "سنة النبي" ولكن في سبيل من، زوجة النبي عليه السلام، أم ابن عم النبي، رضي الله عنه؟!

لقد اشتعلت الحرب، وقتل آلاف المسلمين في موقعة الجمل وحدها، منهم المئات من أعلام الصحابة من الكوفة والبصرة. وانتصر علي، وتعامل مع المتمردين بحكمة وأعاد أم المؤمنين عائشة إلى المدينة، واستطاع أن يكسب تأييد أهل البصرة، فجددوا له البيعة على الوقوف بجانبه في الحرب والسلم.

لقد نجح عليّ بن أبي طالب في توحيد الصفوف باستثناء جبهة الشام، وساعد معاوية على ذلك أيضا حركة القراء الذين وصل عددهم إلى عشرين ألفا كانوا يسيطرون على معظم الأمصار الكبيرة.

ولكن، وبعد أن زال الخطر عن القراء بمقتل طلحة والزبير، وعودة السيدة عائشة إلى بيتها، خرجت منهم طائفة على عليّ، واتهموه في عقيدته، رافعين راية "إن الحكم إلا لله"!! وهم الذين استغلوا عليا لمحاربة السيدة عائشة، ووعدوه بالوقوف بجانبه لمحاربة معاوية!!

والسؤال: هل حقا، أنه لولا هؤلاء "القراء" ما وصل إلينا كتاب الله تعالى سالما من التحريف والتبديل، لأنهم هم الذين تولوا حفظه، وروايته؟!

ألا يعتبر موقف "القراء" من الفتن الكبرى، دليلا على عدم صحة ادعاء أنصار المذهبية، بأن كتاب الله تعالى، قد جاءنا عن طريق الرواة، كما جاءتنا مرويات الحديث المنسوب إلى النبي، وعلى هذا فإن التشكيك في هذه "الأحاديث" يعني التشكيك في كتاب الله؟!

الحقيقة، إن حالهم وحال مروياتهم ومدوناتهم، يشهدان بفاعلية حفظ الله تعالى لكتابه دون تدخل أحد من البشر.

4. إن صحابة رسول الله، الذين رضي الله تعالى عنهم ورضوا عنه، وشهد الله تعالى بعدالتهم في كتابه الحكيم، لا يجرؤ مسلم أن يمسهم بسوء، أي سوء.

ولكنني اليوم، أمام تراث ديني مذهبي، نقل الإسلام للعالم بصورة مشوهة. فأنا أتعامل في هذه الدراسات مع نصوص التراث التي أمامي، سواء أكانت تاريخية أم حديثية، ولا أتعامل مع أصحابها، الذين لم أعاصرهم، ولا أعلم حقيقة ما نسب إليهم!!

فعلم الحديث، على سبيل المثال، قام على تجريح الرواة وتعديلهم، على أساس مذهبي بهدف قبول مروياتهم أو رفضها.

والتجريح والتعديل كلاهما يقوم على شروط وضعتها كل فرقة وفق عقيدتها، أي إن هذا العلم قامت أصوله على قواعد وضعها علماء كل فرقة وفق شروطهم واجتهاداتهم الشخصية.

والسؤال المنطقي هو:

لماذا أخرج علماء الحديث، كل من اشترك في معارك الفتن الكبرى، وتعمد قتل أخيه المسلم، من دائرة الجرح والتعديل؟! في الوقت الذي تؤكد فيه مصادر "أهل السنة" أن الذين خرجوا على علي بن أبي طالب بُغاة، وأن الذين شاركوا في هذه الفتن الكبرى قد مزقوا وحدة الأمة.

ففي البخاري، باب الفتنة من قبل المشرق: عن سعيد بن جبير قال: خرج علينا عبد الله بن عمر فرجونا أن يحدثنا حديثا حسنا. قال: فبادر إليه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن حدثنا عن القتال في الفتنة والله يقول:

"وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة"، فقال: هل تدرى ما الفتنة ثكلتك أمك؟! إنما كان محمد يقاتل المشركين، وكان الدخول في دينهم فتنة، وليس كقتالكم على الملك.

قال ابن حجر، في الفتح، في شرح هذه الرواية: "أي لم يبق فتنة، أي من أحد من الكفار لأحد من المؤمنين". ثم ذكر سؤاله عن عليّ وعثمان وجواب ابن عمر وقوله هنا: "وليس كقتالكم على الملك" أي في طلب الملك يشير إلى ما وقع بين مروان ثم عبد الملك ابنه وبين ابن الزبير وما أشبه ذلك.

وكان رأي ابن عمر ترك القتال في الفتنة ولو ظهر أن إحدى الطائفتين محقة والأخرى مبطلة. وقيل الفتنة مختصة بما إذا وقع القتال بسبب التغالب في طلب الملك وأما إذا علمت الباغية فلا تسمى فتنة وتجب مقاتلتها حتى ترجع إلى الطاعة. وهذا قول الجمهور".

وفي البخاري، باب الفتنة التي تموج كموج البحر، عن أبي بكرة، قال: "لقد نفعني الله بكلمة أيام الجمل لما بلغ النبي أن فارسا ملكوا ابنة كسرى قال: "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة"!!

ذكر ابن حجر الحديث الثاني رواية المدائني عن العلاء أبي محمد عن أبيه قال: "جاء رجل إلى عليّ وهو بالزاوية فقال:

علام تقاتل هؤلاء؟ قال عليّ: على الحق. قال: فإنهم يقولون إنهم على الحق. قال عليّ: أقاتلهم على الخروج من الجماعة ونكث البيعة". ثم قال ابن حجر:

وأخرج الطبري بسند صحيح عن علقمة قال: قلت للأشتر قد كنت كارها لقتل عثمان فكيف قاتلت يوم الجمل؟ قال: إن هؤلاء بايعوا عليا ثم نكثوا عهده.

وكان الزبير هو الذي حرك عائشة على الخروج فدعوت الله أن يكفينيه. فلقيني كفه بكفي فما رضيت لشدة ساعدي أن قمت في الركاب فضربته على رأسه ضربة فصرعته.

وعن أبي مريم عبد الله بن زياد الأسدي قال: لما سار طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة، بعث علي عمار بن ياسر والحسن بن علي فقدما علينا الكوفة، فصعدا المنبر فكان الحسن بن علي فوق المنبر في أعلاه وقام عمار أسفل من الحسن فاجتمعنا إليه فسمعت عمارا يقول:

"إن عائشة قد سارت إلى البصرة، ووالله إنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي".

ونلاحظ هنا أن كلام عمار الذي نقله البخاري في صحيحه يعني أن كل من حاربوا عليا مع أم المؤمنين عائشة عاصون لله تعالى ورسوله طائعون لها.

لذلك نجد أن ابن حجر يواجه هذه الإشكالية بقوله: "مراد عمار بذلك أن الصواب في تلك القصة كان مع علي، وأن عائشة مع ذلك لم تخرج بذلك عن الإسلام ولا أن تكون زوجة النبي في الجنة، فكان ذلك يعد من إنصاف عمار وشدة ورعه وتحريه قول الحق".

فانظر إلى دفاع ابن حجر عن عمار، الذي يمثل وجهة نظره الخاصة في مسألة لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى.

قال البخاري: حدثنا بدل بن المحبر حدثنا شعبة أخبرني عمرو سمعت أبا وائل يقول: دخل أبو موسى، وأبو مسعود، على عمار حيث بعثه علي إلى أهل الكوفة يستنفرهم. فقالا:

ما رأيناك أتيت أمرا أكره عندنا من إسراعك في هذا الأمر منذ أسلمت.

فقال عمار: ما رأيت منكما منذ أسلمتما أمرا أكره عندي من إبطائكما عن هذا الأمر. وكساهما حُلة حُلة ثم راحوا إلى المسجد.

قال ابن حجر: جعل كل منهم الإبطاء والإسراع عيبا بالنسبة لما يعتقده فعمار: لما في الإبطاء من مخالفة الإمام وترك امتثال "فقاتلوا التي تبغي". والآخران: لما ظهر لهما من ترك مباشرة القتال في الفتنة.

وكان أبو مسعود على رأي أبي موسى في الكف عن القتال تمسكا بالأحاديث الواردة في ذلك، وما في حمل السلاح على المسلم من الوعيد.

وكان عمار على رأي عليّ في قتال الباغين والناكثين، والتمسك بقوله تعالى: "فقاتلوا التي تبغي"، وحمل الوعيد الوارد في القتال على من كان متعديا على صاحبه".

فها هو ابن حجر يكشف لنا عن عقيدة عمار، والتي على أساسها تعتبر أم المؤمنين عائشة، ومن معها من الصحابة، من الباغين الذين وجب قتالهم.

أما عقيدة أبي مسعود، وأبي موسى، التي جاءت الأحاديث تؤيدها، فهي أن الوعيد ينتظر هؤلاء الباغين في الآخرة، لذلك كفا عن القتال وحَمْل السلاح في وجههم.

ثم انظر إلى قول ابن حجر بعد ذلك: وذهب جمهور "أهل السنة" إلى تصويب من قاتل مع عليّ لامتثال قوله تعالى: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا.." الآية، ففيها الأمر بقتال الباغية، وقد ثبت أن من قاتل عليا كانوا بغاة.

ثم قال: وهؤلاء مع هذا التصويب متفقون على أنه لا يذم واحد من هؤلاء بل يقولون: اجتهدوا فأخطأوا.

وذهبت جماعة من أهل السنة، وهو قول كثير من المعتزلة إلى أن كلا من الطائفتين مصيب. وجماعة إلى أن المصيب طائفة لا بعينها!!

فانظر كيف واجه علماء السلف إشكاليات الفتن الكبرى، وخوفهم الاقتراب من أحد من المشاركين فيها بجرح مباشر.

فها هو ابن حجر بعد قوله: "وقد ثبت أن من قاتلوا عليا كانوا بغاة.."، ثم يقول: "لا يذم واحد من هؤلاء"، في الوقت الذي يروي فيه مسلم في صحيحه [كتاب الإمارة] عن أبي هريرة عن النبي، صلى الله عليه وسلم أنه قال:

"من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية". وفيه أيضا: "من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية".

وفيه أيضا: "من كره من أميره شيئا فليصبر عليه فإنه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبرا فمات على ذلك إلا مات ميتة جاهلية".

وروى البخاري [كتاب الفتن] وغيره أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن منازعة أولي الأمر فقال: "إلا أن تروا كفرا بواحا".

ويقول ابن حجر: "وكانت بيعة علي بالخلافة عقب قتل عثمان في أوائل ذي الحجة [35هـ] فبايعه المهاجرون والأنصار وكل من حضر وكتب ببيعته إلى الآفاق فأذعنوا كلهم إلا معاوية في أهل الشام فكان بينهم بعد ما كان".

وحيث إنه قد ثبت أن عليا رضي الله عنه هو الإمام الخليفة الرابع، أمير المؤمنين إذن، فهل كل من خرج على طاعته، ونازعه حكمه، فهو داخل تحت ما سبق من وعيد في هذه الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله؟!

وهل وصل خبر هذه الأحاديث إلى علماء الجرح والتعديل؟!

أم أن خليفة المسلمين علي بن أبي طالب كان قد أظهر الكفر البواح الذي يستوجب معه الخروج عليه ومنازعته حكمه، كما تنص هذه الأحاديث؟!

أم أن الذين خرجوا على بيعته، كمعاوية ومن تبعه من أهل الشام، لم يصلهم حديث رسول الله المتعلق بوجوب بيعة الخليفة والصبر عليه إن كرهوا منه شيئا؟!

كيف تحل هذه الإشكالية عند علماء الجرح والتعديل؟!

وهل يكفي للخروج من هذه الإشكالية القول بـ "عدالة الصحابة"، لقطع الطريق من أوله، وعدم الاقتراب من دائرة الصحابة، أو المساس بأحد منهم، مهما انطبقت عليه شروط علماء الجرح والتعديل، وذلك خشية انهيار الأصول والقواعد التي قام عليها علم الحديث؟!

هل وصل لعلماء الجرح والتعديل، حديث البخاري [كتاب الفتن] يخاطب فيه النبي أصحابه: "أنا فرطكم على الحوض ليُرفعن إليَّ رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني فأقول: أي رب أصحابي فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك".

أليست هذه الرواية من الروايات التي وضعت بعد وفاة رسول الله، وكان على علماء الجرح والتعديل أن ينتبهوا إلى ذلك، حتى لا يفتحوا باب التشكيك في عدالة من عدلهم الله تعالى من صحابة رسول الله؟!

وما موقف هذه الرواية، التي يُتهم رواة الشيعة بوضعها، لإثبات شرعية موقف عليّ ابن أبي طالب في محاربته لأم المؤمنين عائشة، وهي قول النبي للزبير: "ستقاتله وأنت له ظالم"!!

فهل عصى الزبير رسول الله، وخالف سنته، لعدم قبوله تحذير الرسول له من قتال عليّ، في موقعة "الجمل"؟!

ولقد وردت رواية أخرى تقول: "ويح عمار تقتله الفئة الباغية" في موضعين من صحيح البخاري: كتاب الصلاة مع إضافة إلى ما سبق "يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار"، وكتاب الجهاد "يدعوهم إلى الله ويدعونه إلى النار".

أفلا تعتبر هذه الرواية، المنسوبة إلى رسول الله، بيانا من الرسول بأن المعسكر الذي يحارب معسكر عمار مرتكب كبيرة من الكبائر وذلك لقيامه بدعوتهم إلى النار؟! وهل هذه الكبيرة لا تقدح في عدالة الرواة منهم، عند علماء الجرح والتعديل؟!

قالوا: "لم يأمر الله بقتال البغاة ابتداء، بل إذا وقع قتال بين طائفتين من المؤمنين فقد أمر الله بالإصلاح بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى قوتلت"!!

والسؤال: ألم تكن فتنة مقتل عثمان بين طائفتين؟! فلماذا بعد أن فشلت جهود الإصلاح لم يقاتل جيش عثمان، وجيش معاوية، الفئة الباغية؟!

وإن الذين يستدلون على إمكان تقاتل المسلمين، مع ثبات صفة الإيمان للمتقاتلين بقوله تعالى:

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [9] الحجرات

هؤلاء أقول لهم: إن قضيتنا ليست في البحث عن إسلام أو إيمان الناس، وإنما في دراسة وتحليل مذاهب علماء الجرح والتعديل المختلفة المتناقضة. فوصف الله تعالى للطائفتين المتقاتلتين بصفة الإيمان، في الآية السابقة لا يعني أن ذلك هو حقيقة ما في قلوبهم جميعا، فقد يكون وصفا لما أظهره بعضهم من إيمان، وما أعلنوه من إسلام بألسنتهم. تدبر قول الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [10] الممتحنة

تدبر قوله تعالى: "اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ"، ثم قوله بعدها: "فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ".

وكذلك عندما ادعى الأعراب الإيمان وأعلنوا ذلك بألسنتهم وخالطوا المسلمين على هذا الأساس، دون أن يكتشف أحد منهم ما في قلوبهم، نزل القرآن الحكيم يكشف حقيقة أمرهم، ويبين أن هذا الإيمان الذي نطقوا به وتظاهروا بصفته وأحواله، لا حقيقة له في قلوبهم، فلم يدخل أصلا في قلوبهم.

يقول الله تعالى في سورة الحجرات:

قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [14]

وهؤلاء المنافقون من الأعراب منهم طائفة أظهرت الإيمان، وتعاملت مع رسول الله وتعامل معها على هذا الأساس، دون أن يكشف الله لرسوله أمر أفرادها، الذين ذكرهم في سورة التوبة حيث قال تعالى:

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنْ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ [101] التوبة

ولقد وصف الله تعالى أهل المدينة بصفة الإيمان، فقال تعالى:

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [9] الحشر

فهؤلاء الذين "تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ"..، هم أهل المدينة، الذين سكن الإيمان قلوبهم وقد جاء وصفهم هنا ليس على سبيل الحصر، لأن منهم من مردوا على النفاق!!

أما القول بأن قتال المسلمين وسفك دماء بعضهم بعضا كان عن اجتهاد وأن المجتهد في الرأي له أجران إن أصاب وأجر إن أخطأ، فلا مكان لهذا القول هنا على الإطلاق، ذلك أن "الخطأ" المراد في هذا القول، القائم على رواية مذهبية هو ما لا إرادة للإنسان فيه..، فأي اجتهاد هذا الذي تكون ثمرته سفك دماء آلاف المسلمين عمدا مع سبق الإصرار والترصد؟!

وما أدرانا لعل هذه الرواية التي قام عليها هذا القول قد وضعت خصيصا لحل هذه الإشكالية وما يجب أن يترتب على هذه الفتن الكبرى من أحكام شرعية؟!

فكيف يكون أحد الفريقين مأجورا وكل منهما كان حريصا على قتل الآخر مع إشراقة شمس كل يوم من أيام المعركة، فضلا عما كان يعده كل فريق للآخر من تجهيزات وأسلحة تكفل له تحقيق النصر؟!

إن النفس، التي حرم الله قتلها إلا بالحق، تحريما ملازما لها منذ أن خلقت، لا يحل على الإطلاق إعدامها من المجتمع، إلا بنص إلهي يحل الله تعالى به تلك الحرمة.

فتدبر قول الله تعالى:

وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً [33] الإسراء

ثم لماذا نص الله في آية أخرى على استحالة أن يقتل مؤمن مؤمنا إلا خطأ؟!

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنْ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً [92] وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً [93] النساء

وإذا كان الله تعالى قد حذر من قتل المؤمن عمدا، ووعد القاتل جهنم خالدا فيها فأين كانت هذه الآية، وقد كان كل فريق حريصا على قتل الآخر، في معارك حربية دامت أياما، سفكت فيها دماء آلاف المسلمين؟!

وهل لم يصل الحديث المتفق على صحته عند البخاري ومسلم، إلى الفريقين المستحلين دماء بعضهما، وهو:

"لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة"، فيكون رادعا لهما، ومبينا..، أن ما حدث من استحلال دماء بعضهما يعني اتهام كلٍّ للآخر بمفارقة جماعة المسلمين؟!

وحتى لا تكون فتنة وفوضى دموية، ألا يعتبر تعيين القاتل، وإقامة الدليل المثبت لجريمته، من مسئولية السلطة الحاكمة، التي تملك وسائل ضبط الأمن في البلاد؟!

فكيف يحل هذا الإشكال إذا أردنا تطبيق هذه البدهيات على أحداث "الفتن الكبرى"؟

إن السلطة الحاكمة كانت في موقعة "الجمل" في يد خليفة المسلمين علي بن أبي طالب، فعلى أي أساس شرعي، استحلت دماء المسلمين في هذه المعارك؟!

وإذا كان القتل لا يكون "إلا بالحق"، فمع من كان هذا "الحق" الذي استحلت به دماء آلاف المسلمين، في هذه الفتن الكبرى؟!

وإذا كان أحد الفريقين هو الذي بغى على الآخر، وقد أباح القرآن قتال هذا الفريق "فقاتلوا التي تبغي"، إذن فما حكم هؤلاء البغاة، بميزان الجرح والتعديل، هل تقبل مروياتهم، خاصة إذا تدبرنا قول النووي في شرحه على "صحيح مسلم":

"قال العلماء هذا الحديث حجة ظاهرة في أن علياً، رضي الله عنه، كان محقاً مصيباً، والطائفة الأخرى "بغاة" لكنهم مجتهدون، فلا إثم عليهم...، إلى أن قال:

"وفيه معجزة ظاهرة لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، من أوجه منها:

أن عماراً يموت قتيلاً، وأنه يقتله مسلمون، وأنهم بغاة، وأن الصحابة يتقاتلون وأنهم يكونون فرقتين، باغية، وغيرها، وكل هذا قد وقع مثل فلق الصبح، صلى الله وسلم على رسوله، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى"!!

إن "البغي" يعني تعدي الباغي على حقوق غيره. يقول ابن منظور، في لسان العرب: "بغى الرجل علينا بغيا، أي عدل عن الحق واستطال، وهو الظلم والفساد".

و"الطائفة الباغية"، هي الظالمة الخارجة عن طاعة الإمام.

ألا تقدح صفة "البغي" في عدالة الراوي عند علماء الجرح والتعديل [مع بقائه على إسلامه وإيمانه] خاصة إذا كان الأمر يتعلق بنزاع على الخلافة، وخروج على طاعة الخليفة ما ترتب على ذلك من معارك سفكت فيها دماء عشرات الآلاف من المسلمين؟

ومع ذلك، يصر علماء السلف على تدعيم جذور التخاصم المذهبي بين أتباع الفرق الإسلامية المختلفة، بسبب هذه الرواية!! فيقول ابن كثير، في "البداية والنهاية":

"ولا يلزم من تسمية أصحاب معاوية "بغاة" تكفيرهم، كما يحاوله جهلة الفرقة الضالة من الشيعة وغيرهم، لأنهم وإن كانوا "بغاة" في نفس الأمر، فإنهم كانوا مجتهدين فيما تعاطوه من القتال، وليس كل مجتهد مصيباً، بل المصيب له أجران والمخطئ له أجر ومن زاد في هذا الحديث بعد "تقتلك الفئة الباغية، لا أنالها الله شفاعتي يوم القيامة" فقد افترى في هذه الزيادة على رسول الله، فإنه لم يقلها إذا لم تنقل من طريق تقبل والله أعلم".

إذن فابن كثير يثبت قول الراوي: "تقتلك الفئة الباغية"، أما الذي ينفيه فهو هذه الزيادة: "لا أنالها الله شفاعتي يوم القيامة"!! وشيخ الإسلام ابن تيمية يثبت أيضا صحة قول الراوي: "تقتلك الفئة الباغية"، فيقول في الفتاوي: "وليس في كون عمار "تقتله الفئة الباغية" ما ينافي ما ذكرناه، فإنه قد قال الله تعالى: وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا... وذكر الآية، ثم قال:

"فقد جعلهم مع وجود الاقتتال والبغي مؤمنين إخوة، بل مع أمره بقتال الفئة الباغية جعلهم مؤمنين، وليس كل ما كان بغياً وظلماً أو عدواناً يخرج عموم الناس عن الإيمان ولا يوجب لعنتهم، فكيف يخرج ذلك من كان من خير القرون؟!".

وهناك من يقول: إن الاقتتال بين المسلمين في أحداث "الفتن الكبرى" لم يكن لساعة أو ليوم، حتى نعتبره حادثة عارضة، وإنما استمر أياما، ومع سبق الإصرار والترصد وراح ضحيته آلاف المسلمين..، فهل يستويان؟!

الفتنة بين كُتّاب الوحي

تؤكد المصادر الشيعية أن مطالبة معاوية بدم عثمان مجرد خدعة مكشوفة، تعاون معه فيها عمرو بن العاص بهدف إثارة الناس ضد علي بن أبي طالب. الحقيقة أن معاوية وعمرو بن العاص كانا أول من خذل عثمان ولم ينصراه عندما استنصرهما أثناء الحصار.

أما المصادر السنية فقد أكدت على أن الثأر لعثمان كان واجبا دينيا مقدسا، خاصة وأن جيش علي كان يضم عناصر عديدة شاركت في قتل عثمان.

وذكرت بعض المصادر أن معاوية استغل مبدأ الشورى في الإسلام وجعل مطالبته بدم عثمان عن طريق الدعوة إلى الشورى، عقب انتهاء معركة الجمل، فدعا أهل الشام إلى القتال على الشورى، والطلب بدم عثمان، فبايعوه على ذلك.

فهل هذا يعني تحالف معاوية مع السيدة عائشة وأنصارها بهدف رفض الاعتراف بشرعية خلافة علي؟!

تحدثت المصادر عن تعبئة علي ومعاوية لقواتهما استعدادا للمواجهة، وأشارت إلى الدعم الذي حظي به كل طرف من أطراف الصراع.

أما الشام فأيدت قبائله وقياداته ورجالاته معاوية في صراعه مع علي معلنة دعمها المطلق له في مطالبته بالثأر لدم عثمان.

كما أكدت مصادر الشيعة خلو جيش معاوية من المهاجرين والأنصار، أو ندرة عددهم، فهم لم يتجاوزوا أصابع اليد، وذلك لإبراز عدم تأييد الصحابة لمعاوية ومعارضتهم الشديدة له، وتأييدهم لعلي، الخليفة الشرعي للمسلمين.

واختلفت المصادر السنية في بيان مشاركة الصحابة لمعاوية في صراعه ضد عليّ ففريق يرى أن ذلك كان دعما لعليّ، وفريق يرى أن ذلك كان لإبعاد الصحابة عن دائرة المشاركة في الفتنة!!

وأكدت المصادر السنية انضمام أربعة آلاف من "القراء" إلى معاوية بقيادة عبيد الله ابن عمر بن الخطاب الذي بلغت قواته ثلاثين ألف مقاتل، وقيل ما بين سبعين ومئة ألف. أما المصادر الشيعية فلم تذكر عددها ربما لعدم إبراز الدعم الذي لاقاه معاوية!!

لقد التقى الطرفان في سهل صفين قرب الرقة، في شهر ذي الحجة من سنة [36هـ] في تعبئة واستعداد يظهران حرص كل منهما على حسم الأمور لصالحه بسرعة. وفي يوم الخميس [12] صفر أصبح القتال شاملا، ووصف بأنه اليوم الأطول وأطلق على ليله اسم الهرير. ومع اشتداد المواجهة وكثرة القتلى بين القبائل خشيت العرب على نفسها من الفناء والهلاك، وقال علي: "وددت أني مت قبل هذا بعشرين سنة"!! وأرسل إلى معاوية يسأله ألا يغرق وألا يسفك دماء المسلمين.

وفي هذه الأجواء رفع الجيش الشامي المصاحف، فتوقف القتال بعد أن خلف وراءه استنادا إلى بعض المصادر [خمسة وعشرين ألف] قتيل من أهل العراق و[خمسة وأربعين ألف] قتيل من أهل الشام، في حين أكدت مصادر أخرى أن عدد القتلى تجاوز [مئة ألف] من الطرفين.

وتذكر المصادر أن الضغط العسكري العراقي على الجبهة الشامية دفع عمرو ابن العاص إلى اقتراح فكرة رفع المصاحف بهدف إيقاف القتال، والرجوع إلى حكم الله ولاقت هذه الفكرة تأييدا وتشجيعا من معاوية وقيادات أهل الشام.

وأكدت المصادر الشيعية اختيار معاوية [وقيل أهل الشام] عمرو بن العاص ممثلا عنهم في مفاوضات ومؤتمر التحكيم. في حين أشارت المصادر السنية إلى أن أهل الشام اختاروا في البداية رجلين من الأنصار هما: عبادة بن الصامت وشداد بن أوس ابن ثابت فقيل لمعاوية: أجعلت أنصاريين والله ليحكمان عليك؟ فاختار بعدهما عمرو ابن العاص، الذي وصفه أهل العراق بالقوي والفاجر والخائن وداهية العرب بينما وصفه أهل الشام بالمحنك والداهية.

كتب الطرفان بينهما كتاب التحكيم يوم الأربعاء وقيل الجمعة، لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين للهجرة، وكتبه عبد الله بن أبي رافع كاتب علي وعمير بن عباد الكناني، كاتب معاوية.

ولكن أظهرت بعض المصادر الصورة السلبية لمعاوية وقواته، فلم تتورع عن سفك دماء الأبرياء من قوات علي وأنصاره، وسلب أموالهم، وتدمير بيوتهم وممتلكاتهم... في حين أشارت إلى حرص عليّ الشديد على عدم إيذاء الناس والحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم. كما أكدت على الدور الكبير الذي قامت به "العثمانية" في دعم غارات معاوية ومعارضة تحركات عليّ بن أبي طالب.

وأشارت المصادر إلى ظروف مقتل علي، ففي ليلة 17 رمضان [40هـ] خرج ابن ملجم ومعه خارجيان قدمتهما له قطام ليساعداه، وهما: شبيب بن بجرة ووردان ابن المجالد، وجلسوا أمام السدة التي اعتاد أن يخرج منها علي أثناء توجهه لصلاة الصبح فوثب عليه ابن ملجم وضربه بالسيف على رأسه وهو يقول: "الحكم لله يا علي لا لك".

مكث عليّ يوم الجمعة ويوم السبت وتوفي ليلة الأحد، لعشر وقيل لإحدى عشرة أو لثلاث عشرة من رمضان عام [40هـ] وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وصلى عليه الحسن، ودفن بالكوفة في منطقة تدعى بالغري، وقيل الكناسة وقيل السدة، وعُمّي قبره مخافة أن تنبشه الخوارج..، فلم يُعرف.

وأمام فتنة "معركة صفين" نضع هذه المسائل موضع الدراسة والتحليل والمناقشة:

1. في هذا الجو المشحون بالمواقف العدائية، والقبلية..، ظهرت الأحاديث المنسوبة إلى النبي، المؤيدة لموقف علي في صراعه مع معاوية.

فذكرت المصادر الشيعية تعهد الرسول لعلي بقتال الناكثين [وهم أهل الجمل] والقاسطين [وهم أهل الشام] والمارقين [وهم أهل النهروان]، وذكرت الأحاديث التي تمنح عليا غطاء شرعيا حقيقا في مواجهة أعدائه من القاسطين والباغين، وأن معاداة المسلمين لمعاوية واجب شرعي على المسلمين كافة.

وأظهرت المصادر الشيعية دعم الرسول المطلق لعلي، وذكروا حديث "غدير خم" وأدلة صحته، وإقرار الرسول لعمار بن ياسر بأن الفئة الباغية ستقتله: "تقتل عمارا الفئة الباغية"، معتبرين التواني في نصرة عليّ مخالَفَة صريحة لسنة النبي..، في الوقت الذي ذكرت فيه مصادر أخرى أن معاوية كان يرى أن الفئة التي ستجلب عمارا للقتال هي الفئة التي ستقتله وهي الفئة الباغية!!

ولم تذكر المصادر السنية أحاديث تدعم عليا في صراعه مع معاوية، باستثناء حديث يتعلق بمسؤولية الفئة الباغية عن قتل عمار بن ياسر، وأن كل طرف من أطراف الصراع كان يفسر حديث "الفئة الباغية" حسب أهدافه الخاصة.

2. إذا ذهبنا إلى حديث "غدير خم"، المدعم لموقف علي في صراعه مع خصومه وموقف الشيعة عموما..، نجد أن "الطبري"، وهو المؤرخ الرئيس لفرقة أهل السنة، لم يذكره في تاريخه أثناء استعراضه لأحداث الصراع بين علي ومعاوية!!

لقد ذكر الطبري حديث "غدير خم" في كتابه، "فضائل علي بن أبي طالب"، ردا على تكذيب بعض الشيوخ في بغداد للحديث وقولهم: إن علي بن أبي طالب كان باليمن في الوقت الذي كان رسول الله بغدير خم. فعندما بلغ الطبري ذلك، تكلم في فضائل علي بن أبي طالب، وذكر طرق حديث "غدير خم"، فكبر النّاس لاجتماع ذلك.

وإليك نص حديث "غدير خم": عن البراء بن عازب قال:

"كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، في سفر فنزلنا بغدير خم، فنودي فينا: الصلاة جامعة، وكسح لرسول الله تحت شجرتين، فصلى الظهر، وأخذ بيد علي فقال:

"ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى!! فأخذ بيد علي فقال:

"من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، قال: فلقيه عمر فقال له هنيئا يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت ولي كل مؤمن ومؤمنة".

وهذا الحديث مختلف في صحته، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وناقش من قال بضعفه.

وقد أثنى الذهبي [ت748هـ] على الطبري [ت310 هـ] لجمعه طرق هذا الحديث قائلا: "جمع طرق "خم" في أربعة أجزاء رأيت شطره فبهرني سعة رواياته، وجزمت بوقوع ذلك".

وقد ذكر ابن حجر [ت852هـ] في "لسان الميزان"، وهو كتاب في علم الجرح والتعديل، ذكر الخلاف حول اتهام محمد بن جرير بن يزيد الطبري، المؤرخ والمفسر السني..، اتهامه بالتشيع لتصحيحه حديث "غدير خم"، وهناك احتمال أن يكون المتهم هو: محمد بن جرير بن رستم أبو جعفر الطبري، الإمام الشيعي!!

وعلينا أن نلاحظ، في هذا السياق، هذه الإشكالية: لقد توفى الطبري السني المذهب مع بداية القرن الرابع الهجري، وتوفي ابن حجر مع منتصف القرن التاسع الهجري، وما زال هناك خلط بين أسماء أئمة الفرق المختلفة، وما زالت الحقيقة لا يعلمها إلا الله تعالى..، لذلك نلاحظ قولهم دائما، بعد ذكر أي خلاف: "والله أعلم"!!

إذن، فإذا كانت إشكالات التراث الديني تفهم بهذه الطريقة، فلماذا نجزم بصحة الأحاديث، التي نسبها الرواة إلى رسول الله، ونكفر من ينكرها..، ولا نتوقف ونقول:

"والله أعلم بصحتها"، فنخرج بذلك من دائرة التخاصم والتكفير المذهبية؟!

كما نلاحظ أن الطبري، وهو شيخ المؤرخين، والمفسرين، يفصل بين إثبات صحة "الحديث"، كسنة نبوية، وبين العمل بما جاء به..، فلم يتبع الشيعة في قولهم: إن هذا الحديث نص صريح على تعيين الرسول لعلي بن أبي طالب، خليفة من بعده!! لقد فصل الطبري بين قناعته بصحة الحديث النبوي، وبين العمل بما جاء به..، فهو يرى أن أحق الناس بالخلافة بعد الرسول وأولاهم بالإمامة، هم: أبو بكر الصديق، ثم عمر ابن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب.

والسؤال: كيف نفهم هذا الموقف المحير، للطبري، من نص من نصوص "السنة النبوية" يتصارع على فهمه والعمل بمقتضاه، أيضا علماء الفرق والمذاهب المختلفة؟!

قيل: إن الطبري عندما صحح حديث "غدير خم"، لم يكن ذلك للاحتجاج به على صحة إثبات الخلافة لعلي، كما فعل الشيعة، وإنما كان لبيان فضائله والرد على منتقديه. لذلك لم يذكره في تاريخه حتى لا يُستخدم كدليل وغطاء شرعي قدمه الرسول لعلي لإثبات عدالة مواقفه وتحركاته ضد أعدائه.

في نفس الوقت يرى أئمة الشيعة وعلماؤهم، أن هذا الحديث نص صريح في إمامة عليّ وأحقيته بالخلافة من أبي بكر!!

ألم أقل إن تفرق المسلمين في الدين هو تفرق عقدي، وليس سياسيا، وضعت بذوره ورسول الله على فراش الموت؟!

3. أشارت المصادر السنية إلى رفض معاوية، أو عمرو بن العاص، كتابة "أمير المؤمنين" بجانب اسم علي في وثيقة التحكيم، لعدم اعترافهم بذلك.

أما المصادر الشيعية فأبرزت دور الأشعث بن قيس في دفع علي إلى محو لقبه الأمرُ الذي أثار غضب الأشتر والأحنف بن قيس.

وأكدت المصادر موافقة عليّ الطوعية على الاقتراح بمحو لقب أمير المؤمنين بعد أن استشار زعماء بني هاشم، وبعد أن تذكر حادثة مماثلة واجهها الرسول يوم الحديبية حينما اعترض الكفار على تسمية "رسول الله"، ودعوه لكتابة اسمه واسم أبيه في وثيقة اتفاقهما، فمحا الرسول ذلك بيده، وأمر عليا بكتابة: من محمد بن عبد الله قائلا: "إن اسمي واسم أبي لا يذهبان بنبوتي" وأضاف علي: "وكذلك كتب الأنبياء، كما كتب رسول الله إلى الآباء، وإن اسمي واسم أبي لا يذهبان بإمرتي".

والهدف من إبراز المصادر لهذه الرواية هو إيجاد مبرر لموافقة عليّ على محو لقبه وخاصة أن هذه الموافقة هوجمت فيما بعد من الخوارج. لقد اعتبر الخوارج هذا الموقف تنازلا من علي عن الخلافة التي بايعه عامة المسلمين عليها، ولذلك يحتمل أن تكون هذه الرواية من المرويات التي وضعها الرواة فيما بعد.

والسؤال: ألا يعد عدم إصرار عليّ على تثبيت لقبه "أمير المؤمنين" قد أتاح لمعاوية طرح مصطلح الشورى، وأعطاه غطاء شرعيا للخروج على خلافته، وعدم الاعتراف بها.

4. لقد استعرضت المصادر الظروف التي رافقت مقتل علي [40هـ] وأدانتها جميعا مشيرة في الوقت نفسه إلى نتائجها الوخيمة على المجتمع الإسلامي وعلى مؤسسة الخلافة، وحملت بعض هذه المصادر الخوارج مسؤولية قتل عليّ!!

وكان الخوارج قد اعترفوا بصحة خلافة أبي بكر وعمر، ورأوا في عمر الخليفة المثالي الذي يجب على المسلمين انتهاج سياسته.

كما اعترفوا بصحة خلافة عثمان خلال السنوات الست الأولى من حكمه، أما بعد ذلك فلم يعترفوا بإمامته وأنكروا أعماله واعترفوا بخلافة علي حتى التحكيم، ثم تبرءوا منه بعد ذلك واتهموه بالكفر وطالبوه بالتوبة، ودعوه إلى عدم تأكيد أحقيته بالخلافة، اعتمادا على قرابته للرسول وسابقته في الإسلام.

وأجاز الخوارج قتل كل مسلم لا يرى رأيهم، وقتلوا أعدادا من المسلمين، رجالا ونساء بحجة مخالفتهم لآرائهم، في الوقت الذي عفوا عن أهل الذمة حفظا لذمة الرسول. وكان علي قد توجه لقتالهم في النهروان في المحرم عام [38هـ].

ولقد ذكرت المصادر الأحاديث، المنسوبة إلى النبي، التي تدعم عليا في قتاله مع الخوارج، منها قول علي إن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أمره بقتال المارقين وهم أصحاب النهر، وأبلغه:

"أن قوما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية طوبى لمن قتلهم وقتلوه، علامتهم فيهم رجل مخدج اليد".

وهناك من المصادر، كالطبري، من ذكر وصف علي الخوارج بأنهم يقرءون القرآن ولا يجاوز تراقيهم، ويمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، دون أن يشير إلى أن ذلك حديث الرسول..، فهل كان ذلك لعدم اطمئنانه لصحة الحديث؟!

ونلاحظ أن المصادر الشيعية لم تشر إلى أحاديث للرسول، دعم بها علي موقفه في قتاله خوارج النهروان!!

والسؤال: أهكذا يكون التعامل مع نصوص "السنة النبوية"، التي يرى معظم علماء الفرق والمذاهب المختلفة وجوب اتباعها؟!

5. أشارت بعض المصادر إلى صفات لعلي، تشبه معجزات الأنبياء، فهو يعرف قاتله منذ أن بايعه الناس بالخلافة، إذ رفض أخذ البيعة من ابن ملجم قائلا له:

"لتُخضّبن هذه اللحية من جبهته"، ورفض القبض عليه قبيل طعنه بقليل للتحقيق معه فيما يقوله في الكوفة من أنه يعد سيفه لضربة عظيمة!!

وأعلن عليّ صراحة عدم خشيته من تحذيرات أصحابه له، بأن هناك من يتربص به ليقتله لأن الموت قدر لا مفر منه!!

وقد أشارت المصادر الشيعية إلى روايات أظهرت خيبة علي في أمته، لإنكارها مكانته وقدره، وجحودها كل ما قدمه لها من علم وعمل، ما دفعه للقول بأنه ينتظر الموت بفارغ الصبر ومخاطبة أهل الكوفة: "سلوني قبل أن تفقدوني" كما خاطب لحيته: "واها لك لتخضبن بدم".

وقدمت هذه المصادر صورة خيالية للحظات الأخيرة من حياة عليّ، إذ رأى الرسول صلى الله عليه وسلم، قبل خروجه لصلاته الأخيرة، فشكا له ما يلاقيه من أمته فدعاه للدعوة عليهم، فقال:

"اللهم أبدلني بهم خيرا منهم وأبدلهم بي شرا لهم مني". وفي الطريق إلى المسجد لحقته أوزات تعلقن بثوبه فقال: "صوائح تتبعهن نوائح".

ومع ذلك خرج ينشد أبياتا عن الشجاعة في مواجهة الموت. وبعد أن ضربه ابن ملجم بسيفه صاح قائلا: "فزت ورب الكعبة".

وأكدت هذه المصادر أن الحادث قدر مقدر كتبه الله على عبيده، ولا يمكن لهم مواجهته أو الحيلولة دون وقوعه. كما أشارت إلى رفض علي المطلق مواجهة هذا القدر بالقبض على قاتله أو قتله، على الرغم من مقدرته على ذلك، بفعل ما أعطي من إمكانيات فوق مقدرة البشر، فهو يعرف قاتله ويقابله ويقف معه ويعرف موعد طعن القاتل له وتاريخ ذلك.

ويبدو أن المصادر أرادت التأكيد على أن القاتل ليس إلا أداة أرسلها الله لتنفيذ قدره وحكمه، في الوقت الذي أدانت فيه مواقف الأمة الإسلامية من علي، ووسمتها بالجحود والنكران والخذلان.

أما المصادر السنية فقد تجاهلت هذه التفاصيل، ولعل ذلك يعود إلى إيمانها بأن أجزاء كبيرة منها موضوعة على الرسول، وعلى علي، وبسبب مخالفتها الواضحة للمفاهيم الإسلامية التي تنفي إمكانية اطلاع البشر على الغيب. إذن هناك اعتراف رسمي بوضع الأحاديث، المنسوبة إلى النبي، في عصر الفتن الكبرى!! في الوقت الذي يرى فيه بعضهم صحة هذه الأحاديث، بل قد ترقى إلى المتواتر، أعلى درجات الصحة!!

والسؤال: هل يعقل أن يترك الله تعالى نصوص مصدر تشريعي، واجب الاتباع هكذا في أيدي علماء الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف، ليوظفها كل فريق حسب توجهه العقدي؟!

ألم تكن فلسفة "القدر" هذه، هي الحاكمة على ظروف مقتل الخليفة الثالث عثمان ابن عفان؟! ألم يستسلم عثمان للموت لأن الرسول أمره بذلك ليفطر معه في الجنة؟!

فهل تواصلت هذه العقيدة "القدرية" بين المسلمين حتى خلافة عليّ، حتى نُسب إليه أنه كان قدريا؟! فقد علم علي قبل قتله: من هو القاتل، وأين ستوجه إليه الضربة القاتلة وموعد قتله، بل ورأى القاتل قبلها..، ولم يفعل شيئا تجاهه، وهذا كله لعلمه المسبق من النبي أن ما سيلقاه هو قدر الله الذي لا راد له!!

هل هذه حقيقة، أم هي افتراء من افتراءات عصر التدوين؟! أهكذا تعرض سيرة الخلفاء الراشدين، واستسلامهم لأعدائهم، ووقوف الأمة الإسلامية موقف المتفرج على وقائع القتل؟!

6. كيف لنا أن نتعرف اليوم على الخارجين على "الجماعة" وهي في عصرها الأول؟! ولماذا سمي العام الذي سيطر فيه معاوية على الأمصار، بعام "الجماعة"؟! ولماذا بدأت التكتلات الظاهرة أو الخفية، والمصطلحات المذهبية تأخذ مكانها في العصر الأموي مثل: الناصبة [أهل السنة] الرافضة [الشيعة]، القدرية، الجبرية، كذلك مصطلح الإمامة، شق عصا الطاعة..، وكلها تستند إلى أحاديث منسوبة إلى النبي؟!

وكيف نفسر أن معظم كتبة الوحي قد اشتركوا في هذه الفتن الكبرى باستثناء الشيخين: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب؟!

لقد ذكر ابن كثير [في البداية والنهاية] أسماء كتبة الوحي فقال: "أما كتاب الوحي وغيره بين يديه صلوات الله وسلامه عليه، ورضي عنهم أجمعين، فمنهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

ثم ذكر: أبان بن سعيد بن العاص، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل وأرقم بن أبي الأرقم واسمه عبد مناف، وثابت بن قيس بن شماس، وحنظلة بن الربيع وخالد بن سعيد بن العاص، وخالد بن الوليد، والزبير بن العوام، وعبد الله ابن سعد ابن أبي سرح، وعامر بن فهيرة، وعبد الله بن أرقم، وعبد الله بن زيد بن عبد ربه، والعلاء ابن الحضرمي، ومحمد بن مسلمة بن جريس، ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهم".

والسؤال: لماذا لم يشمل ميزان الجرح والتعديل هؤلاء، ومعظمهم من نقلة الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله؟! أليسوا هم القاعدة التي قامت عليها آلاف المرويات، حتى وصلت إلى عصر التدوين؟!

ولماذا لم يتصد أحد لمنع هذه المرويات من الانتشار، حتى وصلت إلى عصر التدوين، بهذه الصورة المذهبية المؤسفة، التي فرضت على علماء السلف أن يجتهدوا لتمييز ما يظن كل واحد منهم أنه صحيح، أو ضعيف، وفق أصول مذهبه.

لماذا يستبعد أن تكون أحاديث الفتن، والخلافة، ووجوب لزوم الجماعة، والإمامة والبيعة، وقتل المخالف في العقيدة..، إلى آخره، قد نسجت خيوطها في عصر هذه الفتن الكبرى وما بعده.

ألا يعتبر حديث: "تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة" من الأمثلة الدالة على أن مسألة وضع أحاديث لخدمة أغراض معينة، كانت من المسائل الميسرة جدا، قبل عصر التدوين؟! فمن هي هذه الفرقة الواحدة التي تنبأ رسول الله بنجاتها من النار، وكل فرقة تدعي أنها هي الناجية!!

هل يريد أنصار الفُرقة أن يقولوا: إن رسول الله، عليه السلام، قد علم من ربه بأن أمته ستفترق وتتصارع وتتقاتل، ويكفر بعضها بعضا، وأن هذا قدر الله عليهم؟!

والسؤال المحير: ولماذا ظلت مسألة التصحيح والتضعيف قائمة إلى يومنا هذا؟!

انظر مثلا موسوعة الشيخ الألباني، السني المذهب، في الصحيح والضعيف، ثم جاء من صحح ضعيفه، وضعف صحيحه، كالشيخ حسن بن علي السقاف..، والخلاف بينهما، وبين أتباعهما، مدوّن في الكتب، ومنشور على شبكة الإنترنت!!

إن الهدف مما سبق بيانه، في هذه النظرة الموجزة لبعض أحداث "الفتن الكبرى" هو الوقوف على طبيعة قنوات الاتصال المذهبية التي حملت إلينا هذه الأحداث والمرويات المنسوبة إلى النبي، المتعلقة بها، وكيف تناولها المحدثون والمؤرخون كل حسب مذهبه في التصحيح والتضعيف، والجرح والتعديل.

إننا إذا نظرنا إلى مرويات [الأخباريين] الأُول، الذين نقلوا أحداثا سبقتهم بقرن من الزمان، نجد عند التحقيق العلمي أنهم نقلوا هذه الأحداث شفاهة عن رواة لا نملك لهم اليوم مدونات نرجع إليها للتحقق من صحة ما تم نقله.

وإذا نظرنا إلى عصر [المؤرخين] الأُول، وجدناه أيضا يبعد قرنا آخر عن عصر الأخباريين. لذلك لم يختلف المؤرخون على وقوع هذه الفتن الكبرى بوجه عام، وإنما اختلفوا في زوايا رؤيتهم لها، كل حسب رؤيته المذهبية.

وإذا كانت هناك مدونات لهذه الأحداث التاريخية، أو للأحاديث المنسوبة إلى رسول الله..، كُتبت قبل القرن الثاني الهجري، وكان المسلمون يتبعونها..، فأين هي إذن... لأنها لو وجدت، لكانت أصح ما كتب في "الحديث النبوي"، ولاجتمع عليها كافة علماء الفرق والمذاهب المختلفة؟!

خلاصة الدراسة

لقد تواصلت فتنة [الآبائية] ونجح الشيطان في تفعيلها بين أتباع رسول الله محمد عليه السلام، فتفرقوا، وتخاصموا..، وتحولت مسائل الخلاف من دائرة الحوار العلمي القائم على الحجة والبرهان، وتفعيل "الآية القرآنية" واستلهام عطائها..، إلى دائرة الصراع المذهبي، القائم على الظن والهوى!!

لقد حول الشيطان القضية من إقامة الحجة والبرهان على صحة تدين الإنسان الوراثي، وعلى اتباعه الحق المنزل على رسوله..، إلى قضية مذهبية، يتمسك كل مسلم فيها بما وجد عليه آباءه، يدافع عنه، ويقاتل في سبيله!!

وتزداد حدة التعصب المذهبي، عندما يولد الأبناء في بيئات مذهبية متعصبة إلى أئمة المذهب، ثم تربيتهم على أصوله الفقهية، وإقامة القنوات المحلية والفضائية، التي تعمل ليل نهار على تدعيم ذلك...، الأمر الذي يقف عقبة أمام إعادة الإنسان النظر في تدينه الوراثي فتتسع دائرة التقليد الأعمى، ويسود ضيق الأفق وجمود الفكر.

إن الإشكالية التي يواجهها العالم الإسلامي اليوم أمام التحديات العالمية المعاصرة إشكالية فكرية، قامت على ثقافة دينية مغلوطة، وعلى فقه "التطرف الديني" الذي قام في القلوب، قبل أن يقوم على أرض الواقع.

فما جدوى أن تُستخدم منابر الدعوة الإسلامية، بوسائلها وآلياتها المختلفة، وتوظف لنشر هذه الثقافة المذهبية التخاصمية، التي قامت على فتنة "التفرق في الدين"، مخالفة بذلك ما أمر الله تعالى به في كتابه، وتمسك به رسوله، عليه السلام، في سنته؟!

لذلك كان من الضروري، والحتمي، إعادة قراءة نصوص "الآية القرآنية"، وتفاعلها مع السنن الكونية قراءة صحيحة، نتعلم منها الدرس، ونأخذ منها العبر والعظات ونستلهم منها عطاء "الآية القرآنية" المتجدد على مر العصور.

الفهرس

هذا الكتاب

هل يعقل أن يولد الإنسان حرا، مزودا بإمكانات الإبداع والتطور الفكري، فإذا هو مع انتهاء فترة طفولته، يجد نفسه أسير آبائه، فاقد الحرية الدينية، يعيش في دائرة التقليد الأعمى، سجين الظن والوهم..، فإن أراد الخروج منها، اتهم بالردة ويستتاب "فإن تاب وإلا قتل"؟!

إنه لا سبيل أمام أتباع الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة، إلى معرفة خطر التقليد الأعمى، وما ورثوه عن آبائهم من ثقافة روائية تخاصمية، وما مرت به الأمة الإسلامية من أحداث وفتن وصراعات، وهي في عصرها الأول..، إلا بتدبر نصوص "الآية القرآنية"، التي جعلها الله حجة على العالمين إلى يوم الدين، وما حملته من تحذير من التفرق في الدين، ودراسة ما دونه المؤرخون والمحدثون الأُول عن أحداث "الفتن الكبرى"، ثم مطابقة ذلك بواقعهم اليوم.

إن الخطاب عندما تتناقله الألسن عبر ساعات، ثم يطلب ممن وصل إليهم الخطاب أن يدونوه، جاءت مدوناتهم تحمل مفارقات عجيبة..، قد تصل إلى حد تغيير مضمون نص الخطاب الأصلي كلية. فكيف بحال مرويات تناقلتها الألسن شفاهة، عبر عشرات السنين من الفتن والصراعات المذهبية، إلى أن جاء عصر التدوين، فدوّن أتباع كل فرقة مدوناتهم، حسب مذهبهم الديني، وما سمحت به السلطة الحاكمة وقتها؟!

لذلك، ولبيان طبيعة وخصائص النص التشريعي الإلهي، وصف الله تعالى آية رسوله الخاتم، عليه السلام، بـ "الكتاب"، و"القرآن"، لأن نصوصها دوّنت في "كتاب" فور نزولها، لـ "تقرأ" على الدوام، فتقوم حجيتها على الناس، بما حملته من برهان [في ذاتها] على صحة نسبتها إلى الله تعالى.

د. محمد السعيد مشتهري

www.feqhelquran.com